تأليف: غارانس لو كيزن
ترجمة: أنس عيسى

عملية قيصر
في قلب آلة الموت السورية

مركز حرمون للدراسات المعاصرة
HARMOON CENTER
FOR CONTEMPORARY STUDIES

عملية قيصر

في قلب آلة الموت السورية

غارانس لو كيزن

ترجمة: أنس عيسى

عملية قيصر

في قلب آلة الموت السورية

تأليف: غارانس لو كيزن
ترجمة: أنس عيسى

مركز حرمون للدراسات المعاصرة
HARMOON CENTER FOR CONTEMPORARY STUDIES

الفهرسة أثناء النشر – إعداد مركز حرمون للدراسات المعاصرة
تأليف: غارانس لو كيزن
ترجمة: أنس عيسى
عملية قيصر، في قلب آلة الموت السورية
176 ص، 24 سم.
يشتمل على فهرس عام.

Printed Book ISBN: 978-605-2260-55-5
E-Book ISBN: 978-605-2260-54-8

العنوان بالإنكليزية
Operation Caesar
In the heart of the Syrian death machine
Author: Garance Le Caisne
Translator: Anas Issa

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز حرمون للدراسات المعاصرة

الناشر

هاتف
الدوحة، قطر: +974 44 885 996
غازي عنتاب، تركيا: +90 342 3265112

صندوق البريد: 22663 الدوحة، قطر
27000 غازي عنتاب، تركيا

البريد الإلكتروني: info@harmoon.org
الموقع الإلكتروني: www.harmoon.org

الطباعة والتوزيع

هاتف
الدوحة، قطر: +974 44 885 996
غازي عنتاب، تركيا: +90 342 3265885

صندوق البريد: 22663 الدوحة، قطر
27000 غازي عنتاب، تركيا

البريد الإلكتروني: info@darmaysaloon.com
الموقع الإلكتروني: www.darmaysaloon.com

Elma Basım - Elma Printing & Finishing
Sefaköy, 34295 Küçükçekmece/İstanbul
+90 212 697 30 30

© جميع الحقوق محفوظة لمركز حرمون للدراسات المعاصرة ودار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

غازي عنتاب، تركيا - أيار/ مايو 2018

غارانس لو كيزن

عملية قيصر

في قلب آلة الموت السورية

STOCK

© Éditions Stock, 2015.

© Éditions Stock, 2017, pour la préface.

ISBN : 978-2-253-18601-4 – 1re publication LGF

المحتويات

التعريف بالأشخاص السوريين الذين أدلوا بشهاداتهم في الكتاب 17

مقدمة الطبعة الورقية 21

أولًا: الكشف، الشهادة، التهم 31

خطر الاغتيال 33

ثانيًا: مهنة مصوّر جثث 37

البوح للصديق 40

ثالثًا: مراهق في الخوف، بالغ في الفَزع 45

رابعًا: أرشيف الموت 47

إرو، ما دام الوقت سانحًا 49

نقل الجثث 61

لم أعد إنسانًا 62

خامسًا: جماعات وأديان 65

مزاحمة ومنافسة وغيرة 68

برقية فورية 70

الفرقة الخامسة - مكتب الأمن 70

عالم آخر 79

تشرين، المستشفى المحصن 81

سادسًا: بين نارين 85

الإخفاء وسط القمامة 89

البقاء على قيد الحياة، والعيش 90
معتقلة عمرها ثلاث سنوات 93
درع بشري 94
سابعًا: مع عائلات المختفين 99
النقود مقابل كل معلومة 102
قبور جماعية 106
ثامنًا: واجب المغادرة حيًا 109
إخراج قيصر الإسعافي 113
نقل الملف 116
جعل العالم يعرف 120
من أين تأتي الجثث؟ 123
أرقام وأسئلة 127
حمزة الخطيب، ثلاثة عشر عامًا، هنا 131
تاسعًا: دبلوماسية الخطى الصغيرة، غير فاعلة 135
خيبة الأمل 137
ملف قيصر في باريس 140
إسطنبول، ربيع 2014 143
لا إحالة على المحكمة الجنائية الدولية 145
مأزق الأمم المتحدة 148
عاشرًا: الذهاب إلى الشهادة في واشنطن 151
واشنطن، قاعة الكابيتول 155

جان كارسكي، عام 1943... 157
أي عدل؟ 160
أدلة صارمة 162
مواجهة الخوف للإدلاء بالشهادة 163
الملحقات 167
الملحق 1 167
الملحق 2 168
الملحق 3 169
الملحق 4 170
الملحق 5 171
الملحق 6 172
شكر 173

إلى السوريات والسوريين

إلى كل واحد من تلك الأرقام الذين كانوا أطفالًا ونساء ورجالًا

إلى ذكراهم وذكرى ذويهم.

«مئات المرات عبر التاريخ،

دوت أصوات من ذلك النوع

وكان دويها عبثًا لوقت طويل

ولم يكن إلا في زمن لاحق وبعيد

أن تولّد صداها»

غوستاوا جاريكّا

يهودية بولونية من غيتو فارسوفي

عضو مجموعة Oyneg Shabes

كانون الأول/ ديسمبر 1942

عندما كنت أشاهد الصور، كانت تحدثني. كان كثير من الضحايا في الصور يعلمون أنهم سيموتون، كانت سباباتهم مرفوعة كما لو كانوا سيموتون ناطقين الشهادة. كانت أفواههم مفتوحة من الألم، وبإمكاننا أن نشعر بالذل الذي تحملوه. كانت وجوههم تحفر في ذاكرتي في كل مرة كنت أشاهدها. كانوا يصرخون ألمهم كي ننقذهم ولكن أحدًا لم يفعل، ولم يصغ إليهم أحد، كانوا يطلبون أشياء ولكن لم يسمعهم أحد.

كنت أسمع صوت الضحايا يصرخون من ألمهم الشديد في كل الأيام، ليخبرونا عما يجري في السجون والمعتقلات. لم يكن هناك أي شاهد ولم يجب أحد. وضع أولئك الضحايا على عاتقي مسؤولية الشهادة على عمليات التعذيب التي ألمت بهم، الشهادة أمام أسرهم، وأمام الإنسانية والعالم الحر.

خرجت من سورية بنيات صافية وصادقة. هنالك أكثر من ملف عن جرائم النظام: الكيماوي والقتل الجماعي والمعتقلين. ستُفتح تلك الملفات جيمعها وستقدم أدلتها ضد بشار الأسد. متى وكيف؟ لا أعلم. ستقود الحقيقة إلى النصر، كما يقول المثل: (ما ضاع حق وراءه مطالب).

قيصر

المصور الأسبق في الشرطة العسكرية لنظام بشار الأسد السوري

نيسان/ أبريل 2015

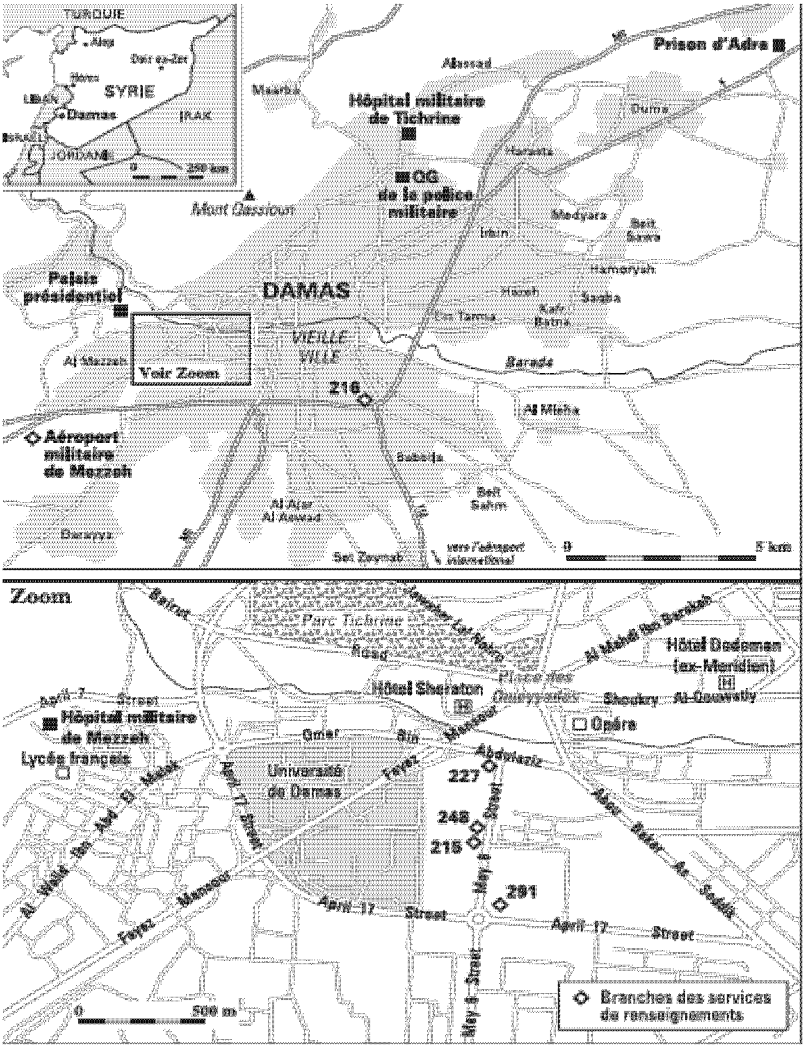

مواقع أماكن اعتقال الأشخاص الواردة شهادتهم في هذا الكتاب.

التعريف بالأشخاص السوريين الذين أدلوا بشهاداتهم في الكتاب

قيصر

مصور فوتوغرافي عسكري أسبق في دمشق، كان مسؤولًا عن التقاط صور جثث المعتقلين الموتى في مراكز الاعتقال، ومن ثم أرشفتها في ملفات. ولذعره من روتين عمله الشنيع؛ قرر أن ينسخ تلك الأدلة على همجية النظام، وأن يخرجها من سورية بغرض إبرازها للعالم. لقد خاطر قيصر بحياته كل يوم خلال عامين من الزمن.

سامي

الاسم المستعار لأكثر أصدقاء قيصر قربًا؛ هو مستودع أسرار المصور الفوتوغرافي، وهو من كان يقدم له الدعم اليومي طوال مدّة عمله السري حتّى تسللهما إلى خارج البلاد ولجوئهما إلى أوروبا.

أبو الليث

اسم مستعار. أمضى ذلك التاجر الأسبق الثلاثيني العمر، والمنحدر من القلمون، سبعة أشهر في الاعتقال في الفرع 227 التابع لشعبة الاستخبارات العسكرية، ومن ثم داخل زنزانة في سجن عدرا المدني المخصص، من حيث المبدأ، لجناة القانون العام. هرب من سورية باتجاه تركيا.

مازن الحمادة

كان يعمل تقنيًا في شركة بترول متعددة الجنسيات مقرها في دير الزور، شمال شرق البلاد. اعتقل مرات ثلاث لالتقاطه فيديوهات لتظاهرات ووضعها على الإنترنت. قضى رهن الاعتقال عامًا ونصف العام في شعبة الاستخبارات العسكرية، من بين

غيرها، حيث أصبح (سخرة) (عمل إجباري) مكلّفًا بمساعدة السجانين في مهماتهم اليومية، لا سيما نقل أجساد المعتقلين المتوفين. يستقر اليوم في هولندا.

عامر الحمصي

طبيب من حمص. لا يريد كشف هويته. عمل مدة خمسة عشر عامًا في مستشفى المدينة الحكومي. وفي عامي 2011 و2012، رأى تلك المؤسسة تتحول إلى نوع من مراكز الاعتقال التي يتعرض فيها المعتقلون المصابون إلى التعذيب.

منير أبو معاذ

اسم مستعار. تنقل هذا المهندس خلال عامين من الاعتقال، بين آذار/ مارس 2012 وكانون الثاني/ يناير 2014، بين أربعة فروع لشعبتي أمن مختلفتين، ومن ثم أُرسل إلى سجن صيدنايا، الوارث الشرعي لسجن تدمر والواقع على بعد 30 كيلو مترًا من دمشق، والمخصص للمعتقلين السياسيين وللإسلاميين. وأمضى أسابيع عدة في مستشفى المزة العسكري. يعيش اليوم في تركيا.

أحمد الرز

انغمس في الثورة وعمره 25 عامًا، إذ تعلم تشفير رسائله على الإنترنت، والتنظيم السري للتجمعات. اعتقل، إثر توقيفه، لسبعة أشهر في فروع شتّى، ومن ثم في سجن صيدنايا. عولج مرتين في مستشفى تشرين العسكري. يتبع الآن، لاجئًا في ألمانيا، دورات تعليم اللغة بغية استكمال دراسته.

وفاء

اسم مستعار. أطلق سراحها بعد توقيفها مع زوجها في شهر أيار/ مايو 2013- بأربعة أشهر ونصف الشهر في إطار تبادل للأسرى. مات زوجها تحت التعذيب، وعثرت على صورة جثته بين الصور التي سربها قيصر.

أحمد

ينتمي إلى عائلة من داريا، إحدى مدن ضواحي العاصمة، التي برزت في الثورة السلمية. يريد أحمد التحفظ على ذكر اسم عائلته بانتظار أن يصبح قادرًا على التقدم بشكوى ضد بشار الأسد. توفي أخوه وعمه تحت التعذيب في شعبة الاستخبارات الجوية، وتظهر صورهم في ملف قيصر.

أبو خالد

قائد لكتيبة في جبال القلمون. رتب هذا الرجل، هزيل البنية وقليل الكلام، عملية تسلل قيصر خارج البلاد في صيف عام 2013، وهرّب أيضًا القرص الصلب المحتوي على الخمس وأربعين ألف صورة أصلية من سورية.

حسان الشلبي

العضو المؤسس للتيار الوطني السوري. اضطر هذا الناشط السياسي إلى الهرب من سورية، وتابع عملية قيصر من خارج البلاد، ونقل الملف إلى الصعيد الدولي.

عماد الدين الرشيد

نائب عميد كلية الشريعة الأسبق في دمشق، وزعيم التيار الوطني السوري. حاول إقناع الدول بضرورة مثول بشار الأسد أمام المحكمة الجنائية الدولية. وفي شهر تموز/

يوليو 2014، رافق عماد قيصر إلى واشنطن حيث تحدث المصور الأسبق أمام الكونغرس.

عمران

اسم مستعار لشخص في العشرينيات من عمره، وينحدر المتخصص في المعلوماتية هذا من حي المعضمية في ضواحي دمشق. مطلوب من النظام ولاجئ في تركيا، عمل مع سامي على فرز آلاف من الصور بهدف جعل الملف متاحًا أمام الجميع.

زكريا

اسم مستعار لطبيب أطفال سابق من دمشق. هرب من سورية عبر لبنان والتحق بتركيا. واستنادًا إلى صور قيصر، صنف زكريا طبيًا أذيات الضحايا جميعها الناجمة عن المعاملة السيئة.

مقدمة الطبعة الورقية

(إن النظام الذي يستطيع أن يخوض حربًا ضد تمرد المحكومين، لا يسعه أن يخوض حربًا ضد ذاكرتهم)[1]. كتب الطبيب والكاتب ياسين الحاج صالح تلك الكلمات في مدينة دمشق في شهر حزيران/ يونيو 2011؛ ثلاثة أشهر بعد انطلاق الثورة السلمية في سورية.

كيف لنا تجنّب ذكر تلك الكلمات في افتتاح مقدمة النسخة الورقية من كتاب (عملية قيصر، في قلب آلة الموت السورية؟) كُتب هذا الكتاب بهدف جعل أصوات السوريين مسموعة، ولترك دليل على همجية نظام الأسد.

تعرض الجزء الشرقي لمدينة حلب، في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2016، إلى السحق الدموي بوساطة القنابل العنقودية الروسية ومدافع الهاون لجيش دمشق؛ وبوساطة الميليشيات الشيعية المقاتلة على الأرض تحت إمرة إيرانية، التي قامت - تحت تسمية الحرب المزعومة ضد جهاديي الدولة الإسلامية الغائبين عن المدينة- بإخضاع عشرات آلاف من السكان وكبار السن والنساء والأطفال والأطباء والمنقذين الذين كانوا يعيشون في الأحياء الواقعة بين أيدي المعارضة لحصار استمر أسابيع عدّة.

محشورون، اضطر الثوار المسلحون إلى إخلاء المدينة، وسقطت حلب الشرقية أمام أعين العالم بأسره، وقام سكانها بالبث المباشر، على وسائل التواصل الاجتماعي، لعدم فهمهم ما حدث، ولموتهم البطيء والمرتقب.

لم يتوقف السكان منذ ربيع 2011 عن توثيق جرائم النظام المرتكبة بحق المدنيين، من قمع للتظاهرات واعتقالات عشوائية إلى الاختفاءات القسرية والتعذيب على نطاق واسع.

وفي ظل عمليات القصف، كانت دمشق تمارس، في الواقع، سياسة ترهيب وراء جدر مراكز الاعتقال بهدف البقاء في السلطة.

---

[1] **المسألة السورية (La Question Syrienne)**، (Actes Sud، أيار/ مايو 2016)، مجموعة مقالات لياسين الحاج صالح، ناديا ليلى العيساوي وزياد ماجد وفاروق مردم بيك (مترجمون).

لقد كان سقوط حلب بمنزلة ضريح لإنسانيتنا، وفي مكان ما في شمال أوروبا، لا ينتظر شخص سوري، كغيره من مئات آلاف آخرين، أي شيء بعد الآن من المجتمع الدولي المذنب بصمته وعجزه. خاطر قيصر، المصور الفوتوغرافي الأسبق في الشرطة العسكرية، بحياته ليسرب مئات آلاف صور المعتقلين الموتى في مراكز اعتقال النظام، وكتب لي قبل بضعة أشهر من سقوط حلب: (لقد تخلى المجتمع الدولي عن السوريين، وخان دمهم؛ فقد قمنا بطرق أبواب عدة لفضح جرائم النظام التي لا تستثني أحدًا، ولكن أُغلقت الأبواب جميعها في وجهنا. لا يقتصر ما يحدث على كونه مسألة سورية لا تخص إلا العرب أو المسلمين فحسب، وإنما يتعدى الأمر ذلك لكونه قضية تلامس الإنسانية جمعاء). وعلى الرغم من وجود القانون الدولي، إلا أن اللعبة الدبلوماسية (قانون الأقوى والقوى العظمى) تنتهكه؛ إذ أقدم الحليف الروسي لبشار الأسد على الاعتراض، مستخدمًا حق النقض، على خمسة قرارات تدين النظام السوري أو تطلب إحالته على المحكمة الجنائية الدولية في مجلس الأمن في الأمم المتحدة. ولكون العدالة الدولية مشلولة، وجب إحقاق الحق بطريق التشريعات المحلية؛ إذ قاد محامون غربيون في فرنسا وإسبانيا وألمانيا والولايات المتحدة قضايا قضائية ضد شخصيات قيادية من النظام، واستطاعوا التقدم بفضل التوثيق المدهش الذي قام به السوريون: كقوائم غير منتهية للمدنيين القتلى أو المعتقلين أو المخفيين، إضافة إلى تقارير عن أجهزة الاستخبارات وأوضاع الاعتقال والتعذيب واسع الانتشار. لقد استطاع المحامون الأوروبيون بفضلهم الحصول على شهادات الناجين من السجون، والهاربين من النظام، ويعدّ (ملف قيصر) -بما يحتويه من 53.000 صورة يعود 28.707 منها إلى 6.786 معتقلًا قتيلًا بسبب التعذيب أو الجوع أو الأمراض غير المعالجة- على مفترق طرق أمام تلك التحقيقات.

في صيف عام 2015، حصل وزير الخارجية الفرنسي على نسخة من تلك الصور، وأحالها بعد ذلك على المحكمة العليا في باريس. وكررت فرنسا فرانسوا هولاند، من دون كلل، أن المجرم الرئيس في سورية هو نظام بشار الأسد، وأن ابتزاز الدولة وقمعها ولّدا العنف وعزّزا توسّع تنظيم الدولة الإسلامية. وفي 15 أيلول/ سبتمبر 2015، فتح القطب المتخصص بمكافحة الإبادة الجماعية (جينوسايد) والجرائم ضد الإنسانية في

المحكمة العليا في باريس، مستندًا إلى هذا الملف، تحقيقًا تمهيديًا ضد مجهول (X) بخصوص (جرائم ضد الإنسانية مرتكبة في سورية بين عامي 2011 و2013).

بخلاف الدول الأوروبية الأخرى، لا تتوافر في فرنسا التشريعات ذات الصلاحية العالمية للنظر في جرائم الإبادة أو الجرائم ضد الإنسانية؛ فلا يستطيع قاض فرنسي اتهام شخص أجنبي بارتكاب جرائم بحق غير فرنسيين في بلد أجنبي، ولتُثمر العملية، على محققي القطب سابق الذكر أن يعثروا على ضحية فرنسية، أو فرنسية - سورية بين الـ6.786 معتقلًا قتيلًا، الذين تظهر صورهم في ملف قيصر، وتلك مهمة شبه مستحيلة.

في أي حال، أدى نشر الصور تلك وكلمات قيصر عند صدور الكتاب، إضافةً إلى التحقيق التمهيدي إلى سقوط جدر الخوف عند بعض المنفيين؛ ففي الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر، مَثُل عبيدة دباغ، الفرنسي - السوري، في باريس أمام القطب المتخصص بالإبادة الجماعية من أجل أن يدلي بشهادته حول اختفاء أخيه وابن أخيه في دمشق، كانا قد حوِّلا إلى مركز الاعتقال في مطار المزة، الواقع جنوب العاصمة، بعد أن كانت الاستخبارات قد اعتقلتهما في تشرين الثاني/ نوفمبر 2013. حاول عبيدة دباغ الحصول على معلومات بطرائق شتى، فاتصل وتبادل الرسائل الإلكترونية مع رئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية، ومع نواب فرنسيين ذهبوا إلى سورية، ومع الصليب الأحمر الدولي ولكن من دون جدوى. كان مازن وباتريك الدباغ قد اعتقلا بعد تسلل المصور قيصر إلى خارج سورية؛ لذلك فإن صورهما، في حال كانا قد توفيا، لن تظهر في (ملف قيصر)، لكن الرجلين فرنسيان - سوريان كعبيدة، ومن ثم من الممكن للعدالة الفرنسية أن تأخذ مجراها. بدأ القطب المسؤول عن الإبادة تحقيقًا خجولًا. وبعدها بعام، قام عبيدة، من جراء عدم حصوله على أي أخبار من السلطات القضائية هذه المرة، بالكشف عن قصته للعلن. وطالب الرجل نفسه في 24 تشرين الأول/ أكتوبر 2016، ممثلًا بالمحامية كليمنس بيكتارت من الرابطة الدولية لحقوق الإنسان (FIDH) بفتح ملفات قضائية متعلقة بـ (حوادث تعذيب واختفاء قسري تشكل جرائم ضد الإنسانية)، وأكد عبيدة دباغ ذلك بقوله (أريد معرفة ما حصل لهما). قامت النيابة العامة في باريس، بعد المؤتمر الصحافي بثلاثة أيام، بفتح ذلك الملف القضائي، وسيتولى أحد القضاة التحقيق فيه. وأقر عبيدة

حقيقة أن (تحقيق العدالة يتطلب وقتًا طويلًا، لكن على المسؤولين عن تعذيب أخي وابن أخي دفع الثمن يومًا ما. يجب علينا فعل شيء ما من أجل المخفيين جميعهم، ويجب على ما حصل مع مازن وباتريك أن يُكتب في التاريخ).

الذاكرة والعدل، العدل والذاكرة. لا تقول المحامية الدولية ألمودينا بيرنابيو في مدريد شيئًا آخر: (يُخشى مع تطور الحرب، كوجود الدولة الإسلامية، أن ننسى بسرعة حقيقة أنه قبل اندلاع الصراع المسلح بوقت طويل، كان النظام السوري يقتل مواطنيه كالجرذان، وما زال مستمرًا في فعل ذلك.) تعمل المحامية الإسبانية في غرنيكا 37، وهو مكتب متخصص في حقوق الإنسان، وقد قدمت في الأول من شباط/ فبراير 2017 شكوى جنائية أمام النيابة العامة الإسبانية ضد تسعة أعضاء من أجهزة الاستخبارات وكبار مسؤولي النظام بخصوص تعذيب أب لأسرة وقتله. وكان سائق التسليم الذي اختفى بالقرب من مدينة حمص في سورية في شباط/ فبراير 2013، وبعدها بعام، تعرفت شقيقته، المستقرة في إسبانيا والمتمتعة بجنسيتها، إلى جثته بين صور ملف قيصر. كان هزيل القوام وحاملًا آثار تعذيب، وعُلّق على جسده رقم مركز اعتقال تابع لأجهزة الاستخبارات في دمشق. خولت جنسية هذه السيدة صاحبتها أن تسعى لتحقيق العدالة في إسبانيا، فسجلت بذلك أول شكوى متعلقة بـ (ملف سيزر) انتظرها كثيرون منذ زمن طويل، ولعلها تشكل خطوة أولى لكسر غياب العقاب ومصدر فخر لغرنيكا 37.

مع ذلك، وفي الجهة الأخرى من أوروبا، تقلّ ابتسامات الشخص الذي سمح لذلك التقدم القضائي بالحصول، ويقول قيصر، الذي يخشى دائمًا على أمنه، مُقرًا: (إنها خطوة إيجابية، ولكنها لا تمثل ما كنّا نأمل فيه من أجل الضحايا. لقد حصل ذلك بشكل متأخر جدًا... أثق بالعدالة الإسبانية، لكن هل ستمتنع السياسة الدولية عن اعتراض صيرورة ذلك الإجراء؟ إن أفلحت تلك الخطوة، فستُقلق الجلادين في السجون؛ لأنهم سيعلمون بأن العدالة قد تطالهم، لكن لا أظن أنها ستهدّئ خوف السوريين في مواجهة همجية النظام).

باريس، شباط/ فبراير 2017

عندما عرض علي أحد المحررين، في ربيع عام 2014، أن أبحث عن قيصر، كانت موافقتي بدهية؛ فقد سرّب ذلك الرجل، المصور الفوتوغرافي العسكري الأسبق، أدلة لجرائم ضد الإنسانية، وهو الأمر الذي لم يجرؤ على فعله أحدٌ على الإطلاق. في تلك المرحلة، كانت وسائل الإعلام قد سمعت بذلك الشخص الذي نسخ، من جهاز كمبيوتر يعود إلى الشرطة العسكرية في دمشق، آلاف الوثائق والصور التي تعود إلى مُعتقلين توفّوا في سجون النظام.

نسخ ذلك البطل المجهول، خلال عامين من الزمن، وشهرًا بعد شهر، صور الأجساد المُعذبة والمجوعة والمحروقة، والمدموغة بأرقام مسجلة حتى على جلودها؛ حيث كان مسؤولوه الأعلى رتبة يطلبون منه التقاط تلك الصور بهدف توثيق موت السجناء وأرشفته، وكان هو بدوره ينقلها على مفتاح يو.إس.بي (USB) بغرض إخراجها سرًّا، مخبّأة في حذائه أوحزامه.

في الوقت الذي كان فيه إرهابيو تنظيم الدولة الإسلامية يعرضون همجيتهم على شبكات التواصل الاجتماعي، كانت الدولة السورية تخفي همجيتها في صمت أقبيتها المظلمة. لم يُبرز أي أحد من قبل أدلة على وجود آلة الموت السورية، ولكن قيصر فعلها؛ فكانت صوره ومستنداته قاهرة.

كانت المجموعة التي ساعدت قيصر وحاولت إخطار الإدارات الغربية والإعلام الدولي قد مرت لتوها بباريس، ورتّب لي أحد المسؤولين لقاء لصحيفة (Le Journal du dimanche) حول (مؤرشف الرعب). وفي الحظة ذاتها، كنا نعد، مع المصورة لورنس جيا تقريرًا في حلب، نُشر في صيف عام 2014 في مجلة Le Nouvel Observateur، حيث كنا شهودًا -في الأحياء التي تسيطر عليها المعارضة- على رغبة النظام في سحق جزء من شعبه ودفن ذاكرته. في صباح يوم أربعاء، سقطت ثلاث قنابل متتالية على بعد أقل من مئتي متر عنا، حدث ذلك في غضون ساعتين. لقد شاهدنا موت شاب كنا قد ضحكنا معه قبلها بيوم، وكان من المفترض أن نتبعه في ذلك اليوم من أجل تقريرنا.

رأينا قطع اللحم الممزقة، وبراميل الـ (تي. إن. تي) المُلقاة من مروحيات جيش بشار الأسد، وعمليات دفن عجلى لقطع الأجساد، وخصوصًا القبور التي يحفرها رجال المشرحة لمواراة أجساد الضحايا التي لم يُطالب بها أحد.

أصبح العثور على قيصر أمرًا ملحًا؛ إذ أدى التقدم المذهل لتنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وتضاعُف عدد الهجمات المُرتكبة ممّن يتبناها، إلى جعل عملية إظهار وحشية النظام السوري غير مسموعة أكثر. كان الصراع قد خلف 220.000 قتيل مسبقًا، وتعرض المدنيون نصفهم للطرد من بيوتهم، بينما تعرض آخرون للقصف والحصار من جانب الجيش الموالي.

كان باستطاعة قيصر أن يعيد إعدامات دمشق إلى المشهد من جديد، ولا بدّ من إيجاده. كان صحافيون من العالم بأكمله يبحثون عن المصور الفوتوغرافي السوري العسكري الأسبق، كنت أعلم أنها ستكون مهمة صعبة، وكانت بالفعل كذلك. كنت على وشك الكفّ عنها مرتين، وفي المرتين تابعت البحث؛ لأنه كان من المستحيل ألا يتكلم هذا الرجل؛ فشهادته رئيسة لفهم الرعب داخل النظام، وكان على قصته أن ترافق النشر الإعلامي للصور.

بقيت حلب باستمرار في ذاكرتي، قبورها غير المسماة، وغيرها من الصور المُكتشفة بدورها داخل حرم المشرحة التي حلّت محل مدرسة قديمة للبنات؛ ففي أحد قاعات الصفوف، عُلِّقت على الجدر عشرات الصور العائدة إلى حلبيين قتلوا بقصف النظام. وحالما ما وجدتني داخل تلك القاعة أمام تلك الرؤية، استحضرتني على الفور صور الكمبوديين المُبادين من الخمير الحمر والمعروضة في ثانوية قديمة في مدينة بنوم بنه، حيث كان قد مات أكثر من 17.000 في أكثر مراكز التعذيب أهمية (S21) التابعة لبول بولت بين عامي 1975 و1979، واليوم تحول ذلك المركز إلى متحف تُعلّق فيه صور الضحايا.

لقد فهم أعضاء الجماعة التي تحمي قيصر -المنتمين إلى التيار الوطني السوري، وهو الحزب المعارض ذو الصبغة الإسلامية المعتدلة- أن هذا الكتاب لن يكون خبطة

إعلامية، وإنما غوص في ما صعب وصفه، وأنّه سيعطي الكلمة للسوريين وسيترك أثرًا للأجيال المقبلة.

تقابلنا مرات عدّة، في باريس في فرنسا، وفي اسطنبول في تركيا، وفي جدة في المملكة العربية السعودية، فتحوا ملفهم ومستنداتهم، وتحدثوا عن تاريخهم، ولكن شيئًا ما كان يعترض اللقاء مع قيصر. كان ذلك عصيًا على الفهم، وكل ما فهمته أن الرجل يشعر بالخوف. ولخيبة أمله من عطالة المجتمع الدولي؛ لم يعد قيصر يتفق جيدًا ومسؤولي المجموعة. لقد كان مختبئًا، وما زال، خشيةً على أمنه.

لكن ليس بالإمكان لهذا الكتاب أن يتم من دون شهادته. بعدها أمن أحد أعضاء المجموعة مقابلة أولى مع سامي، وهو الشخص غير المعروف إعلاميًا وكان قد عمل على (قضية قيصر)، وهو أكثر من يعرف عن العسكري الأسبق؛ إذ رافقه ودعمه خلال سنتي تنفيذ العملية، وكان هو مفتاح لقاء قيصر.

تحدثنا أربع مرات، مدة تجاوزت الأربع ساعات في كل مرة. وبصحبة سوسن بن شيخ، التي ساعدتني في الترجمة، أمضينا وقتًا معهما برفقة زوجته، تبادلنا المزاح معًا، وبدأت علاقة ثقة، مدهشة ومؤثرة أحيانًا، بالتشكل. وفي أحد الأمسيات، احتاج سامي إلى طمأنة قيصر، واتصل بي عن طريق السكايب -بفضل الإنترنت، كان برنامج سكايب وسيلة تواصل الناشطين السوريين منذ بداية الثورة والحرب؛ فهو آمن ومجاني- اعتدنا، سامي وأنا، على التحدث من دون وصل كاميرات أجهزتنا.

(يشعر قيصر بالقلق، هو خائف؛ إذ يحاول محلفون قضائيون الضغط عليه ليدلي بشهادته أمام ممثلي النيابة العامة. هل باستطاعتهم إجباره على ذلك؟) شرح لي سامي. كنت أجهل كل ما يدور في أروقة العدالة الدولية، لكن مع ذلك، استطعت أن أطمئنهما على شيئين: لن يقدم أي شرطي على اعتقاله واصطحابه عنوة للمثول أمام قاض ما؛ فلم يعد قيصر وسامي يعيشان في ظل الدكتاتورية السورية، ولكن في ديمقراطية في شمال أوروبا حيث وجدا لنفسيهما ملجأ. مع ذلك، يجب عليهما عدم نسيان الأسباب التي خاطرا من أجلها بحياتهما، وبحياة عائليتهما، ولماذا اضطرا إلى الهرب من بلدهما تجاه بلد آخر لا يفهما لغته، وكنت أؤكد لسامي: (يومًا ما، أن

على قيصر يدلي بشهادته في جرائم النظام، في ما رآه وأُجبر على فعله؛ من أجل السوريين، من أجل العدل. قد لا يحدث هذا اليوم إن كان خوفه شديدًا، ولكن غدًا، أو بعد غد، بعد ستة أشهر أو بعد عام، يجب ذلك، هل تفهم يا سامي؟) ساد الصمت بعدها، وفجأة سمعت صوتًا غير متوقع لشخص لم أعرفه، ولم أكن أراه، ويبدو أنه كان جالسًا بالقرب من سامي: (مساء الخير، شكرًا لنصائحك، أنا قيصر، بإمكانك أن تأتي لرؤيتي متى شئت).

بعد ستة أشهر من البحث وافق الرجل على أن يكشف نفسه، وكما كان الحال مع سامي، كان التوتر سيد اللقاء الأول؛ هما في حالة من الترقب الدفاعي وأنا في خوف من أن (أخسرهما) إن طرحت أسئلتي بشكل سيء، أو إن طلبت كثيرًا من التفاصيل بشكل مستعجل أو مبكر. كشف قيصر عن خباياه في أكثر من مناسبة، وشيئًا بعد شيء، امتدت اللقاءات أكثر من أربعين ساعة.

اتسمت شهادته ليّ بكونها فريدة، بسيطة المفردات ومن دون أي ادّعاء بفعل أو رؤية ما لا يفعله ويراه، روى قيصر عمله بأدق التفاصيل، ورسم أشكالًا توضيحية تساعد على شرحٍ أفضل، وأشار إلى المسار الذي كان يتبعه كل يوم على خريطة للأقمار الصناعية، ودلّ على مستودعات أحد المستشفيات العسكرية التي كان يلتقط فيها صور الجثث. كان قيصر يزداد انفتاحا مع التقدم التدريجي في المقابلات، ولكن حشمته غالبًا ما دفعته إلى الاحتفاظ بمشاعره لنفسه. أقلقه أمنه لأبعد حد، وبقيت الصفحات التي خطها بين يديه؛ فقد كان من المستحيل كشف ما كتبه، واكتفى بترك رسم وحيد لي. ولطمأنته، اتفقنا معًا على عدم كشف كل شيء، حتى أنه قد جرى إخفاء بعض التفاصيل.

إن مصوري الشرطة العسكرية السورية ليسوا إلا حلقة في سلسلة الموت؛ فهم يلتقطون صور الجثث بهدف أرشفتها. ولفهم اعتراف قيصر وإكماله، كان من الواجب لقاء ناجين من تعذيب مراكز الاعتقال والسجون والمستشفيات العسكرية، أولئك الذين شاهدوا موت جيرانهم في الزنزانات أو في أسرة المستشفى، أولئك الذين حملوا أجسادهم وشاهدوا تسجيل تلك الأرقام عليها. جميعهم يشهدون هنا، سواء مكشوفي الوجة أم بأسماء مستعارة.

ما يزال جمع أدلة الجرائم المرتكبة في سورية، الذي بدأه بعضهم منذ ثلاث سنوات، في بدايته، ويشكل هذا الكتاب، على طريقته الخاصة، مبادرة أولى لقول الحقيقة، وعلى التحري أن يستمر.

أرقام وصور وأجساد هزيلة، لا نرى إلا ما نعرفه. إن كشوفات قيصر وصوره تجعلني أفكر بإبادة اليهود، وبالمحرقة، حتى وإن كان التاريخ والعدل هما من سينصفان جرائم الأسد.

لكن هل يجب نشر صور في هذا العمل؟ اتخذنا، مع المحرر، القرار بعدم فعل ذلك، فكثير منها معروض على مواقع الإنترنت، وكما كان من المستحيل علينا معرفة أيها ننشر في العمل، إضافة إلى فظاعة الصور.

تكمن قوة تلك الصور في قدرتها على إصابتنا بالذهول لدى مشاهدتها، وفي فقداننا للرغبة أو المقدرة على قراءة شهادات الناجين، لكن يجب علينا سماع ذلك.

هذا الكتاب هو قصة الهمجية اليومية التي يفرضها نظام بشار الأسد على السوريين؛ إنها قصتهم.

أولًا: الكشف، الشهادة، التهم

على الدبلوماسيين والمستشارين والمتعاونين جميعهم ترك القاعة؛ سيعرض ملف فائق الحساسية في جلسة مغلقة على وزراء الخارجية الأحد عشر الموجودين هنا. هذا الملف هو بصيغة فيديو مدته ثماني دقائق، وسيعرض على شاشة تلفاز ضخمة. يبدأ الفيلم بتعليق صوتي: (يحتوي هذا الفيلم على مشاهد صادمة وفظيعة ارتكبها النظام السوري. تلك المشاهد ليست إلا أمثلة من بين عشرات آلاف الصور الرسمية التي وصلتنا، واستطعنا التحقق من صدقيتها بأدلة قضائية ومستندات أصلية وشهادات. وأكد متخصصون بالإجراءات الجنائية صلاحية الأدلة وموثوقية المصادر. ولذلك، نقدم لكم هذا التقرير بكل ثقة).

استقبل لوران فابيوس لتوه، يوم الأحد الفائت الموافق لـ 12 كانون الثاني/ يناير 2014، في صالة طعام (Second Empire du Quai d’Orsay) نظراءه جون كيري، وزير الخارجية الأميركية، وقادة الدبلوماسية في كل من ألمانيا والمملكة العربية السعودية ومصر والإمارات العربية المتحدة، وإيطاليا والأردن وقطر والمملكة المتحدة وتركيا.

اجتمع الأعضاء الأساسيون لمجموعة أصدقاء سورية بهدف توفير دعم لأحمد الجربا، رئيس الائتلاف الوطني السوري، الممثل الرئيس للمعارضين السياسيين. كان على المعارضة والنظام السوريَّين الالتقاء من جديد بعد عشرة أيام في سويسرا لمناقشة تشكيل حكومة انتقال سياسي، ولكن الانقسام قد أصاب أعضاء الإئتلاف الوطني حول مشاركتهم في ذلك المؤتمر الدولي حول السلام، الذي كان من المقرر أن تُفتتح أعماله في مونترو، وأن تستكمل في جنيف برعاية هيئة الأمم المتحدة. كان أصدقاء الشعب السوري الأحد عشر يتمنون مشاركة الائتلاف الوطني السوري حتى لا يستطيع بشار الأسد الإلقاء بمسؤولية فشل المحادثات تلك على كاهل معارضيه.

اتخذ الوزير الفرنسي، رئيس الجلسة، مكانًا له في وسط الطاولة، ليكون مقابِلًا لأحمد الجربا، وفي نهاية اليوم، وبطريقة معاكسة للتوقعات، أعطى الكلام لخالد

العطية. كان الوزير القطري، قبلها ببضعة أيام، قد أسرّ بتسلمه من مجموعة معارضة مستندًا سريًا، وبرغبته في عرضه. عُلّقت أعمال الجلسة، وخرج ما يقارب الثلاثين شخصًا لبيقى الأحد عشر وزيرًا حول الطاولة.

أقفلت الأنوار، وبدأت، على أنغام موسيقى إسحاق بيرلمان لفيلم قائمة شندلر، تتوالى صور أجساد عارية إلا من الملابس الداخلية أو الخرق الممزقة، وصور لجثث هياكل عظمية بعضها مبتورة أعضاؤها أو مقطّعة أوصالها أو محروقة. بعضها الآخر قلعت أعينه، أو شوّهت ملامحه بمادة كيمياوية، وأخيرًا وُضع بعضها الآخر في أكياس بلاستيكية، وكوّمت تحت شرفة أحد المستودعات. ثم توقفت العدسة ودققت على الأرقام المحمولة على أجساد الموتى، والمسجلة بأقلام لا تُمحى على الجلد نفسه أو على ملصق أبيض اللون ترك على الجبهة، كان من الواضح أن شخصًا محترفًا جهز قائمة الصور الجنائزية تلك. أطبق صمت مرعب على رصيف Quai d'Orsay المطلي بالذهب.

ومن ثم استأنف التعليق الصوتي: (نادرًا ما شهد التاريخ ممارسات حرمان منهجي من الطعام وتعذيب وحشي كتلك التي وُثّقت داخل مراكز الاعتقال لنظام الأسد. من الموت بُعيد الاعتقال إلى التصفية الجسدية للمحتجزين سواء داخل السجون أم في المستشفيات العسكرية، أرشف النظام حالات الموت تلك بصور التقطتها عاملون في قسم الجنائية التابع للشرطة العسكرية، تذكر التقارير الطبية (النوبة القلبية) سببًا للوفاة، ولكن تحمل الأجساد آثار تعذيب وجوع.) وينتهي الفيلم بمقولة: (هل ما يحدث هولوكوست جديد؟ إنه مستمر في الحدوث).

يغادر الوزراء القاعة من دون نطق أي كلمة، علامات الشناعة بادية على وجوههم؛ كان جون كيري شاحبًا، وبالكاد لمس أحدهم طعام الغداء الذي تلا. أخبر لوران فابيوس معاونيه: (هذا أمر رهيب، شنيع، يجب علينا العمل لمعرفة الحقيقة المتعلقة بتلك المستندات ذات الأهمية القصوى كلها).

وقد قال مقرب من فابيوس اليوم: (وضعت هذه الصور يدها على ما كانت فرنسا تدينه بخصوص نظام بشار الأسد. لم نر صورًا مثيلة منذ إبادة اليهود وجرائم الخمر، يعيدنا الرضا الذي يوثق به النظام السوري ويصنف جرائمه سبعين عامًا إلى الوراء).

في نهاية اليوم، وأمام الميكروفون المخصص للمؤتمر الصحافي، ذكّر لوران فابيوس علانية بدعم مؤتمر جنيف2 بهدف الوصول إلى (انتقال سياسي حقيقي يضع حدًا للنظام الاستبدادي الحالي، ويحترم سيادة الشعب السوري). ومن ثم بملامح مكدرة أشار الوزير الفرنسي) إلى أي درجة ندين بصرامة الأفعال الوحشية التي يرتكبها النظام السوري ضد شعبه، وخصوصًا الفظاعات المرتكبة مؤخرًا. نحن نعلم، على العكس مما يجري تكراره، أن نظام بشار الأسد والإرهابيين ليسا على طرفي نقيض، وإنما هو النظام من يغذي الإرهاب؛ ولذلك يجب، إن أردنا التخلص من الإرهاب، العمل على وضع نهاية لهذا النظام).

خطر الاغتيال

في اليوم التالي للاجتماع الأسبق، على بعد خمسة آلاف كيلو متر من مكانه، عُقد اجتماع آخر سري للغاية في الدوحة في قطر. تدعم قطر، ذلك البلد الصغير في الخليج الفارسي، المعارضين السوريين ذوي النزعة الإسلامية خصوصًا، ولم يتردد وزير خارجيتها في دعم التيار الوطني السوري عندما علم بوجود تلك الصور ورأى عشرات منها معروضة على مكتبه. يقوم معارضون منتمون إلى ذلك التيار، ذي النزعة الإسلامية المعتدلة والمنفتح سياسيًا والمحافظ اجتماعيًا، بحماية الرجل الذي أخرج عشرات آلاف الصور من سورية.

لوعيها أن معارضتها الشرسة لبشار الأسد قد تضع صدقية الملف موضع شك، كلفت قطر مكتب المحامين اللندني كارتر-روك وشركاه (Carter-Ruck and Co) بتفحص الصور والتأكد من صحة المصدر. وظف المكتب ثلاثة من أخصائيي القانون الدولي، وثلاثة خبراء في مجال علم الإنسان الطبي (Anthropologie médicale)

بغرض كتابة تقرير يفك رموز الأرقام الظاهرة على الأجساد ويذكر التحليل العلمي للصور، الأمر الذي سيشكل معلومات رئيسة لحظة كشف الملف للعلن.

في 13 كانون الثاني/ يناير 2014، في قاعة خاصة داخل فندق ضخم في الدوحة، جلس اثنان من خبراء القانون السابقين على طاولة واحدة أمام بطاقتي ذاكرة، كان أولهما الأميركي ديفيد كرين (David Crane)، وثانيهما البريطاني ديسموند دا سيلفا (Desmond Da Silva)، اللذان يعرفان بعضهما جيدًا، إذ تواليا على رئاسة المحكمة الخاصة بسيراليون التي أدانت الرئيس الليبيري تشارلز تايلور بجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

أتى وكيلا النيابة إلى قطر للتحري عن ذلك المصدر الذي كان ما يزال مجهولًا في وقتها؛ فالرجل منشق عن الجيش السوري، وكان قد وصل إلى الدوحة يوم أمس. جالسًا أمام مترجم، في مواجهة ديفيد كرين وديسموند دا سيلفا، قبل بمنتهى اللطف المثول أمام ما يبدو أنه تحقيق، لقد كان محرجًا معظم الوقت، وبقميصه الرياضي الخفيف كانت نظراته قلقة، كان من اللازم أحيانًا إعادة طرح الأسئلة التي لم يدرك معناها مرات عدّة، كما دلت أجوبته القصيرة وكلماته البسيطة والدقيقة على رجل متحفظ بالكاد يكون واعيًا للعملية البطولية التي بدأ بها، شكل ذلك تواضعًا وهدوءًا لن يتخلى عنهما أبدًا.

- سأله ديسموند دا سيلفا: (هل أعطيت الصور طواعية؟).
- أجاب الرجل: (نعم، هي خدمة أقدمها إلى سورية، وأقرباء المعتقلين من الشعب السوري).

[...]

- وبدوره سأله ديفيد كرين: (عندي سؤال بسيط، لماذا فعلت ذلك؟).
- أكّد الرجل: (من أجل السوريين، من أجل الناس. من أجل أن يصبح القاتلون مسؤولين عن جرائمهم ويُعرضوا على المحاكمة).
- (إذًا، فعلتَ ذلك من أجل العدالة، كي تتحقق العدالة في نهاية الأمر.)
- (نعم، فعلت ذلك من أجل العدالة.)
- (لمحاسبة أولئك الذين ارتكبوا ذلك؟)

- (نعم، المسؤولون السوريون الذين يتولون مهمات الفروع العسكرية للنظام.)
- [...]
- تساءل ديسموند دا سيلفا: (لقد أقدمت على فعل شيء خطر للغاية بنسخك لتلك الصور؟).
- (نعم، خطر للغاية).
- (لو وجدت السلطات تلك الصور معك، لكنت واجهت مشكلات كبيرة.)
- (نعم، أنا وعائلتي وكل من هم على صلة بي.)
- (الآن، أنت هنا، لقد غادرت سورية. لماذا غادرت وكيف؟)
- (لقد غادرت لخوفي على نفسي وعلى عائلتي، لو عرفت أجهزة الاستخبارات بنسخي للصور، لكانت العقوبة قتلنا.)
- (إذًا قررت الخروج من سورية. من ساعدك على ترك سورية؟)
- (عبرت الحدود بصورة غير قانونية.)
- تابع ديسموند دا سيلفا: (هل حصلت على المال مقابل ذلك؟).
- (لا.)
- أصر دافيد كرين: (معناه أنك لم تحصل على أي فائدة).
- (لا.)
- (قمت بهذا العمل لأسباب تتعلق بالضمير؟)
- (إن شاء الله. كيف كان بإمكاني أن أضمن أمني برأيكم؟) تساءل الرجل بقلق، كان صوته ناعمًا ولكن الجزع بدا واضحًا.
- (أنت في مأمن هنا) قال ديسموند دا سيلفا. (لن نكشف أبدًا صورتك الشخصية ولا اسمك في تقاريرنا؛ ولهذا السبب أعطيناك الاسم الرمزي قيصر).

ثانيًا: مهنة مصوّر جثث

قيصر

اسمي قيصر، كنت أعمل للنظام السوري. كنت مصورًا فوتوغرافيًا في كنف الشرطة العسكرية في دمشق. سأروي عملي قبل الثورة، وخلال أول سنتين منها، ولكني لن أستطيع شرح كل التفاصيل لخشيتي من أن يستطيع النظام التعرف إلي من خلال المعلومات التي قد أكشفها. أنا لاجئ في أوروبا، وأخاف من أن يعثر النظام علي ويقتلني، أو أن ينتقم من عائلتي.

كنت، قبل الثورة، مسؤولًا عن تصوير مواقع الجرائم والحوادث المتعلقة بعسكريين؛ قد يكون ذلك حوادث انتحار أو غرق أو حوادث سير أو حرائق منزلية. لقد كان علينا، مع المصورين الآخرين في الخدمة، الذهاب إلى مكان الحادث والتقاط صور الأمكنة والضحايا، إذ كان القاضي أو المحقق يقول لنا: (التقطوا صورة ذلك الشخص أو ذلك الشيء.) كان عملنا مكملًا لعملهم؛ فعلى سبيل المثال، عند حصول جريمة ما داخل مكتب، كنا نلتقط صور المكان الذي وُجد فيه الجسم، ثم نلتقط صورًا للجثة في المشرحة، بهدف إظهار مكان دخول العيار الناري وخروجه. كان باستطاعتنا، أيضًا، تصوير أدلة الجريمة، مسدسًا كانت أم سكينًا.

وفي حالة حادث طريق، كنا نلتقط صورًا لمكان الحادث والسيارة، بعدها كنا نعود إلى المكتب لكتابة تقرير مزود بصورنا، ومن ثم كنا نرسل التقرير إلى القضاء العسكري لتنطلق العملية القضائية.

كانت الخدمة في مجال التصوير مطلوبة جدًا، في تلك المرحلة، من الجنود المتطوعين أو المُجنّدين الإلزاميين؛ وذلك لأنه لم يكن هناك كثير من العمل فيه، إذ كانت تناط بنا مهمات مرة كل يومين أو ثلاثة أيام. إضافة إلى أننا لم نكن مجبرين على ارتداء البزات العسكرية في تلك الخدمة، كان باستطاعتنا العمل باللباس المدني.

أما الضباط، لم يكن ذلك العمل مغريًا بالنسبة إليهم، فمن الصحيح أن إدارة مصورين ومؤرشفين ليست بذات هيبة.

لا تمتلك الشرطة العسكرية كثيرًا من السلطة في البلاد، ولا تُقارن بأجهزة الاستخبارات، إضافة إلى أنه لم تكن لنا علاقة بالمدنيين؛ ومن ثم ينتفي إمكان كسب المال بطريق البقشيش، كما هو الأمر في خدمات الجمارك وفي الوزارات، ولم يكن لنا نفوذ على الأمن والجيش.

لم يكن أي أحد في التراتبية يعير عملنا أي انتباه؛ فخدمتنا لم تكن مهمة، وكانت من بين عشرات غيرها. تتألف الشرطة العسكرية من عشرات الأقسام والفروع والكتائب، ففي دمشق وحدها كان هنالك ما لا يقل عن ثلاثين مجال للخدمة: مصورين وسائقين وميكانيكيين، خدمة عمليات ورياضة، إضافة إلى سرية لنقل المساجين بين فروع الاستخبارات العسكرية المختلفة، ولكن بالتأكيد كان أكثرها أهمية خدمة التحقيق وخدمة السجون.

في أحد الأيام، أخبرني زميل لي بأنه كان علينا أن نصور أجساد المدنيين، وكان قد انتهى لتوه من تصوير جثث المتظاهرين من محافظة درعا [2]. حدث ذلك خلال الأسابيع الأولى من الثورة في شهر آذار/ مارس أو نيسان/ أبريل 2011. روى لي باكيًا: (كان الجنود يشتمون الجسد، يدوسون عليه بأبواطهم ويصرخون (يا ابن العاهرة')

لم يكن زميلي يرغب في العودة؛ فقد كان خائفًا، وعندما كان علي الذهاب بدوري، رأيت بعيني. كان الضباط يقولون إنهم كانوا (إرهابيين)، لكن لا، كانوا متظاهرين بسطاء، وكانت الأجساد مخزنة في مشرحة مستشفى تشرين العسكري، الذي لا يبعد كثيرًا من المقر الرئيس للشرطة العسكرية.

في البداية، كان اسم كل قتيل ملصق على جثته، ولكن في غضون بعض الوقت، أسابيع عدة أو أشهر، لم يعد للجثث أسماء، بل أرقام فحسب. في مشرحة مستشفى

[2] محافظة واقعة في جنوب البلاد، انطلقت منها أولى كبرى التظاهرات السلمية.

تشرين العسكري، كان جندي يخرجها من البرادات، ويضعها على الأرض البلاطية لنتمكن من تصويرها، ومن ثم كان يعيدها إلى البرادات.

في كل مرة كنا نُستدعى فيها إلى جلسة تصوير، كان طبيب شرعي يسبقنا في الحضور. حالهم كحالنا، لم يكن الأطباء الشرعيون مجبرين على ارتداء البزات، ولكنهم كانوا عسكريين ذوي رتب، إذ كانوا في الأشهر الأولى ضباطًا ذوي رتب بسيطة، ولكن بعد ذلك استبدلوا بهم آخرين من أعلى الرتب.

عند وصولنا إلى المستشفى، كان يوجد على الأجساد رقمين، إما مسجلين على شريط لاصق أو مكتوبين بوساطة قلم على الجلد، على الجبهة أو الصدر -كان الشريط اللاصق ذا نوعية سيئة، وغالبًا ما كان يسقط. كان الرقم الأول يعود إلى المعتقل نفسه، والثاني إلى فرع الاستخبارات الذي كان معتقلًا فيه، بينما يعطي الطبيب الشرعي، الذي كان يصل في وقت باكر في الصباح، رقمًا ثالثًا من أجل التقرير الطبي. كان الرقم الأخير هو الأكثر أهمية لسجلاتنا، أما الرقمين الآخرين فكانا مكتوبين بصورة سيئة وغير مقروءة، أو خاطئة، ببساطة، إذ كان هنالك أخطاء في بعض الأحيان.

كان الطبيب الشرعي يسجل الرقم الطبي على قطعة كرتون، وكان هو، أو عنصر من الاستخبارات، يثبتها قرب الجثة أو يمسكها بيده لدى التقاطنا الصورة. تعود الأيدي التي ترونها على الصور التي سربتها لأحدهما. ونلاحظ أحيانًا أقدام الطبيب الشرعي، أو عناصر الاستخبارات، قرب الجثة.

كان الأطباء الشرعيون رؤساءنا، لم يكن لدينا الحق في التكلم، وخصوصًا في طرح الأسئلة، وعندما كان أحدهم يعطينا أمرًا، وجبت علينا إطاعته، كان يقول لنا على سبيل المثال: (صور الجثث من الرقم 1 إلى 30، ومن ثم انصرف). كان علينا التقاط أكثر من صورة للجثة الواحدة كي نتمكن من التعرف إليها بسرعة في الملفات؛ صورة للوجه، وصورة للجسد بأكمله، وأخرى جانبية، وصورة للصدر وصورة للساق.

كان يجري تجميع الأجساد بحسب الفروع، فعلى سبيل المثال كان هناك ركن خاص للفرع 215 التابع للاستخبارات العسكرية، وركن آخر لفرع الاستخبارات الجوية؛ سهل علينا ذلك التقاط الصور، ومن ثم تصنيفها في وقت لاحق.

لم أشاهد شيئًا كذاك من قبل؛ فقبل الثورة، كان أعضاء النظام يعذبون بغية الحصول على معلومات، أما الآن فهم يعذبون بهدف القتل، رأيت على الأجساد آثار شمع محترق، ومرة لمحت علامة سخان دائري -السخانات التي نسخّن بها الشاي- أدّت إلى حرق وجه أحدهم وشعره. كان لدى بعض الناس جروح عميقة، وأعين مقلوعة وأسنان مكسورة، وعلى بعضهم الآخر علامات ضربات بالأسلاك المستخدمة في تشغيل السيارات. كانت بعض الجروح متقيحة وكأنها لم تُعالج منذ مدّة طويلة وأصيبت بالإنتان، وأحيانًا كانت الأجساد مغطاة بالدم، ولكن بدمٍ طازج؛ لقد مات أولئك لتوّهم، بكل تأكيد.

كان علي أخذ الاستراحات كي لا أبكي، كنت أذهب لأغسل وجهي. وفي بيتي لم أكن مرتاحًا أيضًا. لقد تغيرت؛ أنا الذي أتمتع بمزاج يغلب عليه الهدوء، أصبحت سريع الهيجان، ضد والديّ وأشقائي وشقيقاتي. في الحقيقة، كنت مرعوبًا، كانت تعاودني المشاهد التي كنت أراها خلال اليوم، وكنت أتخيل أن إخوتي وأخواتي سيحل بهم ما حل بتلك الأجساد، كان ذلك يصيبني بالجنون. لم أستطع تحمل ذلك كله؛ لذا قررت التحدث إلى سامي، صديقي، كنا نعيش في المنطقة ذاتها.

البوح للصديق

سامي

ذهب قيصر إلى سامي في إحدى أمسيات ربيع 2011. كان عصبيًا، وهمس له من وراء باب الصالون:

- (يجب أن أخبرك بأشياء غريبة تحدث في عملي.
- ماذا هناك؟
- رأيت أجسادًا عليها آثار تعذيب، لم يمت أصحابها بشكل طبيعي، وتتزايد أعدادهم يومًا بعد يوم).
- وبعدها تضرّع قيصر باكيًا:

- (ماذا يجب أن أفعل؟)

تعرف عائلتا قيصر وسامي بعضهما منذ أكثر من عشرين سنة، ويعدّ الرجلان مقرّبين من بعضهما منذ سنوات عدّة، ويتقابلان دوريًا، ولكن هناك أشياء لا نتحدث عنها في سورية الأسد الأب والابن، انتقادات لا نجرؤ حتى على الهمس بها إلى أصدقائنا أو إلى أفراد أسرنا، كعبادة الرئيس على سبيل المثال، أو المعارضة السياسية المخنوقة، والغياب الكامل للحريات، وأجهزة الاستخبارات التي تراقب أقل تحركات المواطنين وإشاراتهم وتحاصر الأحياء، كلمة واحدة قد تودي بك إلى السجن؛ فالنظام قائم على الترهيب والقمع. سامي مهندس في إنشاءات دمشق، ويعرف أن قيصر قد كُلِّف في مكتب الشرطة العسكرية لتصوير حوادث الطرق والعسكريين المتوفّين، هذا ما كان يهمّه لا أكثر إلى اللحظة التي صدمته فيها تلك الأسرار.

في ذلك العام، أي 2011، بعد تونس ومصر وليبيا، بدأ السوريون بالاحتجاج في ربيعهم العربي؛ إذ أدت تظاهرتان أوليتان في شباط/ فبراير وبداية آذار/ مارس إلى بث الاضطراب في دمشق، وبدأت دعوة إلى التظاهر في 15 آذار/ مارس بالانتشار على موقع الفيس بوك، وبعدها بأيام ثلاثة، في يوم الجمعة 18 آذار/ مارس، في مدينة درعا في الجنوب الريفي والقبلي، التي يُسخَر منها في العاصمة، تجمّع آلاف الرجال والنساء أمام الجامع الكبير، وقبلها ببضعة أيام، كان بعض أطفال المدينة قد تجرؤوا على كتابة (الشعب يريد إسقاط النظام) على جدر إحدى المدارس. بعد اعتقالهم وتعذيبهم، جرت إعادتهم إلى أهلهم الذين وجدوا صعوبة في التعرف إليهم بسبب كل الإذلال الذي تمارسه أجهزة الاستخبارات تجاه شعب تظن أنه خاضع وجاهل ومحطم؛ من جراء خمسة وأربعين عامًا من السلطة الاستبدادية.

لكن شيئًا ما قد حصل، إذ تظاهر سوريون -بقوة لم يظنوا امتلاكها- سلميًا ضد تلك الاعتقالات، وطالبوا بإصلاحات. لم تعد درعا، التي كانت حصنًا للبعث، الحزب الوحيد في السلطة، قادرة على تحمل تهميشها من دمشق، أو على تحكم أقلية حاكمة تسرق مصادر ثرائها المحلية النادرة. تعرضت تظاهرة 18 آذار/ مارس للقمع ساعة وقوعها، وقُتل ثلاثة شبان.

انتشرت التجمعات السلمية، على الفور، في المنطقة وفي بقية أنحاء سورية، وفي صخب الهتافات، فرض الجنود أفظع أنواع العقاب؛ فتفرّق بعض المتظاهرين واستمر آخرون.

في الأيام التالية، توالى خروج جنازات الشهداء الذين سقطوا من أمام أبوب الجوامع. كانت أجسادهم الملفوفة بعلم، أو المغطاة بالورود أحيانًا، محمولةً وسط أعداد كبيرة من المقاومين ممن كانوا ينادون: (واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد.)

بدأ السوريون بالتجرؤ على الحديث في وسط الشارع، وبتحدي الخوف، سيسقط مهنم كثيرون. آلاف، شرع معارضون للنظام بنشر مقاطع فيديو للتجمعات السلمية على الإنترنت، وغرقت مواقع اليوتيوب وحسابات الفيس بوك بمئات المشاهد التي تظهر احتضار الضحايا على الأرصفة، وبكاءات آباء أمام أبنائهم الملطخين بالدم، وصراخ أمهات ودفن أكفان بيضاء. كان من الواجب تصوير ما يحدث من أجل أولئك الذين يعيشون في الطرف الآخر من العالم؛ ولكسر الرقابة وإكرامًا لقتلى القمع.

قُتل، قبل ما يقارب الثلاثين عامًا، ما بين 15.000 إلى 25.000 ساكنًا في مدينة حماه، رشقًا بالرصاص على الجدر أو سحقًا بالدبابات، أو رميًا من النوافد أو ضربًا حال وصولهم إلى المستشفيات أو رشًا من دون شهود. حطمت حياة الناس، ولم يتلقّ كثيرون دفنًا ولا عزاء ولا غسلًا، لقد اختفوا. في شهر شباط/ فبراير من عام 1982، كانت السلطة تريد إبادة ثورة الإخوان المسلمين في تلك المدينة الواقعة في وسط البلاد، وقادت قوات النخبة التابعة لرفعت الأسد، شقيق حافظ الأسد الذي كان في السلطة حينها، المعركة التي كانت بمنزلة عقوبة جماعية لأسابيع عدة دمّرت ثلث المدينة، من دون أي صورة أو فيلم. شهود صامتون وعائلات مشلولة، لكن ضجيج القذائف زرع الرعب في البلاد بأكملها.

ظل سكان دهاليز المدينة القديمة لحماه، أو أولئك القريبون من الفنادق الجديدة والمشيدة على أنقاض المقابر الجماعية، وقتًا طويلًا، يرفضون إثارة تلك الحوادث، لكن ذاكرتهم الصامتة بقيت سليمة، كما حدث ذات مساء من تشرين الأول/ أكتوبر

2014، بعد مؤتمر حول حلب في بروكسل، عندما روت امرأة سورية حموية الأصل باكية كيف عادت، بعد غيابها عن المجازر عندما كانت صغيرة، إلى مدينتها بعد شهر لتجدها مهجورة وتجد أن جزءًا من عائلتها قد تعرض للإبادة. لم تستطع تلك السيدة قول ما قالته خلال سنوات، لكن عذابات طفولتها استيقظت الآن، عند عرض صور شوارع مدينة حماه ومساجدها قبل تدميرها.

ثالثًا: مراهق في الخوف، بالغ في الفَزع

كان سامي خلال حوادث مأساة حماه ما زال طالبًا في المدرسة، وكان البالغون في مدرسته يقولون عن الإخوان المسلمين: (سيأتي الإرهابيون لقتلنا في المدرسة.) كان المعلمون ينظمون نوبات مراقبة مسائية لحماية سكان الحي، وكان سامي يشاهد اختفاء رفاقه الواحد تلو الآخر، لماذ؟ كيف؟ من الأفضل عدم طرح الأسئلة. عاد بعض أولئك بعد تعرضهم للاعتقال من أجهزة الاستخبارات، بينما لم يعد بعضهم الآخر، كذلك الصديق الطالب الجيد والعامل، وما زال ينتظر سماع أخبار عنه، بعد ثلاث وثلاثين سنة.

في يوم صباحي، وبعد ترديد شعار تمجيد الرئيس حافظ الأسد، دخل المدير إلى باحة المدرسة محوطًا بقتلة من حثالة الأمن السياسي، عندها تجمد سامي وزملاؤه المصطفون قبل دخولهم إلى الصف لحصة التربية الإسلامية. كان أستاذهم رجل كبير في السن، محبوب ومحترم من الطلاب. شتمه عناصر الاستخبارات المسلحون، وهددوه باغتصاب زوجته، وبدؤوا بالعواء: (سنعلمك ثمن معارضة أسيادك)، واصطحبوه معهم. وهنا يتذكر سامي: (كانت لحظة اعتقاله مريعة أكثر من كونها مؤلمة، كان من الممكن أن يكون ذلك الأستاذ أبي، لقد اكتشفت أننا لا نعيش في بلد وإنما في سجن كبير، لم أعد أشعر بالأمان، ولم أستطع التركيز على الحصص. تحدثت عما حدث مع أمي، التي طلبت مني ألا أتحدث عن ذلك مع أي أحد بغرض حمايتي).

كان علينا انتقاء الكلمات حتى مع أكثر الناس قربًا. وفي المساء، عندما كنا نسهر مع بعضنا، ويأتي ذكر الأسد، لم يقوَ الشباب على ذكر اسم حافظ من دون ضم صفته رئيسًا إليه؛ حيث قد ينتهي أمر ذلك الذي (انتقص من احترام) القائد في ما إذا كان أحد الحاضرين عميلًا للاستخبارات أو لحزب البعث.

بعد مرور تسعة وعشرين عامًا، أمام أولى الصور التي نسخها العسكري قيصر، ها هي مخاوف سامي المراهق تعاوده من جديد، (لقد كنت أعرف أن هنالك ناس

يموتون بصمت في السجون، لقد كانوا موجودين في الحفر المظلمة للنظام). كان التعذيب موجودًا قبل الثورة، حكى عنه الخارجين من السجن بعدما أمضى بعضهم عشرين سنة من الاعتقال الاعتباطي، كان النظام يسمح عن قصد بانتشار تلك القصص لتكون مثالًا يؤدي إلى تغلغل الرعب داخل كل منزل وفي كل روح.

لكن صور قيصر تنقل لنا التعذيب والموت بحسب فهرسة النظام وتصنيفه. وفي هذه المرة تروي لنا الدولة، بحد ذاتها، الرعب الذي تمارسه. تشكل تلك الصور، التي التقطت في الدهاليز المظلمة للمخابئ السرية للمستشفيات العسكرية، دليلًا غير قابل للجدل عن همجية السلطة. ولدى مقارنتها بأفلام الهواة المحملة بالمشاعر، التي صورها مناضلو الحرية في شوارع المدن، فإن هذه المستندات الرسمية تجمد الدم.

كان قيصر يريد التوقف عن عمله والانشقاق، بينما كان سامي يصغي له ويقنعه بالاستمرار؛ كونه الشخص الوحيد الذي يستطيع جمع تلك الأدلة من داخل النظام، لقد وعده بدعمه ومرافقته مهما حصل. سيصبح الرجلان، المختلفان بشدة عن بعضهما، غير قابلين للانفصال: سامي، الفخور بحضارته وأصوله، ولكنه تشكّل خلال أربعة عقود من الدكتاتورية؛ لذا غالبًا ما ساده الشك والريبة بعيونه الثاقبة ونظراته المتصلبة التي يصعب اختراقها، كانت ابتسامة تنير وجهه، أحيانًا، وتخون حساسيته التي يحاول إخفاءها. وقيصر الرجل المباشر الذي يعبر عن نفسه بمفردات بسيطة وصريحة كطفل، لا تخفي كلماته شيئًا وراءها، ولا تزين الاستعارات كلامه؛ فهو يتحدث بأكثر الطرائق وضوحًا. سيقوم المصور الشاب، خلال سنتين، بالمخاطرة بحياته ونسخ آلاف من صور المعتقلين باستطاعتنا أن نراها اليوم على الإنترنت، ويُعرض كثير منها في صالة متحف الهولوكوست في واشنطن في الولايات المتحدة. سيقدم سامي له الدعم اليومي خلال السنتين، وما يزال يدعمه عام 2015، في مكان ما من أوروبا، هو أيضًا.

رابعًا: أرشيف الموت

قيصر

(كانت مشاهدة صور الجثث على جهاز الكمبيوتر أكثر إيلامًا من التقاطها؛ ففي مكان التصوير وسط الجثث، لم يكن بإمكاننا المماطلة؛ إذ كان الطبيب الشرعي يضغط علينا، وعناصر الأمن يراقبوننا ويسجلون ردات أفعالنا، في سورية،في الأحوال كلها، يراقب الناس بعضهم. وبما أنه لم يكن لدينا الحق في طرح الأسئلة أيضًا، كان من الأسهل التقاط الصور من دون النظر إلى الإصابات، ومن الأبسط محاولة إيقاف الشعور. لكن في صمت مكتبنا، كنا أكثر حرية بقليل؛ كنا نملك الوقت. هناك، عندما كنا نطبع الصور، وعندما كنا نلصقها، لم يكن باستطاعتنا تحويل نظراتنا عنها؛ فقد كانت أمامنا. كان أمرًا فظيعًا، كانت الصورة هناك، وكأن المعتقل يعود إلى الحياة أمامنا. كنا نرى الأجساد بحق، ونتخيل التعذيب ونشعر بالضربات. ومن ثم كان علينا كتابة التقرير، لنثبت بذلك ما كنا شاهدناه في ذاكرتنا. كانت سحنة المساجين تتغير بشكل كلي خلال شهر من الاعتقال، لدرجة يصعب فيها التعرف إليهم.

توفي أحد أصدقائي خلال احتجازه، وصورنا جثته من دون أن نعرفه، وبعدها بوقت طويل، عندما كنت أبحث بشكل سري عن معلومات لأبيه، أدركت أن صورته مرت بين أيدينا ولكني لم أستطع التعرف إليه، لم يُعتقل إلا مدّة شهرين، وقد كنا نرى بعضنا يوميًا قبل اعتقاله؛ كانت الشرطة العسكرية قد أخبرت والده بأن ابنه قد مات في المعتقل، لكن الأب لم يرد التصديق، لكني أكدت له الخبر: (تواصلت مع المستشفى العسكري وأكدوا لي أن ولدك قد مات). في الحقيقة، لقد بحثت في أرشيفنا وعثرت على الصورة، لكن بغرض المحافظة على السرية؛ لم أستطع أن أقول له ذلك بكل تأكيد. لم يكن أحد يعلم بأنه كان يجري تصوير كل جثة من جثث المعتقلين بانتظام قبل رميها في حفرة جماعية.

كنا في بادئ الأمر نقوم بذلك بقرف واشمئزاز، كان بإمكاني أن أعيش ثلاثة أو أربعة أيام من دون تناول أي طعام، ولكن بمرور الوقت غدا ذلك جزءًا من يومياتنا، وأصبح الروتين جزءًا منا. لقد كنا مخنوقين؛ ولكن لم يكن أمامنا خيار آخر للنجاة، ما الذي كان باستطاعتنا فعله؟ لقد كنا خائفين؛ فلو عبرنا عن أحاسيسنا لكنا تعرضنا للاعتقال والتعذيب حتى الموت، ولأصبحنا في عداد تلك الجثث. كنا أيضًا نخاف على أقاربنا؛ أن يجري اعتقالهم وأن يصبحوا هم أيضًا من تلك الجثث.

في أحد الأيام، كان واحد من زملائي في مستشفى المزة، وكانت الجثث تجاور بعضها، وعندما وصل إلى إحداها، ظنّ أن صاحبها ما زال حيًا، فقد كان يتنفس بشكل خافت، وعندها طلب زميلي إلى العسكريين المسؤولين عن نقل الجثث: (هل علي أن أصوره وما زال على قيد الحياة؟) بعدها وصل الطبيب الشرعي، وغضب قائلًا: (كيف حدث ذلك، ما زال حيًا؟! ما الذي سأفعله الآن؟ سيغير ذلك ترتيب أرقامي كلها)، لقد كان غاضبًا لأنه كان قد ملأ دفتره بالأرقام الطبية للجثث بتسلسل الواحدة بعد الأخرى، ولذلك كان عليه محو تلك الأرقام جميعها، وإعادة توزيعها وتسجيلها من جديد في ما إذا كان ذلك الرجل ما يزال حيًا، لكن أحد العساكر جاوبه قائلًا: (لا تقلق، اذهب واشرب المتة، وسيُحل الأمر عند عودتك). عندما عاد الطبيب، كانوا قد انتهوا من التقاط الصور.

كنا وزملائي نشكل فريقًا من عشرات المصورين، وندعم بعضنا، لكن لم يكن بإمكاننا أن نثق ببعضنا بحق. أحيانًا، كنا نتهامس من دون أن نجرؤ على غلق باب المكتب خوفًا من تخيل بعضهم أننا نتآمر أو ننتقد النظام، كما أنه لم يكن لدينا الحق في غلق الباب بأي حال. كنا نقول: (سنسأل، في يوم القيامة، عما ارتكبناه: (ما الذي فعلتوه خلال السنوات تلك كلها مع ذلك النظام المجرم؟ لماذا بقيتم؟) ونحن، ملؤنا الخوف، ما هو الجواب الذي كنا سنستطيع قوله؟ لم نعد نعرف. كنا نتساءل: (لكن ما الذي يحدث؟).

إرو، ما دام الوقت سانحًا

أبو الليث، مازن الحمادة

(ما الذي حدث؟ نزلنا إلى الشارع للاحتجاج ضد الظلم، فأصبحنا أرقامًا، هذا ما حدث). يثير مزيج من الغضب والمرارة والمعاناة أبا الليث، أمضى هذا التاجر القديم سبعة أشهر رهن الاحتجاز في كنف الفرع 227 للاستخبارات العسكرية، ومن ثم في زنزانة للسجن المدني في عدرا والمخصص، في المبدأ، لمجرمي القانون العام. تأخذنا قصة هذا الشاهد الجدير بالثقة إلى أقبية مراكز الاعتقال.

في ظهيرة ذلك اليوم من عام 2015، وبينما كان أبو الليث يتجول بخطوات رشيقة بجسمه الرياضي في شوارع إسطنبول، لم يكن المارة الذين يصادفونه قادرين على الشك في الجحيم الذي يسكن ذلك اللاجئ السوري المجهول. لكن، عندما أتى المساء، ولدى دعوته إلى الجلوس في مقهى ناءٍ، كشف الرجل ما أصبحه: ظلًا لنفسه، ومحطمًا ومنفيًا داخل جسده، وتائهًا في عالم (لم يعد يجد فيه الراحة)، ولا يعرف أين يذهب فيه. لكن في هذا المكان المخفي، جالسًا على وسائد على الأرض، عند لحظة البوح بالأسرار، سيعثر أبو الليث على الكلمات التي يحاول كبتها منذ أشهر. نعم، يرغب ذلك التاجر الأسبق والمعارض للنظام في العودة إلى دياره في جبال القلمون، وفي رؤية الأرض التي شاهدته يولد ويكبر، أرض أبيه ووالد أبيه، ولكن قبل كل شيء يريد أن يتكلم ويجب عليه ذلك؛ لأنه بروايته لقصته الخاصة، سيتحدث عن معاناة معارضي نظام الأسد جميعهم، وإخباره لحقيقته سيعني أنه سيد نفسه أيضًا، وسيعني عدم السماح للنظام أن يكتب التاريخ بعد الآن). في المدرسة، زرعت الكتب وحزب البعث فينا حقدًا وكراهية للديمقراطية. هل من الممكن أن يدير شخص ما البلاد من دون شعبه؟ هل من اللازم أن نكون كلابًا لنُحترم بشكل أفضل؟ في الغرب، يعامل الحيوانات بطريقة أفضل من تلك التي عوملنا بها).

في صباح السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر 2012، كان أبو الليث ينتظر داخل سيارة على طريق معزولة، ليس بعيدًا من مطار دمشق الدولي. كان ضابط من

الجيش سينشق وكان عليه أن يلاقيه للالتحاق بصفوف المعارضة، سيتذرع الضابط ذاك بحاجته إلى شراء شيء ما بهدف الخروج من الثكنة وملاقاة الناشط، ولكن هاتفه كان مراقبًا عندما اتصل ليخبر عن هربه؛ ومن ثم كانت عناصر الاستخبارات العسكرية هي من وصلت وقبضت على أبي الليث.

الساعة التاسعة صباحًا، قاده هؤلاء العناصر مباشرة إلى قاعة التعذيب في الفرع 227 التابع للاستخبارات العسكرية. يُعرف الفرع 227، المسؤول عن مراقبة ضواحي دمشق، بـ (فرع الموت)، ويسكن في مبنى موجود وسط العاصمة، على بعد بضعة مئات الأمتار من فندق الشيراتون الذي يرتاده السياح ورجال الأعمال، ويقع أيضًا على بعد أقل من خمسمئة متر عن دار دمشق للأوبرا، المكان المرموق في العاصمة.

قبل بداية التحقيق حتى، أمره المحققون أن يخلع ثيابه، وأغمضوا عينيه وضربوه على وجهه بمطرقة حديدية، يقول أبو الليث عن تلك اللحظة: (أمسك شخصان بذراعيّ، كان أحدهما يضربني على رأسي والآخر على كتفي وظهري، لقد فقدت وعيي على الفور).

(أنت إرهابي)، صرخ في وجهه أحد المحققين الذي أجلسه على كرسي، وربط يديه بالسقف وركل الكرسي بقدمه. معلقًا من معصميه، استعاد أبو الليث وعيه من جديد، وخلال ثلاث مرات، كان يجري (إنعاشه) في كل مرة بضربات على الرأس.

- نصحه الحراس: (إن اعترفت بكل شيء، باستطاعتك أن ترتاح).
- أجاب الناشط: (ليس لدي ما أقوله).

كأشقائه، انضم أبو الليث سريعًا إلى الثورة، وفي صيف عام 2011، سلكت الثورة السلمية طريق العسكرة. كيف نستمر في المشي في الشوارع وترديد الشعارات المعادية للنظام ودبابات الجيش تحتل الساحات، وتقسم الأحياء الأكثر نشاطًا في الاحتجاجات، وتحاصر القرى الثائرة؟ وكيف الصمود عندما يطلق الجنود النار على المتظاهرين؟ بدأ مدنيون في كل مكان بالتسلح لحماية التظاهرات، وفي اللحظة نفسها، بدأ عدد المنشقين بالازدياد، وتشكل (جيش سوري حر) ليطرح راية تجمع تحت

لوائها وحدات المقاومة المحلية تلك. لذلك، بدأت المعارضة تؤمن بإمكان قلب النظام بالقوة.

تنحدر عائلة أبي الليث من القلمون: تلك المنطقة الجبلية المعتزة باستقلالها، والواقعة بين أيدي الثوار منذ ربيع عام 2012. شمال العاصمة وتشرف على طريق دمشق - حمص الإستراتيجي بالنسبة إلى النظام؛ إذ إنه يقود إلى المنطقة الساحلية التي تعد الحصن العلوي الذي ينتمي إليه الرئيس بشار الأسد. وبمحاذاتها للحدود مع لبنان، ترتكز منطقة القلمون على الطرف الجنوبي لسهل البقاع اللبناني الذي يمثل قاعدة خلفية لعدد من الثوار من جهة، وحصنًا لحزب الله، الحزب الشيعي اللبناني الداعم للنظام السوري، من جهة أخرى.

ساعد أبو الليث العسكريين على ترك صفوف الجيش الموالي، وقد اعترف الشخص الذي كان ينتظره في صباح ذلك اليوم، من شهر كانون الأول/ ديسمبر 2012، بـ (نشاطه تحت التعذيب). (كان أولئك الذين ضربوني يتوقعون أن أخون، بدوري أيضًا، المتعاونين معي. ثم إنهم أعطوني أسماء وكانوا يريدون أن أقول لهم إن كان أصحابها من الإرهابيين. كان علي أن أعترف بمشاركتي بتظاهرات وأن أكشف من نظمها).

أمام صمته؛ أغرق معذبوه رأسه في سطل مياه، (اعتقدت بأني سأختنق، وعندما سحبوا رأسي، قاموا بصدمي بالكهرباء، ومن ثم أعادوا غطسه في الماء). بعدها، رموه على أرض الحمامات، شبه فاقد للوعي، ووجهه مخدّر، بقي غير قادر على الحراك مدّة طويلة، وفي النهاية اصطحبوه إلى ضابط أعاد إرساله إلى الزنزانة.

في ذلك المقهى في إسطنبول، انطوى أبو الليث أكثر قليلًا على الوسادات، وأخذ نفسًا جديدًا من نرجيلته. ما بين الصمت والذكريات التي لا توصف والصور الحاضرة، نسي الناجي من الموت محدّثيه، ومن ثم استأنف بابتسامة غير متقنة: (كان استقبال تلك الضربات يعد لا شيء مقارنة بما حصل لي بعدها. عندما تُضرب لا تعرف ما يجب قوله. غالبًا ما يكون لدى أجهزة الاستخبارات مسبقًا المعلومات التي تخصك، هم يبغون كسرك جسديًا، وخصوصًا عندما تساعد الجيش السوري الحر. ولكن

حدود التعذيب تذهب أبعد من ذلك؛ يريد النظام تحطيم إنسانيتك. كنا نعرف النظام المجرم، ولكن ليس إلى تلك الدرجة، يريد بشار الأسد قتل شعبه، ليس بإبادته جسديًا فحسب، وإنما يريد نزع إنسانيته).

بعد أيام ثلاثة من سوء المعاملة، أُرسل أبو الليث إلى غرفة صغيرة جدًا من دون ضوء، بالكاد يستطيع الحركة، شعر بوجود شيء ما يلامسه، اجتس بيده وميّز وجود جسد، ومن ثم اثنين أو ثلاثة أجساد مكومة فوق بعضها وباردة. لم يكن هناك أي صوت لأي نفس ولكن الرائحة كانت خانقة، ومن ثم بدأ شيء ما بالتحرك على سيقانه، وبحكّه. هل كانت ديدانًا؟ بدأ الرجل بالصراخ والعويل والبكاء، كانت تلك الجثث تخيفه. ثم تناهت بعض الأصوات الشبيهة بتنهدات الألم إلى مسامعه من الخارج؛ فصمت وأصغى، وانتهى به المطاف إلى النوم وسط كومة من اللحم. مر يوم أو يومين، أو دهر بأكمله. فهم أن سجانيه كانوا يريدونه أن يميز الأصوات التي تعبر الجدران، أن يعرف أن أناسًا، على مقربة شديدة، يتعرضون للتعذيب حتى الموت. وفي إحدى اللحظات، اشتدت قوة الصرخات أكثر فأكثر، ومن ثم توقفت فجأة، لينطق الجلاد كلمتين: (لقد مات). وهنا اعترف المعتقل الأسبق: (في تلك اللحظة، انهرت نفسيًا).

بعدها بوقت قصير، أتى سجانوه ووضعوه في زنزانة أخرى أكبر، كان فيها جسد عار في الظلام، وما زال ساخنًا، كان، من دون شك، الرجل الذي أطلق للتو صرخته الأخيرة. أتى شخص ما لأخذ الجثة وبقي أبو الليث وحيدًا في تلك الحجرة مدة ستة أشهر. واضح أنهم لم يكونوا يريدون له الموت، وإنما عقابه، وخصوصًا تحطيمه. في الطابق الأعلى من بناء الفرع 227، كانت الزنزانات الأخرى جماعية، وفي كل يوم، كان السجانون يجرون التفقد بطرائق إعطاء أسماء المعتقلين الذين يجب عليهم الإجابة بكلمة (حاضر).

لم يعد لأبي الليث اسم، ولا الحق في الكلام، فهو يحمل منذ الآن تسمية (الرقم 1)، وعندما يصرخ الحراس (رقم !) خلال التفقد، ما على أبي الليث إلا أن يقرع على بابه ليجيب، وليظهر أنه ليس ميتًا.

الوحدة والصمت والجوع، برد الشتاء ومن بعده حر الصيف؛ بدأ أبو الليث بالهلوسة، وبالطلب من الله أن ينهي أمره. في الظلمة، سمع شخصًا يهمس له: (لا يجب أن تموت)، حتى أنه شعر بيده تُوضع على جبهته لتُريحه، وطلب منه (ضع يدك مرة أخرى). قبل الظل ونصحه بالانتباه إلى نفسه، وبالقيام بالتدريبات ليحافظ على لياقته، وانتهى به الأمر بالقول له بنبرة عالية: (لكن ماذا تريد؟)، وهنا صاح أحد السجانين: (مع من تتكلم، يا كلب؟). عندها صمت أبو الليث وعرف أن روحه ذهبت، وها هو يقر اليوم: (لكن ذلك الصوت ساعدني في الصمود).

دعمه شخص آخر، حقيقي هذه المرة، في ما بعد. كانت زنزانة أبي الليث المعزولة تطل على الممر والحمامات، وعندما كان يؤذن له بالذهاب إليها، كان يصادف معتقلين آخرين وجب عليهم طأطأة الرأس وعدم مخاطبته، كما كانوا ممنوعين من فتح الطاقة الصغيرة الموجودة على بابه ليدركوا من هو ذاك الشخص الحامل للرقم 1. وفي صباح ما، تجرأ رجل وسأله من أين أصله. تردد أبو الليث، ثم أضاف الرجل مصرًا: (أنا من بانياس، واسمي عادل، وهذا رقم هاتفي: xxx xxx. هل ستتصل بوالدتي إذا خرجت؟

- خاطر أبو الليث وقال له: (أنا من القلمون).
- (لا تنم، ولا تتحدث حتى أطرق ثلاث مرات).

بعدها، مرر الرجل له قطعة خبز عبر النافذة، قال عنه أبو الليث: (لقد غير حياتي، لقد كان لطيفًا بحق معي، ليس كباقي السخرة الآخرين).

أن تصبح سخرة أو تموت

أصبحت السخرة إحدى حلقات آلة الموت الرئيسة؛ ففي عام 2012 امتلأت زنزانات فروع الاستخبارات جميعها؛ إذ توافد المعتقلون من كل صوب في البلاد منذ بدء الثورة وتضاعف الاعتقالات العشوائية، و قبل إرسالهم إلى مراكز الاعتقال غالبًا ما كان يُحتفظ بهم في أماكن عامة أعدّت بالسر في مدن المحافظات وفي العاصمة:

منازل ومدارس وملاعب ومكاتب لحزب البعث كانوا يُمضون أحيانًا أسابيع. حتى أنهم اضطروا إلى إعادة فتح سجن تدمر، مجمع الاعتقال المركز الموجود في الصحراء الشرقية. هناك وخلال مدة ثلاثين عامًا، سُجِن -أحيانًا خفية- وعذِّب وأعدِم عشرات آلاف المعتقلين السياسيين، أو ممن يفترض كونهم كذلك، من شيوعيين وإسلاميين وناشطي حقوق إنسان. فبعد إغلاقه لتداعيه للانهيار عام 2001، أعيد إلى الخدمة بعدها بسنين عشرة، في حزيران/ تموز 2011، ثلاثة أشهر ونصف الشهر من بداية الثورة. دمر جهاديو الدولة الإسلامية ذلك السجن، الذي يعد ذاكرة لطغيان عائلة الأسد، بعد بضعة أيام من غزوهم المدينة في شهر نيسان/ أبريل 2015، ليشكل ذلك هدية للنظام بسبب فقدان مستندات وأدلة عن جحيم ذلك المكان.

في دمشق وفي المحافظات الأخرى، لم يعد عدد السجانين كافيًا لضبط تدفق المساجين ذاك إلى مراكز الاعتقال؛ ولذلك بدؤوا الاعتماد على (الشاويش) و(السخرة)، زارعين بذلك نظامًا تراتبيًا جديدًا أساسه الخوف في ظلمات الزنزانات.

الشاويش هم مسجونو القانون العام المسجونين منذ سنوات عدّة، ويجري اختيارهم من الإدارة ليديروا المهاجع، ويراقبوا المساجين ويعاقبوهم، وتحت إمرتهم (السخرة) الذين يكونون أحيانًا مرتكبي جنح سابقين، ولكنهم في أغلب الأوقات مدنيين جرى توقيفهم خلال الثورة، ويساهمون في تسيير الأمور، ويحصلون مقابل مهمتهم -التي تتضمن بعض الخدمات- على زيادة قليلة في الطعام، ويشكل ذلك امتيازًا يؤدي إلى خلق المشكلات مع المعتقلين الآخرين.

مازن الحمادة، هو أيضًا، كان سخرة، وربما يكون هذا ما أنقذه، أو لعلها تكون رغبته الشديدة في الخروج حيًا ليدلي بشهادته هي التي فعلت، وهذا ما يقوم به اليوم.

كان مازن يعمل لدى شركة (Schlumberger Ltd) متعددة الجنسيات للنفط، التي أسّست في فرنسا، تقنيًا في مدينة دير الزور الواقعة شمال شرق البلاد. تعرض للتوقيف مرتين في عمر الرابعة والثلاثين عامًا، مرة في شهر نيسان/ أبريل، والأخرى في كانون الأول/ ديسمبر 2011؛ لتصويره التظاهرات ورفع مقاطع منها على الإنترنت، ومن ثم اعتقل مرة ثالثة في ربيع عام 2012. في تلك المرة، لدى مجيئه إلى دمشق

لحضور اجتماع عمل، استفاد من تلك الفرصة ليحمل بعض الحليب إلى طبيبة كانت تسكن إحدى ضواحي دمشق المحاصرة من جانب النظام. تواعدا في قهوة في سوق الحميدية، وحال مغادرة الطبيبة، جرى توقيف الناشط مع اثنين من أولاد إخوته كانا يرافقانه، وجرى اصطحابهم إلى فرع للاستخبارات الجوية.

بقي تقني النفط عامًا ونصف العام رهن الاحتجاز، تنقل في بدئها بين حجر مطار المزة العسكري الكثيرة التي تحولت إلى زنزانات، ومن ثم بعدها بشهرين إلى سجن عدرا المدني، أما آخر عشرة أيام فقد كانت في الأمن السياسي قبل إطلاق سراحه في أيلول/ سبتمبر 2013.

بعد انتهاء أولى جلسات الاستجواب، ألقي مازن في مهجع طوله أحد عشر مترًا وعرضه ثمانية. بين مئة وأربعة وعشرين شخصًا، كان مازن، ككل الموجودين، لا يرتدي إلا رداءه الداخلي، ولم يكن عندها قد سمع بـ (السخرة) من قبل. كان شخص في الزنزانة يتحكم بعمليات الذهاب والعودة اليومية إلى الحمامات ومنها، إذ كان يصف المحتجزين في أرتال مكونة من عشرة أشخاص، ليذهب بعدها شخصان اثنان لقضاء حاجتهما في كل مرة. وكان شخص آخر مسؤولًا عن الأدوية، إذ كان يوزع بحرص شديد، ووفقًا لدرجة خطورة الإصابات، حفنة من الأقراص المسكنة المرمية في أحد أكياس الخبز السوري البلاستيكية. وعن هذا يقول مازن: (كانت تلك الأدوية تُعطى لنا فقط ليستطيع السجانون أن يقولوا لمرؤوسيهم أنه كان لدينا ما نعالج أنفسنا به، كانت تلك مزحة ثقيلة. كان الضباط يأتون ليتأكدوا من سريان النظام ومن اتباع الإجراءات، ولكنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أنه لم يكن لدينا ما يكفي من الأدوية).

مرة قال ملازم كان مارًا في الدهليز ويتفحص الزنزانات عن بُعد: (هل لديكم كل ما تحتاجون إليه؟) وهنا تجرأ أحد المحتجزين في آخر المهجع وقال: (لا! ليس لدينا ما يكفي من الأدوية. أنا أتألم!) كانت أُذنا ذلك الرجل قد قطعتا، وأصاب الأكال (الغنغرينا) ساقه بأكملها، لكن السجان قال مؤكدًا: (لا، لا، لديهم كل ما يلزم). (ممتاز) رد الضابط وغادر. وبعد ذهابه، وضع السجان قدمه في شق الباب نصف المفتوح وقال مغتاظًا: (من قال أنه لا يمتلك كفايته من الأدوية؟) أجاب المُصاب (أنا). فجره الحارس إلى الخارج، وبمساعدة اثنين من زملائه، ضربوه بأنبوب

بلاستيك، ومن ثم مسكوه من أسفل وجهه وحصروه في أعلى شق الباب، وضربوا الباب حتى تكسرت أسنانه. حاول شخص هارب من الجيش داخل الزنزانة الاحتجاج، وقال: (لم يطلب إلا ما يداوي جروحه) فصاح به السجان: (فلتأكل برازك، أنت!) ورمى عصًا باتجاه جموع المحتجزين.

أخفض مازن، كغيره، نظره، وكزّ أسنانه، وتجمّد واضعًا رأسه بين كتفيه؛ فهو يعرف تمامًا ما الذي كان سيحصل من جراء عيشه لتجربة مماثلة قبل شهر في زنزانة مختلفة. هناك، وقف رجل فقد أعصابه بسبب الحر والاكتظاظ ومشى على زملائه وضرب على الباب، صائحًا: (لماذا تعتقلوننا؟ يا أولاد الكلب، يلعن بشار، وأبو بشار، ويلعن حافظ وأبو حافظ، ويلعن جميل حسن[3]). أجبر السجانون عندها الجميع على إدارة وجههم إلى الحائط، وضربهم، حتى أولئك الذين سقطوا على الأرض نصف ميتين. بعدها قبضوا على (الوقح) وعلقوه إلى سقف الممر أمام الزنزانة بوساطة ربطه من ظهره، وبدؤوا بدفعه من اليمين إلى اليسار. تك تك تك..). ما أزال أسمع حتى الآن أصوات خلع أكتافه عندما كانوا يدفعونه). لذلك، وابتداء من لحظة تلك الحادثة، قرر مازن أن يلتزم الصمت مهما حدث في الزنزانة.

في إحدى الأيام، أصبح مازن سخرة؛ إذ اقترح الشاويش اسمه على السجانين من دون إخطاره. (غدًا، ستكون سخرة) قال له السجان. هل كان ذلك حظًا؟ في تلك اللحظة كان مازن مطمئنًا.

شارك مازن -الذي كان ينشط منذ سنوات سرًا في صفوف المعارضة- بنشاط في الثورة، وكان يعلم بخطر ذلك، إذ قال: (كنت أعرف أني سأمكث هناك مدّة طويلة، وأن الطريقة الوحيدة لخلاصي ستكون إطلاق سراحي باتفاق تبادل أسرى. وكوني سخرة يمكنني من الخروج من الزنزانة واستنشاق الهواء المنعش).

لكن، ابتداء من اليوم التالي، سيصدمه الواقع؛ إذ نُقل رجل من إحدى ضواحي دمشق إلى زنزانته، كان مترنح الرأس ومتورم العينين من جراء الضرب، مدده

---

[3] جميل حسن، هو رئيس شعبة الاستخبارات الجوية

المحتجزون على المنصة الموجودة في آخر الحجرة، التي كانت صفًا دراسيًا فيما مضى. تحمل ذاك الرجل يومين، وبعدها كان جسده أول جثة وجب على مازن نقلها إلى الخارج؛ بوصفه سخرة، إذ لفها بغطاء وحملها، بمساعدة شخص مراهق، حتى مكتب الضباط في نهاية الممر، ليعود بعدها منهارًا. كان يريد أن يرمي بنفسه على الباب ويشتم الحرس، أن يصرخ، منعه أصدقاؤه من ذلك، وبدأ بالبكاء. كان أحد أبناء إخوته الذين جرى توقيفهما معه ما يزال برفقته، كان شديد البنيان، أخذ يديه وثبته قائلًا: (انتبه، إن فعلت ذلك؛ فسيعذبونك حتى الموت). ومن ثم قاده إلى الحمامات ومرر وجهه تحت الماء. بقي مازن بعدها مخبولًا ساعات عدّة قبل أن يسترجع إدراكه.

يعترف اليوم الناجي من الموت: (كنت قد نسيت توصيات إخوتي). مازن هو آخر أفراد الأسرة المكونة من أحد عشر شقيقًا وثماني أخوات لأمّين مختلفتين. لطالما تحدث إخوته عن السجن؛ إذ احتُجز إخوته الكبار سنوات عدّة، وفي المساء، بين أفراد الأسرة، أو خلال لقاءات مع معارضين آخرين، كانوا يروون وكان الشاب الصغير مازن ينصت، إذ كانوا يؤكدون: (عندما تعتقل، يجب أن تنسى العالم الخارجي، وإلا ستنهار. يجب أن تفكر في المكان الذي توجد فيه، أن تنظر إلى الجدر وأن تعد مربعات البلاط، عليك أن تركز على ما تأكله. إن سمحت للعالم الخارجي بالدخول إلى الزنزانة، ستموت).

السخرة هي أيضًا من أشكال التعذيب

تعود الجثة الثانية التي كان على مازن إخراجها من المهجع لشاب ذي صوت عذب، وغناء إيقاعي: صالح. في الخارج، كان الجيش الموالي يقاتل الثوار في مدينة المعضمية، المتاخمة للمطار في جنوبها، الواقعة تحت حصار قوى النظام منذ أشهر. في ذلك اليوم، بدأت المعارك بالاقتراب من أراضي المطار ومن المباني التي حُوّلت إلى سجون، قطع ضباط المطار العسكري التيار الكهربائي لإطفاء الأنوار والتشويش على ضربات الثوار.

في المهجع، توقفت شفرات مروحة التهوية عن الدوران؛ وبدأ ينفذ الهواء بسرعة، وبعد ساعات عدّة اقترب صالح من الباب وصرخ. بعدها طلب أحد الحراس: (من هذا الكلب، الحيوان الذي خبط على الباب؟) طلب صالح الهواء، فأمسك به السجانون وضربوه وأعادوه.

عندما مات صالح، عمت فوضى عارمة القاعة؛ واضطر خمسة أو ستة سجانين إلى الدخول لإبعاد الناس باستخدام ضربات العصي، وترك مازن مُساعدًا مع سخرة آخر، سحب جثته لنقله داخل سيارة إسعاف عسكرية. عادة، عندما يموت أحدهم، يطبق الصمت على الزنزانة بأكملها، ويضع المساجين أيديهم على أعينهم ويخفضون رؤوسهم، ويحبسون دموعهم، ليبدأ رجل دين بتلاوة بعض آيات القرآن بصوت منخفض.

تقريبًا في كل يوم، كان أحد المساجين يموت اختناقًا، خصوصًا من بين أولئك المسنّين أو المرضى، ولا ينفذ إلا خيط رفيع من الهواء عبر الباب إلى داخل الزنزانة، حيث لا نتخلى عن مكاننا بسهولة. النزلاء معظمهم في تلك الزنزانة ضباط منشقون، وعندما يختنق أحد ما في نهايتها، عليك الإصرار ليتركوا له بعضًا من المساحة قرب مدخل الهواء.

يتذكر مازن الوضع في الزنزانة فيقول: (كنا محصورين فوق بعضنا، إذ لا يقوم أي راع بإدخال مئة وخمسين دابةً في حظيرة مخصصة لاستقبال خمسين خروفًا. لقد كنا مئة وثمانين شخصًا في تلك المساحة؛ جوِّعنا لدفعنا إلى التقاتل في ما بيننا. عندما يجوع الإنسان، لا تصمد الأخلاق، ليس للجوع دين، فهو كافر).

لقد سرق مازن، قطعة خبز، ملعقة أرز، ملعقة حساء. حوالى الظهيرة، نادى السجانون على مازن ليفرغ حمولة الشاحنة المعبأة بأكياس الأرز والخبز وسحاحير البندورة، بمساعدة ثلاثة آخرين من السخرة. كانوا يحملون الغذاء إلى مقربة من مكتب الضباط، ومن ثم يوزعونها بين الزنزانات، وكان مازن يسرق عندما كان العساكر يديرون ظهورهم. في بداية مدّة اعتقاله كانت الوجبات شبه كافية ولكن رويدًا رويدًا

مع المواجهات في العاصمة وارتفاع أسعار المواد الغذائية؛ غدت حلل الطعام نصف ممتلئة؛ وخصوصًا عندما بدأ الضباط بتحويل جزء من المواد الغذائية لبيعها.

كان طعام الفطور يُحفظ في الزنزانة: خبز ولبنة (ونوع من الجبن الأبيض الرفيع والمملّح، يحفظ في علب بلاستيكية سوداء وبيضاء تُوضع على رف مثبت فوق المرحاض). بالنسبة إلى طعام الغداء، فقد قُلّص إلى الحد الأدنى، وكان يوزع في الزنزانة، أما العشاء فكان يُخزّن في الخيمة، وكان السخرة يذهبون لإحضاره في المساء. الخيمة هي ركن للاستراحة يحتوي على ثلاثة أسرة، وعلى فضاء للعمل فيه مكتب، وقد نُصبت في باحة مباني السجون للسجانيين، الذين قاموا حتى بتجهيز حديقة صغيرة بنبتات غرست في علب قديمة، وكانوا يرتادونها لشرب الشاي في جو هادئ.

في الصباح، كان مازن يستيقظ من جراء ضجيج أحذية الضباط القادمين لبدء خدمتهم، أو من جراء وقع خطوات السجانيين القادمين لأداء جولة حرسهم. كانت الساعة السادسة أو السابعة صباحًا: (هيا يا شباب، يجب تناول طعام الفطور، اصحوا، وإلا سيغضبون وسيضربوننا. هيا، استيقظوا).

خلال النهار، كان السخرة يخرجون لتنظيف الزنزانات والممرات ومكاتب الحرس. كان مازن يمر على خيمة السجانين، وبسطل لودالين (منظف رخيص الثمن) كان ينظف الأرض، ومن ثم كان يستخدم ممسحة لكشط الماء الوسخ وقطع قماش لتجفيف الأرض، وعنها يشرح لنا مازن: (قطع القماش تلك هي قمصان وبناطيل المحتجزين. كان المحققون يجبروننا على التعري من أجل التحقيق والتعذيب. كنا بعدها نعود إلى الزنزانة بالملابس الداخلية. عندما اعتقلت، كنت خارجًا من اجتماع عمل، كنت حسن الملبس، قميص ستيفانيل، بنطال جينز وأحذية سوداء إيطالية الصنع. استولى العناصر على ملابس كتلك، أما غيرها من الملابس ذات الجودة الأقل، فقد رميت في حجرة وكانوا يعطوننا إياها لاستخدامها في تنشيف الأرض).

عند قيامه بالتنظيف، غالبًا ما كان يقف أحد السجانين خلف ظهره، يضغط عليه ويعنفه إن انخفض إيقاعه. بظهر منحن، كان مازن يتحمّل بصمت، ويسجل بنظراته

كل ما يحدث، كان يحفظ أسماء العساكر والجلادين، ويراقب المشاهد التي تُعصب فيها أعين الموقوفين، كان يقيس طول الممرات ومساحة الزنزانات، هدفه من وراء ذلك؟ التذكر. سينال حريته يومًا ما، وسيروي.

لذلك، سيروي ذلك السجين الأسبق، مرات عدّة خلال ربيع 2015 ذاك، وباندفاع سيل من الكلمات من دون انقطاع، وبغير ترتيب. كان يكشف أسماء، ويصف أماكن، ويفصّل حوادث ويعيش ألمًا من جديد. كانت التواريخ الدقيقة هي الشيء الوحيد الذي افتقده، على الرغم من قيام المساجين برسم روزنامة أسبوعية على الجدر مستخدمين نواة زيتونة، وكانوا في كل يوم يحركون شريطًا لاصقًا حصلوا عليه من كيس خبر. كان الناجي يتذكر، ولكن كانت ذاكرته تراوغه في بعض الأحيان، فعندما كان ينسى اسمًا ما، كان ينفعل ويتصل مباشرة بزميل سجن، لاجئ مثله في أوروبا، ليسأله: (هل تذكر ذلك الشخص؟ ما كان اسمه؟) كانت ذاكرته سلاحه قبل الثورة والسجن، وكانت كذلك خلال الأشهر الأولى من الاعتقال، ولكنها بدأت تخذله بعض الأحيان منذ تحرره.

في أحد الأيام، ناقش مازن مع شاويش إجراءه لمكالمة هاتفية، وقام الأخير بإدخال هاتف أحد السجانين الجوال داخل علبة ملح مقابل حصوله على المال الممنوح من صديق معارض كان حرًا. استطاع مازن إخطار عائلته بوجوده في داخل الاستخبارات الجوية، ونقل أسماء سبعين معتقل آخرين كي يجري إعلام عائلاتهم أيضًا. وشى به أحد الحاسدين إلى سجان آخر متهمًا إياه بالاتصال بالجيش السوري الحر؛ فوضع في زنزانة انفرادية أيامًا عدّة.

في كل أسبوع، عندما كان مازن ينظف مكتب الوحدات الخاصة في مطار المزة العسكري، كان يلحظ رتل المعتقلين معصوبي الأعين، ومكبلي الأيدي وراء الظهر، كانوا ينزلون من طيارة آتية من حماه أو حمص أو أحيانًا من حلب، المدينة الضخمة في الشمال المقسومة إلى قسمين بين النظام والمعارضة.

عندما يُعتقل شخص ما في محافظة ما، يجري التحقيق معه في مركز اعتقال محلي، ويُرسَل تقرير عن استجوابه إلى المكتب المركزي في دمشق، الذي يقرر، أو

لا، وفقًا لأهمية الشخص وللمعلومات التي قد يمتلكها، إرساله إلى العاصمة. لكن غالبًا ما لا ينقل المساجين مباشرة؛ نظرًا إلى صعوبات التنقل في البلاد التي تشهد حربًا، ولامتلاء الزنزانات في بعض الأمكنة. أحيانًا، ينتظر المعتقلون أسابيع في سجون مرتجلة حتى تفرغ فروع الاستخبارات في دمشق، المكتظة مسبقًا. يشبه الطريق الذي يسلكه بعض المعتقلين شبكة عنكبوت، من نقطة إلى أخرى، ومن دون أي تفسير عقلاني.

نقل الجثث

عامر الحمصي

في بعض الأحيان، حتى أجساد المعتقلين الموتى في المحافظات كانت ترسل إلى العاصمة. مارس الطبيب عامر الحمصي خمسة عشر عامًا في مستشفى حمص الحكومي، وشاهد في عامي 2011 و2012، قبل هربه إلى الخارج، جثثًا تجلبها السلطة بهدف نقلها إلى مستشفى المدينة العسكري أو مباشرة إلى دمشق بوساطة طائرة مروحية.

بتسميتها (عاصمة الثورة)؛ دفعت حمص أحد أعلى فواتير تلك الحرب، إذ استشرس النظام على ثالث أهم مدن البلاد -والواقعة على ملتقى طرق إستراتيجي يصل بين دمشق والشمال باتجاه حلب وتركيا من جانب، وبين الحصن العلوي وساحل المتوسط من جانب آخر- فقام باعتقالات هائلة، وبتدمير مكثف لبعض الأحياء، كحي باب عمرو في شباط/ فبراير 2012، وهو الحصن الثوري الذي سُحق، بالمعنى الحرفي للكلمة، خلال مرحلة استعادة السيطرة عليه في شهر آذار/ مارس. وهنا يتذكر الطبيب، الذي أصبح اليوم لاجئًا في بلد مجاور لسورية، قائلًا: (أصبح مستشفانا مركز اعتقال، شبيهًا بثكنة. في كل يوم، كان يجري إحضار عشرات المعتقلين، مصابين أكانوا أم لا، إليه، ويربطون بالأسرة وتطمش أعينهم، ويضربون بشدة ويعذبون بالكهرباء. وفي إحدى المرات، أصبح عددهم مئات عدّة، كنا ممنوعين من مخاطبتهم، وعندما كانوا ينزلون من الشاحنات، كنا ننعزل في الداخل خوفًا من أن نتعرف إلى أحدهم). كان

أحد أول المعتقلين المصابين الذين وجب على عامر الحمصي معالجتهم، في ربيع 2011، متظاهرًا شابًا. لدى وصوله، كان كاحلاه مشطبان بعمق من القيود، مات بعد ثلاثة أيام من تعرضه للضرب. عندما أعيد جسده إلى عائلته، كان حجرا عينيه قد أفرغا من محتواهما، وأعيدت أجساد أخرى إلى الأقارب بتلك الطريقة: أوصال مقطعة بخشونة، كما لو أنه قد جرى استئصال بعض الأعضاء، وكان على الأهل أن يوقعوا على ورقة تؤكد أن ابنهم قد قتله (إرهابيون). ورويدًا رويدًا، بدأت الاستخبارات بطلب مبالغ مالية من الأقارب بغرض الحصول على الجثث في المقابل، لم تكن كثير من العائلات تمتلك الإمكانات المادية، بينما امتلكتها عائلات أخرى، ولكنها لم تأت خوفًا من أن يجري اعتقالها هي أيضًا.

في داخل المشرحة، التي جُهّزت في القبو، أصبحت الرائحة لا تُحتمل بسرعة، وخصوصًا بين كانون الثاني/ يناير وآذار/ مارس 2012، أي المرحلة التي اشتد فيها قمع النظام لأحياء حمص الثائرة، وعن هذا يشرح عامر الحمصي: (كانت البرادات ممتلئة، وتجمعت الأجساد على الأرض، كان علينا العمل بكمامات على الأنف والفم). كانت الجثث معظمها تنقل بشاحنات صغيرة لتدفَن في مقابر القرى المحيطة، ولكن كان بعضها الآخر يُرسَل إلى دمشق؛ (بكل تأكيد لإطلاع رؤساء فروع الاستخبارات أن هؤلاء الناس قد جرى اعتقالهم وموتهم).

لم أعد إنسانًا

أبو الليث

كان من الحيوية أن يجري تحويل الرجل القادم من القلمون، أبو الليث، إلى المحاكمة. جرى اصطحابه من الشرطة العسكرية المسؤولة عن نقل المعتقلين.

بعد أشهر ستة أمضاها في مركز الاعتقال، خرج أبو الليث من زنزانته المظلمة، واقتيد معصوب الأعين في ميكرو باص إلى مكان يجهله. سأله موظف عن اسمه في مكتب، فأجاب: (أنا الرقم 1)، تلقى صفعة، وأعيد السؤال: (ما اسمك؟) فأعطى

عندها اسمه الحقيقي وسمع: (أنت وعائلتك، كلكم إرهابيون). أمسك الموظف يده وجعله يبصم على مستند. بعدها، حُشر وآخرون في سيارة أشبه بالفرن، مطأطئي الرأس خلال الطريق كلها، وعلى الحواجز العسكرية، كان جنود يطالبون بـ (ضرب هؤلاء الإرهابيين) بأخمص بندقياتهم. وصلوا إلى المحكمة العسكرية في المزة، جنوب غرب العاصمة، وعندما نزعوا قطعة القماش التي كانت تغطي عينيه، كاد أبو الليث يفقد وعيه؛ إذ لم تتعرض عيناه لكمية مماثلة من الضوء منذ أشهر.

إلى جانبه، وجد أحد الضباط القدامى الذي كانوا قد حاول مساعدته في الهرب، وغيره من بائسي الحال: كانوا عراة، تنبعث من جروحهم رائحة كريهة وسيقانهم ملتهبة، كان بعضهم مصابًا بالجرب. شعر أبو الليث بالخوف من تلك الوجوه الشاحبة التي لا روح فيها، وبدأ بحك جلده لتتسبب أظافره الطويلة بجروح فيه.

اتهمه القاضي بـ (تمويل العصابات المسلحة)، وبـ (دعم انشقاق الضباط)، وبـ (التعاون مع قوى أجنبية). بعدها أُرسِل إلى سجن درعا المدني، وفي طريقه إلى هناك، أمضى ليلة في فرع عسكري، في قاعة مكتظة سقفها منخفض بشدة حيث لا تستطيع الوقوف، وكانوا يرمون بالأرز للمساجين في الأرض للأكل، ولكنه لم يستطع الوصول إليه لتناوله. عند وصوله إلى السجن، كان حوالى مئة شخص ينتظرون واقفين في الباحة، كانت الشمس تحرق جروحهم، ووُعدوا بالطعام وباللباس وبزيارة الطبيب. كانوا واقفين في رتل انتظارًا للدخول إلى غرفة سيجري فيها قص شعرهم وأظافرهم، في داخل الغرفة علقت أربع أو خمس مرايا على الجُدُر، وفي الزجاج كان رجل يراقبه، مشوه الوجه وهزيل الجسد، غضب أبو الليث وقال: (لماذا تنظر إلي؟). أراد أبو الليث توبيخه ثانية ولكنه أدرك أن ذلك الشخص هو انعكاس صورته في المرآة، (لم أعد إنسانًا، كنت أرغب في الانتقام). الرأس حليق الشعر، اخترق قليل من الماء الذي كان باستطاعته أن يغتسل به جلده كما لو أنه كان رؤوس مسامير.

في السجن، لا يتحدث الشخص، إلا عند الجدال والعراك مع المعتقلين الآخرين. في المهجع الكبير الذي يتعفنون فيه، احتفظ سجين مؤبد -معتقل منذ خمسة عشر عامًا- لنفسه بزاوية مع جهاز تلفاز. في عدرا، لكل شيء سعر، كالزيارات وإمكان تلقي كتب أو حاجات. كان ذلك المحكوم بالسجن المؤبد رجلًا قوي البنيان، وأصله من جبال القلمون أيضًا؛ أخذ أبو الليث تحت جناحه، فاهتم به وغذّاه كما لو كان طفلًا.

كان يعيره هاتفه الجوال الذي أدخله بالتهريب، وكانت اتصالاته بعائلته لا توصف، مصحوبة بالبكاء والصراخ، (لم يريدوا تصديق أنني كنت المتكلم، كانوا مقتنعين أني قد مت، فقدت أمي وعيها).

يعرف أشقاء أبي الليث ضابطًا من النظام، اشتروا منه العفو عنه، ووعدوا بتحرير مساجين من الجيش الموالي. في طريق العودة، مرت السيارة من حواجز النظام بفضل ذاك الضابط، ومن حواجز الجيش السوري الحر بفضل أشقائه، وعندما وطئت قدمه أمام بيت العائلة، كانت أمه هناك مع شقيقاته الأربع وأربعة من أشقائه الخمسة، وحضر بعض من أبناء عمومته والجيران. ترنح أبو الليث وسط شهقات الاستعجاب، كان هناك كثير من الضجيج وكثير من الناس؛ وهنا تدخل شقيقه الأكبر: (دعوه وشأنه، هو بحاجة إلى الهدوء). صعد السجين الأسبق إلى غرفته، أعطاه الطبيب دواء مهدئًا ومنومًا. بقي أبو الليث حبيس غرفته أسبوعًا قبل أن يقوى على التواصل.

استعادة ما يشبه الحياة

أرسل حزب الله -الحزب الشيعي اللبناني المدعوم من إيران الذي جاء عسكريًا لمد يد العون للنظام- رجاله للقتال ضد ثوار الجيش السوري الحر. توالت المعارك، وبدأ يضيق نفس أبي الليث في منزل الأسرة في الوقت الذي حمل فيه إثنان من أشقائه البارودة مع الجيش السوري الحر. أخبر أكبر أشقائه بوساطة جهاز الاتصال اللاسلكي: (إن ذهبت للقتال، فسأذهب أنا أيضًا). لكنه كان يعرف أنه لن يقدر على ذلك، تمامًا كما لم يكن قادرًا على إخبار عائلته ما عاشه خلال تلك الأشهر السبعة. ترأس أحد إخوته كتيبة لقيادة هجوم انتصر فيه على الجنود اللبنانيين، وقاتل الأخ الآخر إلى جانبه، ولكنه توفي بعدها بمدّة قصيرة في هجوم آخر.

في البيت، لم تعد أم أبي الليث تتركه يرحل؛ فبعد مقتل أحد أبنائها في ساحات القتال، علمت لتوها بمقتل ابن آخر في مركز اعتقال الاستخبارات العسكرية. وجب على أبي الليث أن يترك البلاد، وأن يلجأ إلى الخارج ليعيش ويحمل اسم عائلته. غادر سورية شاعرًا أنه قد أصبح خائنًا.

خامسًا: جماعات وأديان

قيصر

«في بادئ الأمر، كانت هناك مناقشات بين الزملاء. كانت الأغلب ينتقد التظاهرات: (كنا نعيش في أمن، لماذا تأتي جماعات الزعران تلك، المدفوعة من الخارج، لتسبب المشكلات؟ سيهزون أركان النظام. كنا نعيش جيدًا من قبل، كان باستطاعتنا ترك سياراتنا مفتوحة، لم يكن هنالك سرقة، كانت نساؤنا يخرجن وحدهن في أي ساعة يردن. انظر ما الذي يحدث اليوم)

ظن زملائي أن ما يحدث لم يكن يخصهم، أنه كان بعيدًا. ولكن مع البدء التدريجي لدخول أولئك الجنود بتصاريح إلى قراهم، شاهدوا كيف يقتل الجيش المدنيين، وكيف يغتصب الجنود النساء والبنات، ويحرقون البيوت ويسحقون السيارات بدباباتهم؛ وفهموا أن كرهًا طائفيًا كان ينمو وأنه أصبح من المستحيل التفاوض مع النظام.

في قطعات الجيش الكبيرة، ينام جنود الحرس في مهاجع، وفي القطعات الصغيرة، أو في أقسام الخدمات كقسمي، يمضون الليل في المكاتب. قبل الحوادث، كان الجنود يفضلون أن يناموا منفردين لينعموا بالهدوء. أما بعدها، فقد أصبحوا، شيئًا فشيئًا، يرغبون في النوم مجتمعين؛ إذ انعدم الإحساس بالأمان، فكانوا كمجموعة من الدجاج يدفئ بعضهم بعضًا ويرغبون في البقاء مع بعض خوفًا من الثعلب. لم نكن نعرف ممن سيأتي الشر، من النظام؟ أم من الثوار؟

في البداية، كان هناك سريران في أحد مكاتبنا، ومن ثم بدأنا بنقل الأسرة من حجرة إلى أخرى، إذ أحضر أحد الجنود سريره، ومن ثم تلاه آخر ولحق به ثالث. في الحقيقة، كنا نتكتل حول بعضنا وفقًا للعوامل المشتركة، إذ اجتمع الناس القادمين من القرية نفسها أو المنطقة نفسها، أو أولئك المنتمين إلى الطائفة نفسها، فالدروز مع الدروز، والعلويين مع العلويين والسنة مع السنة. كنا بحاجة إلى أن نكون مع

بعضنا لخوفنا من توجيه اتهامات ملفقة لنا. قبل الثورة، لم نكن نشعر بالضرورة بالفروق بين بعضنا، ولكن، وبالتدريج أراد الناس تصفية الحسابات، وبدأت النميمة بتثبيت أركانها، إذ كان من الممكن تصديق ما يرويه الأشخاص بالنقل عن آخرين. اعتقلت أجهزة الأمن كثيرًا من الجنود مدة أربعة أو خمسة أشهر لاتهامات غريبة الأطوار، وأحيانًا كانوا يتهمون بـ (التفكير بالانشقاق)، وانتشرت الوشاية في الأقسام جميعها.

كان هنالك ضابطًا مسؤولًا عن الأمن في كل قطعة عسكرية، وغالبًا ما كان علويًا، وكان مسؤولًا عن قيادة التحقيق، واستقبال الشكاوى قبل إرسالها إلى أجهزة الاستخبارات من دون المرور بالقضاء. على سبيل المثال، كان أداء الصلاة خلال ساعات الخدمة ممنوعًا، ومن قبل كان الجندي الذي يقوم بذلك يتلقى تنبيهًا بسيطًا من دون أن ترفع القضية إلى أجهزة الاستخبارات. مع الثورة، أصبح الاتهام بأداء الصلاة الفرصة لإلحاق الضرر بشخص ما. تفاقم ذلك الوضع مع مرور الوقت؛ إذ ربط النظام الثوار بالإرهابيين. من الصحيح أنه في البداية كان الثوار ينحدرون من مناطق معظمها سنية وفقيرة ومحافظة، لكن لا علاقة لذلك بالإرهاب. بالنسبة إلى النظام، إن أداء الصلوات الخمس في اليوم يعني أنك من الإخوان المسلمين، لكن السنة معظمهم يؤدون تلك الصلوات لواجب تجاه الله، ولا يعرفون شيئًا عن الإخوان المسلمين.

لقد قتل حافظ الأسد، والد بشار، آلافًا من الإخوان المسلمين في الثمانينات مؤكدًا أنهم كانوا إرهابيين، وها هو ابنه يقوم بالمقاربة الخاطئة ذاتها بين متظاهرين وإخوان مسلمين وإرهابيين.

كانت أغلب المجندين وجنود الشرطة العسكرية من الطائفة السنية، أما الضباط فكانوا علويين. قبل الثورة كنا نعرف أصلنا من أي قرية وطائفتنا، لكن ذلك لم يكن ذا أهمية، كنا نعيش عائلة واحدة ونتجنب النزاعات، وفي الجيش كان العلويون يتحدثون بلهجة أهل دمشق. بعد الأشهر الأولى للثورة، بدؤوا بإبراز لهجتهم، كالتركيز في الكلام على حرف القاف، كانت تلك طريقة لاستفزازنا ولإظهار فخرهم في الوقوف مع النظام، حتى أن السنة من داعمي بشار الأسد قد بدؤوا باكتساب اللهجة العلوية،

وكانوا يزيدون من التحدث بها عندما يظنون أن النظام قريب من تحقيق انتصار ما، ليُظهروا أنهم كانوا في معسكر المنتصرين.

كآخرين غيري، كنت مراقبًا باستمرار، وكانت أفعالي وحركاتي كلها مسجلة، حتى أن أحاسيسي وطريقة نظراتي كانت تتعرض للتحليل. توترت العلاقات بين الجنود ومسؤوليهم، وصودر جهاز التلفاز على الرغم من أنه لم يكن يبث إلا قنوات الدولة السورية، وأصبح بإمكاننا مشاهدته في صالة الطعام فحسب، ومنعت الهواتف الجوالة، إذ كنت أخفي جهازي في جرابي، وكانت الهواتف الأرضية مراقبة، وعندما كان العساكر يتصلون بعائلاتهم، كانوا يخبرونهم بأن كل شيء على ما يرام، ولم تستطع العائلات أن تروي شيئًا عما كان يحدث في قراها.

في بعض الأحيان، كان بعض الأصدقاء الذين انشقوا ليلتحقوا بالجيش السوري الحر يتصلون بي على هاتف المنزل، كنت أغلق السماعة مباشرة؛ فقد كنت أخاف كثيرًا من التحدث إليهم إذ من الممكن أن نُعتقل لـ (التواصل مع جماعة إرهابية)، لم أكن أنام اليل بعد تلك الاتصالات، وكان االقلق الشديد يسكنني في المكتب في اليوم التالي.

ازداد معدل الانشقاق في صفوف الجنود والمجندين السنة تدريجا، وفي كل أسبوع كان عدد يهرب من الشرطة العسكرية. في البدء، كانوا يستغلون إجازاتهم ولا يرجعون ويبقون مع عائلاتهم، من ثم بوعدت الإجازات قبل أن تُمنع للمجندين، إذ كان النظام يخشى من الانشقاقات. وكان بعض الجنود يستغل أوقات العزاء في أسرهم للهرب؛ لذلك قام النظام بتقييد تصاريح الإجازة المرتبطة بالعزاء، وتظاهر بعض الجنود بالجنون كي يجري تسريحهم، كسر بعضهم الآخر ذراعه بغرض الحصول على تصريح طبي والعودة إلى ديارهم. لكن الانشقاق أضحى أكثر خطرًا، إذ لا يخدم الجنود أبدًا في مناطقهم، وكان المجندون أو عناصر الدورات يرسلون إلى الطرف الآخر من البلاد، وشكل ذلك مشكلة؛ ففي بداية الثورة، كانت الطرق آمنة، وكان النظام يتحكم بالأراضي. لكن مع مرور الوقت، هاجم الثوار وسيطروا على بعض المناطق؛ ما منع الجنود من التحرك بسهولة.

سببت الانشقاقات وانخفاض الإقبال على الالتحاق بالجيش النقص المتزايد لعدد السنة في الجيش وفي قسم خدمتنا، كان يجري استبدال علويين بهم.

في كل قطعة عسكرية، لم يكن بإمكاننا الوثوق إلا ببعض الأشخاص، وعندما كان زميل لنا يرغب في الانشقاق، لم يكن يستطيع أن يقول لنا ذلك، بكل تأكيد، ولكنه كان يُفهمنا ذلك بوساطة طريقته في مخاطبتنا، بتقربه أكثر منا، وبنظراته الحنونة أكثر، وبسلوكه الأكثر لطفًا. كان يودعنا بطريقة غير مباشرة، كان ذلك يعني (اعذروني إن انشققت). غالبًا ما يكون الشخص شارد الذهن وكأنه في مكان آخر، وكنا نشعر بالخوف باديًا على وجهه.

كان الأمر صعبًا، فقد كنا نعمل معًا زمنًا طويلًا، وكنا نتساءل: (هل سينجح؟ هل سيموت؟ ونحن، هل سنموت؟) كنت أريد الهرب، أنا أيضًا، ولكني لم أستطع. كنت قد التزمت، وكان علي أن أنهي ما قد بدأته».

مزاحمة ومنافسة وغيرة

منير أبو مازن ومازن الحمادة

بقوة عمادها 300.000 رجل عام 2011، كان الجيش السوري أحد أعمدة استقرار النظام؛ فهو من ثبت حافظ الأسد في السلطة، بانقلاب عسكري، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1970. ولضمان استمرار ولائه، عين الأخير أقارب من عائلته، أو أعضاء من طائفته الأقلوية العلوية في المراكز المفتاحية.

وبكونه علويًا، تابع بشار الأسد سياسة الولاء التي أسسها والده، مانحًا الأفضلية بمنهجية للمنتمين إلى جماعته. كان أصحاب الرتب العالية وقادة الجيش ينتمون بنسبة 85 لا بل 90 في المئة إلى تلك الطائفة، وكان بعضهم سني أو مسيحي. أما الفرق العسكرية، فكانت من السنة معظمها.

لمواجهة الأغلبية السنية لعب الأسد، الأب والابن، على خوف الأقليات العلوية والمسيحية لجذبهم إليهما. وبتنصيب أنفسهم متراسًا (كاذبًا) للعلمانية، عرفوا كيفية الاستفادة من الواقع الديني، خالطين بين المصالح الطائفية والاقتصادية.

في نيسان/ أبريل 2011، أعطى بشار الأسد الوهم بإصغائه للمتظاهرين، وأنهى حالة الطوارئ بعد ثمانية وأربعين عامًا من إعلانها، ولكن في الوقت نفسه، سمح للشرطة بنقل صلاحياتها في التوقيف والاعتقال إلى الفروع الأمنية والاستخبارات.

وللقمع بشكل أكثر فاعلية، جرى تشكيل الخلية المركزية لإدارة الأزمة من قادة القوات المسلحة، ووزيري الدفاع والداخلية، إضافة إلى رؤساء فروع الاستخبارات. كانت تلك الخلية تحرر تقارير يومية عن الوضع في البلاد بأكملها، وبعد موافقة الرئيس الأسد كانت تتخذ القرارات وترسل الأوامر إلى مكتب الأمن القومي، الجهاز الرئيس للقمع في البلاد بفضل (لجان الأزمة) المحلية التابعة له، إذ كانت أكثر قمعًا من الجيش نفسه.

لا يستطيع العسكريون ضمان استقرار النظام من دون أجهزة الاستخبارات المتعددة، ومن دون المكاتب المحلية لحزب البعث. في الأشهر الأولى للثورة، عندما كان الجيش يهاجم الأحياء الثائرة التي تتظاهر، كان رجال الاستخبارات يمنعون الناشطين من تنظيم أنفسهم، ويعتقلونهم ويعذبونهم ويقتلونهم. وفي شهر آب/ أغسطس 2011، أُرسِل إشعار (عالي السرية) بالفاكس من مكتب الأمن القومي إلى رؤساء اللجان الأمنية الفرعية، وفي ما يأتي مقتطف منه: (استنادًا إلى قرار صادر عن الخلية المركزية لإدارة الأزمة، يطلب من قادة اللجان الأمنية إطلاق حملة [...] يومية تديرها كافة الفروع الأمنية بهدف اعتقال الأشخاص المشاركين في التحريض على التظاهر، وأولئك الممولين للمتظاهرين، والمنظمين للتظاهرات، والمتآمرين الذين يتواصلون مع أشخاص مقيمين في الخارج بهدف دعمهم في التظاهرات، وأولئك الذين يشوهون صورة سورية في وسائل الإعلام الأجنبية وفي المنظمات الدولية).

جرى الحصول على تلك الوثيقة في سورية من لجنة العدالة والمساءلة الدولية (CIJA)، المنظمة التي يديرها مدعون عامون دوليون سابقون، وتتواصل مع مدنيين

سوريين يجمعون أدلة عن جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية بهدف تشكيل ملفات مخصصة لمحكمة جنائية مستقبلية.

بعد الإشعار السري لآب/ أغسطس 2011، تناقل الجيش أسماء مئات الأشخاص الواجب اعتقالهم. وكما تشير تلك الوثيقة الصادرة عام 2012، التي عثرت لجنة العدالة والمساءلة الدولية عليها أيضًا، إذ نجد على النسخة الأصلية[4] إشارات مرسومة إلى جانب خمسة من الأسماء الستة، وهي علامات بهدف القول أن هؤلاء الأشخاص الخمسة قد جرى اعتقالهم مسبقًا، أو قد ماتوا أو أنهم لم يعودوا في سورية. أما الثقبين الموجودين في الجانب الأيمن من الوثيقة فهما يدلان على أنه قد جرى الاحتفاظ بتلك الورقة في مستند.

برقية فورية

الفرقة الخامسة - مكتب الأمن

الرقم: xxx

التاريخ: xxx

إلى قائد اللواء: /12- 15- 112- 132- الفوج 175/

قائد الكتيبة: /56- 58- 59- 60- 127/

استنادًا إلى الكتاب رقم xxx بتاريخ xxx الصادر عن شعبة الاستخبارات- الفرع 265، والمصدق من المجموعة الأمنية في درعا ومشاهدة قائد الفيلق الأول..

يطلب إليكم: إدراج الأسماء الآتية ضمن لوائح المطلوبين وفي حال مشاهدتهم توقيفهم فورًا وسوقهم إلى الجهات الأمنية المختصة وهم:

---

(4) انظر الملحق

1. xxxx
2. xxxx
3. xxxx
4. xxxx
5. xxxx
6. xxxx

موقعة من قائد الفرقة الخامسة

ملاحظة:

-تحفظ نسخة لدى قائد اللواء ((الفوج))- الكتيبة ويمنع توزيعها أو تعميمها.

-يعمم أسماء المطلوبين من قائد اللواء (الفوج- الكتيبة) وذلك بصيغة مستخرج (لائحة بالمطلوبين) إلى قطعاته ووحداته المرؤوسة، ويمنع تداولها إلا من الضباط أصحاب العلاقة حصرًا على نقاط التفتيش.

تقسم أجهزة الاستخبارات، التي يسميها السوريون المخابرات، إلى أربعة شعب، وهي الأمن العسكري (الأكثر أهمية)، والأمن العام (استخبارات عامة) والأمن السياسي (المرتبط بوزارة الداخلية)، والأمن الجوي (الذي أسسه حافظ الأسد، الطيار الحربي الأسبق). وتقسم تلك الشعب، بدورها، إلى فروع مركزية في دمشق، وفروع مناطقية في المحافظات، ومحلية في المدن على امتداد البلاد. يحتوي كل فرع على مركز اعتقال أو أكثر، مختلفة الأحجام.

(أرخبيل من مراكز التعذيب)، كما وصفته منظمة حقوق الإنسان هيومان رايتس ووتش في تقريرها الصادر في شهر تموز/ يوليو 2013:

(أرخبيل التعذيب. اعتقالات اعتباطية، تعذيب واختفاء قسري في السجون السورية تحت الأرض منذ أيار/ مايو 2011[5]). دُعم تقرير المنظمة غير الحكومية تلك بشهادات وخرائط لتحديد أماكن مراكز الاعتقال، وبأشكال تخطيطية لإظهار اكتظاظ الزنزانات، وسمي المسؤولون عن شعب الاستخبارات.

على الأرض، يكره رؤساء الاستخبارات بعضهم، ففي بدايات آذار/ مارس 2015، قام الحراس الشخصيون لرفيق شحادة، رئيس الأمن العسكري، بإشباع رستم غزالة، رئيس الأمن السياسي، ضربًا، تعرض الاثنان بعدها للإقصاء الفوري من جانب بشار الأسد.

كان الضابطان يكرهان بعضهما منذ وقت طويل؛ بسبب المنافسة على السلطة وقصص تقاسم أرباح التهريب. وكان اللواء السني رستم غزالة قد أصبح شاهدًا حرجًا في التحقيق الدولي على اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق، رفيق الحريري، في بيروت عام 2005، الذي عزي إلى الاستخبارات السورية السرية. لم يتحمل غزالة الضرب المبرح الذي تعرض له وقتًا طويلًا؛ ومات بعدها بأسابيع عدّة.

كانت المنافسة بين فروع الاستخبارات تستعر حتى في منعطفات مراكز الاعتقال. خلال عامين من الاعتقال، بين آذار/ مارس 2012 وكانون الثاني/ يناير 2014، تنقّل منير أبو معاذ، المهندس، بين أربعة فروع تابعة لشعبتين أمنيتين، وأمضى ستة أشهر في سجن صيدنايا الرهيب، الواقع على ما يقرب من الثلاثين كيلو مترًا من دمشق، والمخصص للمعتقلين السياسيين وللإسلاميين، والذي يعدّ جديرًا بكونه وارث سجن تدمر[6].

---

(5) http://www.hrw.org/reports/2012/07/03/torture-archipelago.

(6) في آب/ أغسطس 2016، دانت منظمة العفو الدولية الجحيم اليومي في سجن صيدنايا بمستند تفاعل مذهل، ومن ثم بتقرير مرعب:

https://www.amnesty.org/en/latest/campaigns/2016/08/syria-torture-prisons

عامين من الاعتقال في عالم الزنزانات المرعب، اضطر خلالهما منير إلى أن يتكيف مع التبدلات في وحشية السجانيين التي تختلف بحسب مسؤوليهم الموجودين على رؤوس الأقسام الأمنية.

اعتقل منير أبو معاذ للمرة الأولى في 16 آذار/ مارس 2011، خلال أول أيام الثورة، من الأمن السياسي المسؤول عن مراقبة نشاط المعارضين. حاول مهندس المعلوماتية ذاك، بالتعاون مع بعض الناشطين، تنظيم اعتصام أمام وزارة الداخلية. أمضى منير أسبوعًا في زنزانة تابعة للأمن السياسي، ويقر بقوله: (لم أتعرض لكثير من التعذيب، ضُرِبت فقط، وعزلت في زنزانة. في تلك المرحلة، لم يكن فرعًا شديد القسوة).

اعتقل المهندس مرة ثانية في آذار/ مارس 2012، بينما كان على وشلك مغادرة البلاد لحضور مؤتمر للمعارضة في إسطنبول، لحظة عبوره للحدود السورية اللبنانية مع زوجته، إذ استجوبته الشرطة واستعدت لتحويله إلى مركز الاعتقال.

- سألت زوجته: (إلى أين تأخذونه؟).

- أكد الشرطي: سنأخذه يومًا أو ليومين ومن ثم سنطلقه).

- (يومان، نحن نعرف معنى ذلك، لن يعود). بكت زوجته.

- (هذا لا يخصك).

لم تلتق به مرة ثانية إلا بعد عامين، إذ لم تتمكن من التعرف إليه بعد فقده أربعة وعشرين كيلو. يبتسم الرجل في الصورة التي التقطت له عند خروجه، لكن كان من اللازم تفحص علامات وجهه لمحاولة معرفة أنه كان الشخص الذي روى لنا قصته في ربيع عام 2015.

أرسل منير، معصوب العينين ومقيد اليدين، إلى الفرع 215 للأمن العسكري، الواقع خلف فندق كارلتون في حي كفرسوسة في دمشق. يتألف ذلك المبنى من سبع أو ثماني طبقات، وقد كان مبنى قديمًا لشركة كهرباء. هناك، صودرت أغراضة وحاسبه وساعته وبطاقة هويته، ومن ثم خُلعت ملابسه وضُرب.

- سأله محقق: (ما الذي كنت تريد فعله في لبنان؟).

- (سياحة). صفعة وضربات على الوجه.
- (سياحة في هذا البرد؟ أنت رئيس تنسيقية. أعطونا ناس اسمك. أنت تنظم التظاهرات في البلاد).
- (هذا غير صحيح). صفعة أخرى.
- (أعطنا كلمة مرور حسابك في الفيسبوك والسكايب).

عندها حاول منير كسب الوقت ليسمح -بحسبما اتفق- لأحد صلاته في روسيا بتغيير كلمة سر تنسيقيتهم في حال لم يعطه أي أخبار خلال ساعات عدّة.

بقي أسبوعين في زنزانة مساحتها مترين مربعين مع ثلاثة معتقلين آخرين، وبعد جلسات تحقيق عدة، وصل أحد معذبيه وأراه حزمة أوراق طبعت عليها محادثات السكايب جميعها التي أجراها منذ أسابيع. حُوِّل بعدها إلى الفرع 291، الفرع (الإداري) للأمن العسكري.

جلسات استجواب جديدة تعني ضربات جديدة، كان على منير أن يبقى واقفًا، يداه مقيدتان خلف ظهره ومثني الركبتين، وعليه أن يدير وجهه إلى الحائط من دون أن يبدي أي حركة. كان يُضرب في كل مرة يقع فيها.

زنزانة جديدة، في هذه المرة كان عددهم يقارب مئة شخص محشورين داخل خمسين مترًا مربعًا. كان طعامهم الصباحي خبزًا وبعض حبات من الزيتون، وعند الظهيرة أرز وخبز، وحبة بندورة أو حساء في المساء. ثم بدأت كمية الطعام بالتقلص مع تفجر عدد المساجين، حاول منير التكلم مع السجانين، فتجرأ وقال: (يلزمنا مزيد من الطعام)، فأجابه الحارس: (ما تفعله قد يُعدّ تمردًا ضد الدولة).

- (إن كنت تريد الحديث عن القانون، فباستطاعتي القول أني موجود هنا منذ ثلاثة أشهر من دون أن يعرف أي أحد من أفراد عائلتي بمكاني، أنا معزول ولم أتمكن من الحديث مع محام. هذا مخالف للقانون.
- أنت هنا بطريقة قانونية.
- لا، هذا ليس قانونيًا، لا أعرف حتى ما هي تهمتي.
- لقد مدد القاضي مدّة احتجازك.

- أي قاضٍ؟ لم أر أي قاضيًا.
- إذا تابعت، فباستطاعتنا قتلكم جميعًا وطمركم في حفرة ومن ثم التأكيد بأن الإرهابيين هم من صفوكم. ولن يعرف أحد شيئًا).

في بدايات أيار/ مايو 2012، عاد جندي ثلاثيني العمر، متهم بمعرفته لهارب من الجندية، من جلسة تحقيق دامت يومين، لم يكن يقو على السير. حمله سجينان إلى الحمام حيث بال دمًا، يقول منير عنه متذكرًا: (كان جسده أسود اللون، ورائحته نتنة كما لو كان هناك عفن في داخله). طالب طبيب معتقل بمساعدته لكن نداءاته بقيت من دون جواب، وبعدها بيومين، طرق شاويش الزنزانة على الباب، وقال للحرس: (هنالك شخص لا يستطيع الحركة). فأجابه أحد السجانين: (عندما يموت، أحضره لي)، فأصر الشاويش: (إنه لا يتحرك على الإطلاق)، ففتح السجان الباب وأخذ الجسد.

بعد ثلاثة أشهر ونصف الشهر، أرسل منير إلى الفرع 216 للاستخبارات العسكرية (فرع الدوريات). هناك، أعيد استجوابه، حيث أخطره محقق: (لم تعترف بشيء في الفرع 215، لنبدأ مرة ثانية؛ يلزمنا شيء ما).

أدين منير من محكمة استثنائية، ونقل إلى سجن صيدنايا حيث قضى ستة أشهر قبل أن يُعاد تحويله إلى اللاستخبارات بسبب ورود اسمه في قضية أخرى متعلقة بناشطين سياسيين. في هذه المرة، تولى فرع الاستخبارات الجوية الرهيب أمره.

مزة، مستشفى الموت

جرى تجهيز جزء من أبنية الأمن الجوي في داخل مطار المزة العسكري، حيث وضع منير واثنا عشر معتقلًا آخرين، بلباسهم الداخلي فقط، في حجرة تقل مساحتها عن تسعة أمتار مربعة: لا مكان فيها للهواء، ولا وجود للأسرة، ويمر ضوء ضعيف من النافذة المغلقة، أما الطعام فكان فاسدًا، كان الموجودون جميعهم يعانون الزحار، وكان السجانون يفتحون الأبواب مرتين في اليوم للسماح للمساجين بالذهاب إلى الحمامات في نهاية الممر، إذ كانوا يتعرضون للضرب خلال عبورهم القصير له. يجب

الإسراع فلم يكن أمامهم، كلهم مع بعض، إلا دقائق قليلة، من دون مياه ومن دون أي شروط صحية، وكان من يتجاوز الوقت المخصص يتعرض للعقاب. كان كثير منهم يعود إلى الزنزانة وأقدامهم وسيقانهم ملطخة بالفضلات، وكانت حالات الزحار تتضاعف. في بعض الأحيان، يضطر المعتقلون إلى قضاء حاجاتهم في زاوية الزنزانة، وكان يشتمهم الحرس: (أنتم مثيرين للقرف)، إنهم متسخون، نعم، ولكنهم مريضون بشكلٍ خاص، كانوا يستخدمون زجاجة كمبولة بين أوقات الخروج، غاط منير في ثيابه مرتين، وفي مرة أخرى، لم يستطع رجل منع نفسه، وسال إسهاله تحت باب الزنزانة، (وأتى السجانون ليأمروا المعتقل بتنظيف ذلك بلسانه) بحسب رواية منير.

أدى الزحار إلى إضعاف منير، وقبل طبيب الفرع بإرساله إلى المستشفى. وفي أحد الأمسيات، ناداه سجان مع خمسة آخرين. وفي الممر، رُميَ عليهم كومة من الثياب يبدو أنها كانت تعود إلى معتقلين آخرين وحُشِروا في قاعة، (البسوا). التقط منير بنطالًا وقميصًا، كتب سجان رقمًا على شريط لاصق ووضعه على جبهته، (هذا رقمك في المشفلى، لا تعط اسمك هناك).

وصلت المجموعة الصغيرة من المرضى إلى مستشفى المزة العسكري، المستشفى 601، وجرى اقتيادهم إلى قسم الخدمات العلاجية الذي يفصله طريق عن القسم التقني حيث توجد (الكراجات- القبور) التي يصور فيها فريق قيصر الجثث المرقمة.

بقي منير ثلاثة أشهر في المستشفى، مربوطًا، الوقت معظمه بالسرير. في بعض الأحيان، كان شخصين أو ثلاثة يتقاسمون السرير ذاته. وكما كان الحال في سجون الفروع المختلفة، كان الذهاب والعودة من الحمامات محكومًا بقواعد وغير كافيًا؛ وفي الحالات الطارئة، كان أحد عناصر السخرة يعطي المريض كيس خبز، كان منير ينفخ الكيس ليتأكد أنه ليس مثقوبًا، ومن ثم يخفيه أسفل تخته. وكانت قطعة من الفراش تُستخدم كورق الحمام.

في كل صباح، حوالى الساعة السابعة أو الثامنة، كان أحد السخرة وعنصر يقومون بجولة في المهاجع، أما الطبيب فلم يكن يمر إلا كل ثلاثة أو أربعة أيام. كانت تحية الصباح المعتادة: (من مات؟)

في بعض الليالي، كان عناصر النظام يضربون مريضًا حتى الموت، حيث كان باستطاعة منير أن يلمح من وراء نوافذ غرفته غير الشفافة ظلالًا ويسمع الضوضاء وأصوات مختنقة. وعند الصباح، كان المساجين الراقدين في الأسرة يقولون: (كان هنالك حفلة إعدام). بعدها، أسر عامل السخرة لمنير بخوفه: (من الممكن أن يقتلوني لأني شاهد على الإعدامات في المستشفى).

في مرة أخرى، في داخل غرفة من ذلك المستشفى الكبير في دمشق، حضر مازن الحمادة، عامل السخرة في الاستخبارات الجوية الذي يريد تذكر ما يستطيع ليرويه في ما بعد، عمليتي إعدام، على الرغم من بقائه مدة أربعة أيام فقط في مستشفى المزة ذاك. بدأ ذلك الناشط بتبول الدم بعد وقت قصير من جلسات استجوابه، وآلمته كليتاه. وفي أحد الصباحات، بينما كان في زنزانة في المطار العسكري، أُخبِر بأنه سيذهب إلى المستشفى. حاله حال غيره، لم يكن يرتدي إلا لباسه الداخلي؛ فأعطاء سجان قميصًا داخليًا ملطخًا بالدم، حصل عليه من بين الملابس المأخوذة من المعتقلين عند وصولهم. عصبت عيناه وقيد وركب سيارة الإسعاف، ووصل المستشفى في غضون عشر دقائق. حالما نزل من العربة، بدأت ممرضات بضربه على ظهره بأحذيتهن، ناعتينه بالإرهابي. اقتيد إلى قبو المبنى، ووضع في القاعة المخصصة لمعتقلي الاستخبارات الجوية، وكان بجانبها القاعة المحجوزة لمعتقلي الاستخبارات العسكرية.

في غرفته، كان ما يقارب عشرين مريضًا يتشاركون عشرة أسرّة، جالسين إلى جانب بعضهم، وربطت أقدامهم إلى هياكل الأسرة المعدنية بوساطة سلاسل مصنوعة من الحديد أو النايلون. اخترقت الممرضة التي حاولت غرس إبرة في ذراع مازن لتزويده بمحلول سكري وريده. عند رؤيته للدم؛ صرخ المريض، ولكن الممرضة هددت بضربه. أخبره عامل سخرة آخر، أحمد، الذي يعمل في المستشفى وسيشاركه السرير، قائلًا: (لا تطلب شيئًا، ولا ترفع يدك أبدًا، لا تقل شيئًا). لم يفهم مازن ولم

يجرؤ على طرح الأسئلة؛ إذ يُمنع على المرضى التحدث في ما بينهم، ولكنه تذكر روايات من كان معه في الزنزانة التي كان بالكاد يسمعها: (يضربنا الممرضون في المستشفى).

هم يقتلون أيضًا. في الليل، فتح سجان باب الغرفة، كان ثملًا، وقال: :من يحتاج إلى أدوية؟) فأجابه صوت خافت: (أنا)، فاقترب منه السجان: (حكمت عليك المحكمة الإلهية بالموت)، ومن ثم نزع انبوبًا بلاستيكيًا موصولًا إلى وجهه، وضربه، أكثر من مرة، ومن ثم اختفى الصوت. بعدها، دار السجان إلى الآخرين: (اسمعوا أيها الكلاب، يسمونني عزرائيل[7]، مهمتي أخذ الأرواح، وسرقة أرواح أولئك الذين تصل حياتهم إلى النهاية).

رأى مازن عزرائيل ينسل إلى الغرفة مرتين، وبعد انتهائه من الضرب، كان عامل السخرة أحمد يفتح القفل المربوط إلى السلسلة، يمسك بقدم الميت، ويسقط جسده إلى الأرض ومن ثم يسحبه إلى المراحيض. ويروي لنا مازن اليوم: (أول مرة ذهبت فيها إلى المراحيض، تفاجأت بوجود ثلاثة أجساد نصفها مزرق، ومكومة فوق بعضها. كانت الرائحة شنيعة؛ لا بد أنها تُركت هناك أكثر من يوم). دفع مازن الباب وفتح الباب المجاور، كانت هنالك جثتان قد توفيتا لتوهما في ما يبدو. شرح له أحمد في ما بعد أن الموتى يُجمعون هناك، ريثما تُزال الجثث مرة كل يومين أو ثلاثة.

في اليوم الرابع، توسل مازن إلى الطبيب ليخرجه، وجاوب الأخير: (لكنك لم تشف). بلى، أنا أفضل حالًا، أريد العودة إلى الزنزانة، وترك مكان الموت هذا).

على بعد دقائق عدّة من هناك، في الحي السكني ذاته، كانت الحياة مستمرة، لا مبالية، وصماء وعمياء عما كان يجري في الجهة الأخرى من الجدار.

---

[7] ملاك الموت.

عالم آخر

في أحد صباحات شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2013، كانت القاعة الدرسية لثانوية شارل دوغول في دمشق مشمسة، ومن بين الطلاب كانت مراهقة تبتسم للكاميرا بخصل شعرها البني الطويل، وبلغة فرنسية تزينها لكنة ساحرة، أجابت على صحافي وكالة أ.ف.ب:

(في البداية كان من الصعب العمل نظرًا إلى الوضع خارج المدرسة، ولكننا اعتدنا على الأمر. في كل مرة نأتي فيها إلى المدرسة نشعر أننا في عالم آخر. ها نحن هنا نتعلم، ندرس. كلنا مع بعض، بحن بحالة جيدة).

منذ شهر آدار/ مارس 2012، ومع إغلاق نيكولا ساركوزي السفارة الفرنسية في سورية احتجاجًا على قمع النظام، غادرت المؤسسات الفرنسية كافة البلاد. في الثانوية والمدرسة الفرنسية، التي بُنيت في المزة، الحي الموجود أسفل القصر الرئاسي، يستمر المعلمون والمدرسون، الذين رفضوا ذلك القرار، باستقبال الطلاب الفرنسيين من أصل سوري أو الناطقين بالفرنسية من عائلات النظام أو المقربة منه. كانوا أكثر من 900 تلميذ (ابتدائي وإعدادي وثانوي) في أوقات السلم، ولكن عددهم 200 اليوم، ويرافق كثير منهم حراس شخصيين. يوجد في كثير من القاعات الدراسية علم النظام -بألوانه الثلاثة الأحمر والأبيض والأسود، ونجمتيه الخضراوتين- معلقًا على الجدار. تشغل مباني المدرسة الفرنسية الصغيرة البيضاء مساحة واسعة من أرض قديمة صحراوية مسوّرة، وتتصل ببعضها بوساطة مماش أو أفنية محمية من الشمس والحر، الجو فيها منعش وخفيف. يدير تلك المؤسسة تطوعًا أستاذ قديم ومتقاعد، قبل المعلمون خفض رواتبهم ليستمروا في إعطاء الدروس من دون دعم فرنسا.

عنوان ذلك (العالم الآخر)؟ ساحة المستشفى العسكري 601، المزة. حيث تطل آخر مباني المدرسة -إلى الشمال تحديدًا- على القسم الخلفي لمستشفى 601. ، على بعد خمسين مترًا إلى الجانب الآخر لجدار الحرم المدرسي الصغير، أُخرجت سيارات وشاحنات صغيرة من الهنغارات لخلق مكان للأجساد المقطعة والممزقة التي

تراكم حال وصولها من مراكز الاعتقال. هناك، كان مصورو الشرطة العسكرية يخزنون، يومًا بعد يوم، أرشيف الموت.

في 7 نيسان/ أبريل 2015، زار جيروم توسان -منظم الرحلات اللطيف- طاقم عمل المدرسة وتلاميذها. كان ذلك الرجل المجهول، صديق النظام السوري، قد نظم قبلها بشهر ونصف الشهر، زيارة أعضاء البرلمان الفرنسي الأربعة المثيرة للجدل إلى دمشق في 25 شباط/ فبراير، وهم: جاك ميار، عضو هيئة العلاقات الخارجية في الجمعية الوطنية الفرنسية عن (الاتحاد من أجل حركة شعبية)، والنائب عن الحزب الاشتراكي جيرار بابت، وجان بيير فيال عضو مجلس الشيوخ عن (الاتحاد من أجل حركة شعبية) ورئيس مجموعة الصداقة الفرنسية- السورية في مجلس الشيوخ، وعضو مجلس الشيوخ فرانسوا زوكيتو عن (اتحاد الديمقراطيين والمستقلين)، والعضو في مجموعة الصداقة الفرنسية- السورية أيضًا. تعرضت تلك الزيارة، الأولى من نوعها منذ قطع العلاقات الدبلوماسية، لإدانة شديدة من فرانسوا هولاند، وقابل ثلاثة من أولئك النواب الرئيس بشار الأسد.

في هذه المرة، كان جيروم توسان هنا بوصفه عضوًا في رابطة (النجدة لمسيحيي الشرق) **SOS Chrétiens d'Orient**، التي يدير اتصالاتها بصورة غير رسمية، إذ كان يقود مجموعة من ثلاثين حاجًا فرنسيًا على خطى أشقائهم السوريين في الحرب، حيث حضروا قداس عيد الفصح في دمشق، وزاروا قلعة الحصن في وسط البلاد ودير معلولا، ومروا أيضًا بثانوية شارل دوغول الفرنسية، كما فعل أعضاء البرلمان الفرنسي من قبلهم. تابع مراسلو برنامج (Complément d'enquête) على قناة France 2 تلك الرحلة.

لإتمام تلك الزيارة، وصلت تلك المجموعة، إذًا، إلى حي المزة، ودخلت إلى المدرسة من جهة الجنوب، من دون أن تمر بدوار ساحة مستشفى 601، وصعدت الدرج الحجري الذي يقود إلى المبنى، وأمام الحاجز الشبكي، توقف الدليل للحظة وشرح للصحافيين (عرض التقرير في 7 أيار/ مايو): (عندما قررت فرنسا قطع علاقاتها الدبلوماسية، غادرت كما غادرت الولايات المتحدة مدينة سايغون خلال حرب فيتنام. علينا التفكير في المستقبل، لن تبقى العلاقات على تلك الصورة خلال ثلاثين عامًا).

هل بإمكانه أن ينكر، ذلك الفرنسي الذي يعرف النظام وأحياء المدينة جيدًا، أنه في الطرف المقابل من الشارع يجري قتل، لا بل اغتيال الناس، داخل مستشفى يكفي اسمه لجعل السوريين يرتعشون، باسم ذلك النظام؟ ببساطة، هل التفت لمشاهدة ما يحوط به عندما جاء ليحضر تلك الزيارة إلى المدرسة؟

في أيلول/ سبتمبر 2013، عندما كانت الإدارات الغربية تتسائل حول فرصة توجيه ضربة ضد النظام بعد الهجوم الكيماوي في دمشق، صرح ناظر المدرسة، مشيرًا إلى عمليات القصف التي لا تبعد عن مركز العاصمة، إلى راديو Europe 1: (يوجد (هنا) قدرة على تحمل ما لا يحتمل عن قرب).

تشرين، المستشفى المحصن

أحمد الرز

هل أتى دوره؟ تفوح رائحة الموت من قدم أحمد، ومن كاحله المصاب بالإنتان رائحة العفن، كان مرض الأكال (غنغرينا) في حالة ترقب. في ظلمة الزنزانات، تدور شائعات عن المستشفيات؛ يجب تجنب الذهاب إليها؛ إذ لا يعود أغلب المرضى من هناك أحياء، حتى أولئك الذين لم يكونوا يحتضرون.

فكر أحمد في أصدقائه الثلاثة الذين ماتوا واحدًا بعد الآخر: أولهم علي، الذي أضعفه الإسهال الشديد، الرجل الذي كان قبل سجنه يتجول برشاقة في شوارع العاصمة جارًا وزنه البالغ مئة وخمسين كيلو، ويبلغ بالكاد خمسة وسبعين كيلو الآن. في 23 كانون الأول/ ديسمبر 2012، تسارع نبضه، وأخبر الشاويش السجان بذلك، الذي أرسله إلى مستشفى تشرين. عاد في اليوم التالي، كان ما يزال ضعيفًا، ولم يتلق هناك إلا محلولًا سكريًا، من دون أن يفحصه أي طبيب ولا حتى ممرض. تفاقمت حالته وحوّل مرة أخرى إلى المستشفى، لكنه لم يعد مجددًا. التالي كان مصطفى، الذي لم يسمح فمه المتورم إلا بتمرير نفس رفيع، كان من اللازم تبليل خبزه كي يتمكن من بلعه، هو أيضًا ذهب إلى المستشفى، وعاد منها سريعًا، لم يكن قادرًا

على الكلام ولا على الحركة، كان أصدقاؤه يحملونه إلى الحمام كي لا يقضي حاجته في ثيابه، كانو يغسلونه، ولكن رائحته أضحت غير محتملة، لم يرد أي أحد الجلوس إلى جانبه، وبدأت معدته المدمرة بإفراغ نفسها، من ثم تسارع تنفسه ومضى. وأخيرًا مروان، الذي ضعف حتى لم يعد قادرًا على إطعام نفسه، هو أيضًا كان شبه عاجز عن الحركة، وفي أحد الأيام انهار في الحمامات.

كحالهم، شارك أحمد الرز في الثورة بكل طاقة سنينه الخمس والعشرين، فقد كان يدرس المعلوماتية في دمشق في ربيع عام 2011، وبعدها بستة أشهر، أمام تضاعف الاعتقالات في صفوف الناشطين السلميين؛ حاول الأخيرون تنظيم أنفسهم، لينغمسوا في العمل السري، مكتشفين تشفير المعلومات. غادر أحمد إلى لبنان ليتدرب في منظمة غير حكومية أجنبية. هناك تعلم كيفية تأمين رسائله، وتنظيم تظاهرة، وحماية نفسه وعائلته. اعتقل في طريق عودته في 18 شباط/ فبراير 2012، وأرسل مباشرة إلى الفرع 215 للاستخبارات العسكرية. بعد سبعة أيام من التحقيق تحت التعذيب، وبعد أسبوع من عزله في الطبقة الرابعة أو الخامسة، بدأ في معرفة دواخل مركز الاعتقال: في القبو، إحدى عشرة زنزانة مواجهة لبعضها، من دون أي فتحة على الخارج، توجد من جهة الزنزانات (الخشبية) المرقمة من 1 إلى 7، ومن الجهة الأخرى الزنزانات (الحديدية) وأرقامها من 1 إلى 4. كان أحمد في الزنزانة الخشبية رقم 3[8] برفقة خمسين إلى ستين شخصًا. في الأرض، كان هنالك سجادة جيش من الصوف، بنية اللون ووسخة، غزاها القمل والصراصير. في الخارج كان الشتاء، أما في تلك الزنزانة فنختنق من الحر.

بعد سبعة أشهر من الاحتجاز في فروع عدة للاستخبارات، وبعد محاكمة صورية، استقر المطاف بأحمد، مع ما يقارب خمسين معتقلًا آخرين، في سجن صيدنايا، على بعد ما يقارب الثلاثين كيلو مترًا إلى الشمال من دمشق، والواقع في جبل على ارتفاع ألف وثلاثمئة متر. في باحة السجن، كان الاستقبال صادمًا: (تعروا كما لو كنتم قد خرجتم لتوكم من فرج أمهاتكم العاهرات)؛ حُشر أحمد مع دزينة من الرجال

[8] انظر الرسم التخطيطي في الملحق.

في مرحاض عرضه متر وطوله متر ونصف المتر. في وسط من البراز، كانت الأجساد ملتصقة ببعضها، وتركت حتى يوم الغد. لكن الأسوأ كان قادمًا: سوء الاختلاط وغياب النظافة والطعام الفاسد، بعد مضي سنة في ذلك السجن الجبلي، ها هو أحمد وقد التهمه القمل، جلد على عظم، وألم حارق في القدم منهك من حر الصيف، بدأ يرى الموت يقترب منه. (أحمد الرز؛ ستذهب إلى المستشفى!) كتبت على جبهته أربعة أرقام بوساطة قلم، وكما حصل مع منير أبو معاذ، أمره شخص: (هناك، لا تعط اسمك، فقط رقمك). لا يتذكر أحمد ذلك الرقم اليوم. ستنقله سيارة (فان) إلى مستشفى تشرين العسكري، شمال غرب العاصمة، تشرين هو المستشفى الثاني بعد مستشفى المزة.

يحتوي المستشفى على عشرات الأبنية في مساحة تقدر باثني عشر هكتارًا، ويتألف المبنى الرئيس من أكثر من سبعة طبقات، ويمتد على طول مئتي متر، وكان بشار الأسد قد مارس طب العيون فيه قبل أن يصبح رئيسًا. قبل الثورة، كان الأطباء يعالجون عساكر ومدنيين. لكن منذ هجمة الجيش السوري الحر أواخر عام 2011، تحول مستشفى تشرين إلى معسكر صريح، فالدبابات على الأرض والفناصون على الأسطح.

كانت الغرفة التي وصل إليها أحمد موجودة في مبنى صغير، وبجانبها غرفة مخصصة للمرضى القادمين من مراكز الاعتقال. لم يكن هناك للناس القادمين من صيدنايا، كأحمد، أسرة، ولا مراحيض، حتى أن الطعام كان يلقى على الأرض. كان في الصالة، من بين آخرين من المرضى، رجل ثلاثيني العمر، هزيل الجسد، سأله أحمد: (من أين أنت؟)

- من عدرا، تنهد الرجل.
- كيف الوضع هناك؟ الطعام؟
- باستطاعتنا الأكل، قليلًا.
- في صيدنايا، نحن جائعون، جائعون بشدة.

كان المعتقل يشتكي من آلام في المعدة، وأصبح خريره التنفسي أعلى صوتًا، (أخرجوه إلى الممر)، أمر السجان، فنفذ أحمد، ومدّده على الأرض أمام الباب. في اليوم التالي، رآه أحمد في المكان نفسه، غرست محقنة في ساعده، كان ميتًا. (احملوا هذا الكلب إلى الخارج).

بمساعدة مريض آخر، نقله أحمد إلى باحة المستشفى، وبسحنة بدا عليها القرف الصريح، كتب السجان رقمًا على الجثة، وصورها ومن ثم طلب منهم وضعها في كيس شفاف. قاك السجان، خلال فترة بعد الظهر، بترقيم وتصوير خمسة أجساد أخرى وضعها أحمد في أكياس، ومن ثم في شاحنة صغيرة.

توقف مصورو الشرطة العسكرية، كقيصر، منذ أشهر عدّة -لأسباب تتعلق بأمن الطرقات- عن الذهاب إلى مستشفى تشرين. وتحمل السجانون، بمساعدة المرضى أنفسهم، روتين ترقيم الجثث، وتصويرها ووضعها في أكياس، ثم شاحنة صغيرة ووجهة غير معلومة.

أعيد إرسال أحمد إلى صيدنايا في اليوم التالي، من دون تلقي العلاج. بعدها بثلاثة أشهر، ساءت حالته، ووجب عليه العودة إلى تشرين، المبنى نفسه والغرفة ذاتها، على الأرض رجل يطلب الماء. كتلة عديمة الاسم، جامدة، من دون نفس أو بالكاد، طلب السجان وضعه في الممر. في الصباح، كان ميتًا، هو أيضًا، حقنت ذراعه إبرة. في ذلك اليوم، وضع أحمد، الطالب الأسبق، عشرات الأجساد في أكياس، ومن ثم حملها إلى الشاحنة.

سادسًا: بين نارين

قيصر

(كنت أحمل الصور أكثر من مرة في الأسبوع إلى سامي، كنت أنسخها على قرص تخزين USB كان قد زودني به، عندما أكون بمفردي في المكتب برفقة خوفي الدائم من أن يدخل أحدهم ويراني. قبل مغادرتي، كنت أخفي القرص في في كعب حذائي أو في حزامي. في طريقي إلى البيت، كان على أن أعبر أربعة أو خمسة حواجز لجيش النظام. كنت أخاف كثيرًا، لم أكن أعرف ما الذي قد يحصل لي؛ فقد يرغب الجنود في تفتيشي، على الرغم من امتلاكي لبطاقة عسكرية. خلال سنتين، كنت عالقًا بين نارين؛ كنت أخاف أن أتعرض للاعتقال من الثوار لأني كنت أعمل للنظام، وأن يأخذني النظام لأني كنت أجمع أدلة على التعذيب. كنت أخاطر بالموت من كل طرف، وعائلتي أيضًا.

توتر الوضع في دمشق في بداية عام 2013، كان مجمعنا العسكري نصف محاصر من الجيش السوري الحر، هو مجمع واسع جدًا يحتوي على الشرطة العسكرية والقوات الخاصة وجزء من الحرس الرئاسي إضافة إلى الأكاديمية العسكرية. سيطر الثوار على حي برزة في الشمال وحي تشرين في الشرق، ووضعوا قناصين على أسطح المباني العالية لحي برزة وكانوا يطلقون النار علينا. لم يكن عرض الشارع الذي يفصل مجمعنا عن حي تشرين أربعة أمتار. دام نصف الحصار ذاك ستة أشهر تقريبًا، بدءًا من بداية 2013. في أحد الصباحات، كان على الذهاب إلى مكتب آخر، وبينما كنت أمشي، أطلق قناص النار، لا أعرف إن كان من طرف الثوار أو الجيش، وجاء العيار على بعد متر مني. كنا في مكتبنا، كما في المكاتب الأخرى، عند هبوط الليل، ابتداء من الساعة السابعة مساء، نتجنب إشعال الأنوار كي لا نستهدف.

قبل الحرب، كنا ندخل إلى المجمع عبر الباب الرئيس المطل على الطريق المحاذي لبرزة، وعندما سيطر الثوار على الحي كان علينا تغيير الطريق، لندخل عبر ممر جانبي كان سريًا ومحظورًا من قبل لمروره من المنطقة العسكرية بأكملها.

أدت المواجهات إلى قطع كثير من الطرقات، على سبيل المثال، لم يعد بإمكان الموظفين العاملين في مستشفى تشرين القادمين من وسط دمشق سلوك الطريق المعتادة، بل كان عليهم أن يلفوا ويدوروا حول طريق جبلي في قمة قاسيون، حيث وضع النظام حواجز. أضحى طريقهم يستغرق ساعة أو ساعة ونصف الساعة بدلًا من عشر دقائق، وأصبح العمل في مستشفى تشرين محفوفًا بالخطر؛ فقد استهدف الثوار المستشفى أكثر من مرة بقذائف الهاون.

حتى نحن، لم يعد بإمكاننا الذهاب إلى هناك لتصوير الجثث بسبب الأحوال الأمنية على الطرقات، ونظرًا إلى زيادة عدد الجثث؛ أرسل كثير منها إلى مستشفى المزة؛ لأن مرآب السيارات هناك كبير ويقع في منطقة يسيطر عليها النظام سيطرة كاملة.

كان أخطر ما واجهته خلال سنتين هو طريق الذهاب والعودة من العمل. في أحد الأيام، تركت بيتي حوالى الساعة السادسة صباحًا، كنت في الميكرو باص الذي نطلق عليه اسم (سرفيس)، توقف السائق بسبب وجود إطلاق نار على الطريق، لم يكن يريد المتابعة، ولكننا كنا أربعة عشر شخصًا في الحافلة، من بينهم كثير من الموظفين. كان أرباب عملنا، مدنيين أكانوا أم عسكريين، يجبروننا على المجيء إلى العمل بغض النظر عما كان يجري على الطرقات؛ فقلنا للسائق: (سندفع لك ضعف التعرفة في حال أوصلتنا إلى وسط دمشق). تردد قليلًا، ومن ثم قبل تحت إغراء السعر، اتخذ طريقًا مختلفًا يمر عبر الجبل، ولكننا وقعنا على حاجز للجيش السوري الحر هناك. لم نكن نتوقع حدوث ذلك؛ إذ لم يبعد حاجزهم إلا مسافة سبعمئة متر عن حاجز الجيش النظامي. كانت الطرق المؤدية إلى دمشق جميعها تتعرض لتفتيش دقيق: من فتح صناديق السيارات الخلفية وحقائب النساء، إلى فحص الباصات. وفي النهاية، قبل أن أهرب من البلاد خلال صيف 2013، عُيِّنت نساء على الحواجز

ليقمن بالتفتيش الكامل للنساء المارات، أراد النظام منع سكان الأرياف والمدن المجاورة من الوصول إلى مركز العاصمة.

خلال الأشهر الأولى من الثورة، وقبل أن تُزرع الكراهية، كنت أسمع أن الثوار وجنود النظام كانوا يتبادلون الشاي أو المتة أو السكر، لم يكن لدى ثوار الجيش الحر أي كره أو حقد تجاه عناصر النظام؛ فقد كانوا بالنسبة إليهم مهانين ومجبرين على الطاعة، ولكن عندما زادت المجازر بحق المدنيين من الجيش النظامي، لم يعد الثوار قادرين على إيجاد الأعذار لهم، وغدت مواصلة الثورة مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى الطرفين.

في صباح أحد الأيام، على حاجز للجيش السوري الحر، كانوا أربعة رجال مرتدين سترًا تحتوي جيوبًا عدة، مغطين وجوههم بوساطة قبعات لا تكشف إلا العيون. نظر أحدهم عبر الزجاج؛ فابيض لوني من كثرة خوفي أن يطلب منا بطاقات الهوية، إذ لم يكن بحوزتي إلا هويتي العسكرية. لم أكن أعرف الامرأة التي كانت جالسة بقربي، ولكني بدأت بالحديث معها كما لو كنا زوجين؛ اعتقادًا مني أنه لن يجرؤ على مخاطبتي بتلك الطريقة.

- سأل الرجل السائق: (من أين أنت؟)، (هل معك جنود أو استخبارات في السيارة)؟
- لا أعرف.
- حسنًا، اذهب، تقدم.

في مرة أخرى، كان هناك حاجز للمعارضة على مدخل مدينتي، كنت عائدًا إلى منزلي عندما أوقف أحد الثوار سيارتي وتحقق آخر من بطاقة هويتي. كنت أعرف ذلك الشخص، فقد كان بناء وقام ببعض الأعمال في بيتي، كانت تربطنا علاقة حسنة، وكان يعلم أني أعمل مع النظام. لم يقل لي أي شيء على الحاجز، بل كان لطيفًا جدًا وتركني أمر. لقد كان الأمر غريبًا ومثيرًا للشك أن يكون بذلك اللطف، قلت لنفسي: (هذا يُخفي شيئًا ما). وصلت إلى بيتي، كنت شديد التوتر، وبدأت أدور في

الصالون خلال ثلاثين دقيقة ومن ثم عدت لأراه، كان يجب أن أعرف ما الذي كان يخفيه في رأسه. أخذته جانبًا وسألته: (لماذا تركتني أمر؟)

- لأني أعرفك، ولكن يجب أن تترك النظام.
- من الصعب الانشقاق؛ بوجود والديّ وإخوتي وأخواتي، سيكون الأمر بمنزلة عمل انتحاري إن تركت الجيش قبل أن أضعهم في مأمن.
- نعم، ولكن انتبه إلى نفسك؛ المرة المقبلة قد تمر على شخص أقل تفهمًا.

قرر سامي أن يستخرج لي بطاقة هوية مدنية كي أستطيع إبرازها على حواجز الثوار؛ إذ يسيطر الجيش السوري الحر على جزء من الحي الذي كنت أسكن فيه. في يوم اثنين، علمنا أن النظام سيقدم على محاصرته، هرب معظم السكان تقريبًا، وبقينا أنا وعائلتي.

يدمّر جنود بشار الأسد المنازل عند اختراقهم مدينة أو حيًا ما، لم أكن أريد ترك منزلنا؛ فقد ادخر والديَّ كثيرًا خلال سنوات ليستطيعوا شراءه. كان الحي مقفرًا، مظلمًا، مثيرًا للرعب، ولم يبق فيه إلا المسنون أو العائلات التي لم تعرف أين تلجأ، انقطع الماء والكهرباء، ولم يبق إلا ضجيج قذائف الهاون.

بعد ثلاثة أيام، جاء قريب لي ليراني، ودفعني إلى ترك الحي: (إن رآك الجيش، فسيظنك انشققت لأنك موجود في حي تدافع عنه المعارضة. وإذا وجدك الثوار، سيأخذونك لأنك تعمل مع النظام). وضعنا بعض الأشياء في أكياس حملها إخوتي الصغار على رؤوسهم كما لو أنها ستحميهم من قذائف الهاون، كانوا يبكون. بعدها، أتت شاحنة فرشت صندوقها أغطية، صعدنا في الصندوق وغادرنا. كان الأمر شبيهًا بفيلم، مع الشظايا التي تتساقط كلها من اليمين واليسار. عند مخرج الحي، كان هناك حاجز من الجيش النظامي ليمنع الناس من المغادرة، نزلت من الشاحنة وأخذت الجندي على انفراد كي لا يسمعنا السائق.

- أنا زميل لك.
- ولماذا أنت في الداخل إذًا؟
- أتيت لآخذ والديّ.

ومن ثم أبرزت له بطاقتي العسكرية.

عدنا بعد انتهاء حصار الحي، كان منزلنا قد تعرض للتدمير والنهب، وأقسى ما خسرناه كان ذكرياتنا وصورنا. فقدنا كذلك كثيرًا من الأشياء في المنزل، الأواني فرنسية الصنع مع صحون عاجية اللون ذات نوعية جيدة، خلاط المولينكس، وغسالة آلية اشتريناها دَينًا، وقد استغرق سداد ثمنها البالغ 25.000 ليرة سورية مدة سنتين. كان والدي قد اشتريا كل شيء بالدين، غرفة النوم وأثاث المطبخ، كانت أمي تحب المطبخ، كان فيه بعض الأدوات التي لم نكن قد استخدمناها من قبل، ولكن سامي قد احتفظ بالقرص الصلب مع نسخ الصور كلها).

الإخفاء وسط القمامة

كان سامي يمرر باستمرار مفاتيح التخزين USB إلى قيصر، كانت سعتها في البدء 4 أو 8 غيغا، ومن ثم 16 غيغا. أحيانًا كان المصور يخشى من (نسيانه) لصور، لذلك كان ينسخ مجموع صور الشهر على قرص مدمج CD، معرضًا نفسه لخطر إضافي بذلك. أما سامي، فقد كان يحول كل شيء إلى جهازين، أولًا على القرص الصلب لكمبيوتره في منزله، حيث كان يدخل الصور في ملفات بأسماء عديمة المعنى تحسبًا لوقوعها في أيدي أحد عناصر النظام، ومن ثم على قرص صلب خارجي. كانت دقائق طويلة ضرورية وأساسية: الصور الأصلية هي الوحيدة التي ستزود ببيانات وصفية مع التاريخ، ونوع الكاميرا وأدلة عن التقاط الصور ودقة عالية كي تمكّن من تحليل الإصابات وإصدار فرضية عن أسباب الموت.

ولنكون متأكدين من عدم ضياع أي شيء، كانت الصور ترسل مبكرًا إلى الخارج عبر الإنترنت، بدقة منخفضة هذه المرة، أي بحجم أقل. ولكن كان إرسالها يجري بطريقة عشوائية أحيانًا لأسباب عدّة كانقطاع التيار الكهربائي وسوء الاتصال وتشفير البيانات.

عندما هاجم النظام مدينتهم، أخرج سامي زوجته وأطفاله ليضعهم في مأمن، ثم عاد ليجتمع مع أحد أفضل أصدقائه، ومستودع أسراره منذ بداية الثورة، الذي كان مطلوبًا لتحميله فيديوهات لمتظاهرين على الإنترنت، ولم ينجح في مغادرة الحي المحاصر. أخذ الرجلان الكمبيوتر والقرص الصلب ووضعاهما في كيس، وخبآهما تحت كومة من النفايات. لم يكن هناك أي مخاطرة في عبور حاجز الجيش النظامي مع ذلك الكيس؛ كانا يعرفان جيدًا أن الجنود لن يفتشوا كيسًا لا يوجد فيه شيء للسرقة.

يبتسم اليوم سامي ويقول: (بسبب الاستعجال؛ وضعنا كل بيضاتنا في سلة واحدة).

عندما زادت كثافة قذائف الهاون، وبدأ أول الجنود باختراق الشوارع، غادر الصديقان للاختباء في منزل مجاور، إذ صعدا إلى داخل سقف اصطناعي في المطبخ وأمضيا هناك ثلاثة أيام وثلاث ليال من القلق. فكر سامي بعائلته وبوالده، بالأرانب التي كان يربيها على سطح منزله. كانا يحاولان مراقبة ما يجري عبر فتحة خشبية، (رأينا عساكر أجبروا شابًا على القول: لا إله إلا بشار، ومن ثم قتله واحد منهم. كنا خائفين من أن نموت بتلك الطريقة، لم نكن خائفين من الموت بحد ذاته، وإنما من الموت بتلك الطريقة، نعم).

البقاء على قيد الحياة، والعيش

وفاء وصادق

الموت، نجت منه وفاء، الأمر الذي يجعلها تشعر بالذنب. إضافة إلى أنها عانت أقل من الآخرين، ولم تتعرض للتعذيب ولا للاغتصاب، ولكنها تبكي. اليوم، هي لاجئة في تركيا، وتروي قصتها للمرة الأولى. قبل ثلاثة أيام، كانت هذه السيدة العاملة في مدرسة ما تزال في سورية، حيث كانت محكومة بالصمت. توفي زوجها في المعتقل، وما تزال عائلته تعيش في منطقة خاضعة للنظام، لذلك فإن أفرادها عرضة

للاعتقال في أي لحظة. وللإدلاء بشهادتها، اختارت اسم وفاء، ولزوجها اختارت اسم صادق، معتمدة على معنى الاسمين في اختيارها.

(الداخل مفقود والخارج مولود)، قد تصلح تلك العبارة لتكون مثلًا، أو قولًا أو نبوءة سورية. وكغيرها من الشهود، ذكرت وفاء تلك العبارة أكثر من مرة لتُفهمنا الوضع النفسي للسوريين. (عندما يتعرض شخص ما للاعتقال، لا نعرف أبدًا متى سيطلق سراحه. وعند خروجه من المعتقل، هذا إن خرج، فكأنه يولد للمرة الثانية؛ إذ تكون عائلته والمجتمع قد تغيرا كثيرًا منذ اعتقاله).

في سورية حافظ الأسد، اختفى ما يزيد على الـ17.000 معتقل بين نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي، وتقدر الشبكة السورية لحقوق الإنسان عدد المعتقلين منذ بداية الثورة بـ117.000 معتقل، من دون أن تعرف عائلات نصفهم أي شيء عنهم.

زادت الشبكة السورية لحقوق الإنسان، في تقريرها الصادر في آب/ أغسطس 2015، ذلك الرقم بـ215.000 معتقل، استنادًا إلى معطيات منظمات محلية أخرى.

اعتقل وفاء وصادق في الوقت نفسه في أيار/ مايو 2013، كانا يتوقعان حدوث ذلك الأمر منذ وقت طويل، وجهزا حقيبة سفر تحسبًا لسفر مستعجل. في المنزل، كان الزوجان، من دون أطفال، يشاهدان القنوات الأجنبية كالجزيرة والعربية. وعندما كانا يغادران منزلهما، كالنا يغيران القناة تحسبًا لمجيء عنصر استخبارات ليتحقق إن كانا يحصلان على معلوماتهما من تلك القنوات الإعلامية التي (تشوه صورة بلادهم).

هو، كان موظفًا، يحب الحديث عن الحرية وعن السلميّة، ولطالما حذر الشباب من رغبتهم في حمل السلاح لأي دافع، سواء أكان (احترام النفس) أم (عدم الوعي) أم (الوقوع تحت التأثير). وتتذكر وفاء اليوم زوجها وتقول: (كان يرفض التعبير بالطريقة التي أرادها النظام، أي بإعطاء الأولوية للدين، وبالتأكيد أنها ثورة طائفية يقودها ناس سنة يريدون نهاية العلويين).

في صباح يوم اعتقالهما، كان الزوجان ينتظران صديقًا في الشارع لزيارة شقة جديدة؛ لاعتقادهما بسذاجة فكرة أن تغيير السكن سيحميهما. وصلت دورية الشرطة

العسكرية وأمرتهما بالصعود إلى السيارة من دون أن تكلف نفسها عناء التحقق من بطاقتي هويتهما، كان من الواضح أنهم كانوا يعرفونهما. اقتيد وفاء وصادق إلى أحد فروع الاستخبارات العسكرية، وخلال الطريق، ضُرب صادق أكثر من مرة على وجهه، وصادر العناصر كمبيوترهما وهاتفهما المحمول، وحاولوا أن يأخذوا نقودهما والمجوهرات الذهبية التي كان من الممكن لوفاء أن ترتديها.

في مكتب المحققين، جلست وفاء وصادق إلى جانب بعضهما، دخل أحد الضباط وسأل، (من هما؟)

- فلان وفلانة، أجاب زميل له.
- لماذا أخذت الامرأة؟ لا نريدها؛ أعد لها بطاقة هويتها ودعها تغادر.
- قد نحتاج إليها هنا.
- لا، دعها تغادر.
- يا لطيف، ما أطيب قلبك.

اقترب منه المحقق وهمس له كلمتين في أذنه. غادر المسؤول وبقيت وفاء.

بعد بعض الأسئلة، انتظر الزوجان واقفين ساعات عدّة في الممر، منع عليهما التحدث أو النظر إلى بعضهما، ومن ثم نودي على صادق في المكتب. خرج بعدها معصوب العينين، بالي الثوب من دون ربطة عنقه، وخرجت نهاية قميصه من بنطاله. كانت تلك المرة الأخيرة التي رأت فيها وفاء زوجها.

نودي مرة أخرى على وفاء هي أيضًا، أمام المحقق. (طلب مني أن أنزع ثيابي، أصابني ذلك بالجمود. لم يكن أحد قد رآني عارية إلا زوجي والآن علي أن أفعل ذلك أمام غريب. ظننت أنه سيغتصبني، لكنه أراد تفتيشي فحسب. لم أستطع أن أبد أي حركة، ولم أنجح حتى في غلق أزرار معطفي، كما لو أن يديي قد تعرضتا للتخدير). أعطاها المحققون الرقم 24 وأرسلوها إلى الزنزانة الأولى ذات الحر الشديد، كانت المرأتان الشاغلتان لتلك الزنزانة مضطرتان إلى ثني جسديهما كي تستطيعا التمدد قليلًا في الليل. في اليوم التالي، أخذوها إلى الطابق السابع، إلى حجرة مساحتها

أربعة أمتار مربعة من دون نافذة أو سرير، كان فيها سبعة نساء. في الأرض، كانت هناك أغطية رقيقة متسخة ومليئة بالصراصير.

معتقلة عمرها ثلاث سنوات

بين النساء، كانت رشا. رشا الصغيرة، عمرها ثلاث سنوات، وكانت تحمل الرقم 8، وعند رؤيتها صعقت وفاء وصرخت: (ما الذي فعَلتْه؟ أتحسبوننا في عداد الأموات مسبقًا؟). كانت الطفلة مع والدتها. خلال النهار، كانت النساء يلعبن معها، مؤديات لأدوار الطبخ والبيع، وجائبات بخطى قصيرة في المساحة التي بقيت فارغة من الزنزانة. كانت رشا تسأل باستمرار: (من سيهتم بعصفوري؟ تظنين أنه ميت الآن؟) وفي أحد الأيام، بعد الظهر، مدت البنت الصغيرة رأسها عبر النافذة الصغيرة الموجودة في الباب، وقامت بعمل إشارة النصر (V) بأصابعها الصغيرة، وقالت بلهجتها الطفولية: (حليّة) بدلًا من (حرية).

تأثر أحد السجانين، وكان درزيًا (جماعة أقلية في البلاد)؛ فمرر بالسر أحد قمصان سجين في الزنزانة المقابلة، وأعطى مقصًا وإبرة لوفاء.

في ذلك الصباح الربيعي في إسطنبول، أخرجت وفاء من حقيبة يدها، بدموعها الممزوجة بالفرح والألم، جيبًا بلاستيكيًا في داخله طُوي قميص بشواطات. أخرجت ذلك القميص، وبرقة متناهية، مررت يدها على قطعة القماش تلك لإزالة تجاعيدها. (لقد خطته لها كي تستطيع أن ترتديه عندما كنا نغسل ملابسها، وصنعت لها أيضًا شورتًا (بنطالًا قصيرًا)).

بعد ذلك بوقت طويل، بعد إطلاق سراحها، عندما شاهدت صور قيصر منشورة على مواقع الإنترنت، تعرفت إلى ذلك السجان وشاربه الثخين. كان يُدعى أ.ز. (كان الحارس الوحيد الصادق معنا، بينما كان الآخرون يهددوني: انتبهي، سننزلك). علمت وفاء عندها بسرعة أن زنزانتها كانت (فندقًا) مقارنةً بزنزانات الأقبية؛ بوجبتين في اليوم وأحيانًا الفواكة الطازجة، (كنا مدللات، كنا نعطى فوطًا صحية في الوقت

الذي قيل لي إنه في الزنزانات الأخرى كانت البنات تستخدمن قطع قماش كنّ يغسلنها ويعدن استخدامها وهي مبللة).

هنا، في الطبقة السابعة، تستخدم السجينات كلهن صابونة صغيرة، كانت وفاء تحاول المحافظة على حد أدنى من النظافة كي لا تمرض، تغسل ثيابها الوحيدة التي ترتديها، وتعاود ارتداءها مبللة. في الليل، كانت النساء الثمانية مضطرات إلى وضع سيقانهن على الجدار بشكل عمودي لخلق مساحة كافية للتمدد على ظهورهن.

في الزنزانة المقابلة، كان هنالك رجل قابع في السجن منذ عشرين عامًا، وآخر ينتظر منذ خمس سنوات، وعنهما تقول وفاء بغضب: (كانا في السجن هناك من دون محاكمة، من الواضح أنهما كانا متعلّمين، ولم يكونا مجرمين؛ وإلّا لم يكن السجانون يجرؤون على النوم في الممر بالقرب منهما). أحيانًا، كانت أبواب تلك الزنزانات تبقى مفتوحة، حتى أن جلسات استجوابها لم تكن تتشابه مع فكرة وجود عند الاستخبارات. يفزع التعذيب كثيرًا من السوريين أكثر من الموت، ووفاء، لم تتعرض للضرب، وإنما للشتائم فحسب. بعد أسابيع عدّة، أصبح المرور في مكاتب المحققين شبه (رمزي)، إذ تتكرر الأسئلة ذاتها من دون انتظار أي جواب: (هل تنتمين إلى منظمة إنسانية؟)، (زوجك إرهابي نظم هجمات بسيارات مفخخة).

كانت العاملة القديمة في المدرسة تشعر أن شيئًا ما قد حدث في الوقت الذي كان فيه زوجها قد مات مسبقًا، ولم يعد باستطاعتهم الضغط عليها لسحب الاعترافات منها، كل ما كان يبغيه عناصر الاستخبارات هو المحافظة عليها (كاملة) بهدف ابتزاز أهلها ماديًا، أو بهدف مبادلتها. وفي حالتها، سيحصل الأمران معًا.

درع بشري

في الخارج، تجاوز القمع الحد. ففي 21 آب/ أغسطس، وخلال صباح ذلك اليوم الصيفي من عام 2013، قتلت هجمة بغاز السارين أكثر من 1.500 مدني في سهول الغوطة سريعًا، فقد كانت تلك الضاحية الزراعية في دمشق، التي يسيطر عليها

الثوار، محاصرة من الجيش منذ خمسة أشهر. لم يكن هناك أدنى مجال للشك؛ فالنظام وحده يمتلك صواريخ مدفعية قادرة على استخدام ذلك العنصر الكيماوي. نشطت أجهزة الاستخبارات الفرنسية، وهاج نواب البرلمان الأوروبي؛ فقد كانت 28 هجمة، في المكان نفسه خلال فصل الربيع، أدت إلى موت ما لا يقل عن 73 مدنيًا، وفي هذه المرة، لم يترك عدد الضحايا أمام الغربيين فرصة الهرب. عملت فرنسا والولايات المتحدة مع بعضهما، إذ كان باراك أوباما قد هدد بالتدخل في سورية إن تجاوز النظام الخط الأحمر الكيماوي، وبدأت معالم ضربة وشيكة لمراكز القيادة السوزرية بالاتضاح، ولكن بدأت العواصم الغربية بعدها بالمماطلة، فبين (عقاب) و(تصويت) و(انتظار أدلة)، انسحبت الولايات المتحدة ورفضت توجيه ضربة.

بدأت التحضيرات في مراكز اعتقال العاصمة السورية للعقوبات؛ إذ ترك الضباط المباني. بجانب زنزانتها، سمعت وفاء سجانين يتهامسان: (إن وجهت الضربات، هل يجب علينا قتلهم؟) كان باب الطبقة مغلقًا من الخارج، يبدو أن الرجلين كليهما كانا قلقين، وقد احتفظا بهاتفيهما على الرغم من المنع المعتاد من حمل الهواتف الجوالة في أثناء العمل. لقد كانا مذعورين لكونهما من دون سلاح، إذ زوّدا بعصي بسيطة.

لقد سادت العجلة في كل مكان. خرج مازن الحمادة، الناشط الذي أصبح سخرة في مطار المزة العسكري، من الزنزانة مع مئات المساجين الآخرين. كانوا محوطين بما يقرب أربعين عسكريًا مسلحًا، واقتيدوا إلى نهاية مدرجات المطار. مشى ضابط هارب من الخدمة، وسجين مثله، إلى جانبه، واندهش العالم بأمور الجيش لدى رؤيته الهنغارات تفرّغ من طائراتها، وجرى تشييد أبواب جديدة في مدخل الأبنية، يقول مازن اليوم: (وُضعنا في الهنغارات لنكون دروعًا بشرية).

لم توجه ضربات، واستعاد الروتين المعمول به أركانه. وفاء نزلت بعد شهر من ذلك إلى مكتب المحققين الذين وعدوها:

- (سوف تعودين إلى منزلك.
- ماذا فعلتم بزوجي؟

- حُوِّل إلى القضاء.
- لماذا لم أعرض على قاض؟ ما الذي ستفعلونه بي؟ أريد بطاقة هويتي، كمبيوتري، أريد مفتاح بيتي).

كانت تريد استعادة حاجاتها، فطلبوا منها نقودًا. رفضت، وجرت مبادلتها. أمروها أن تصعد إلى سيارة كان فيها اثنين من الشبيحة وأحد عناصر ميليشيات النظام، موشومي الجسد وحليقي الرأس، وكانوا يحملون قنابل رمانة في أيديهم. استخدمت وفاء نقود مبادلة مع عساكر محتجزين لدى الثوار. ولدى عودتها إلى منزلها، أخبرتها عائلتها أن أحد أبناء أشقائها -الأكثر قربًا من زوجها- قد اختفى بدوره. هو الذي استطاع مقابل بقشيش أعطاه لعناصر من النظام، أن يعرف مكان احتجاز الزوجين منذ الساعات الأولى لاعتقالهما، مقابل بضعة عشرات من آلاف الليرات السورية الإضافية، استطاع جعل وفاء تتصل هاتفيًا بشقيقها. كان ذلك معروفًا نادر الحدوث، قام به فرد آخر من أفراد العائلة، يعمل لدى النظام، وغطى ذلك اللقاء الهاتفي: (نريد منك أن تطمئني عائلتك). على الجهاز، لم تجرؤ وفاء الحذرة، إلا على القول: (كل شيء على ما يرام).

بالعودة إلى ابن الشقيق، كانت بقية القصة متوقعة: في صباح أحد الأيام، في الشارع، أوقف عدد من عناصر الاستخبارات سيارته، وطلبوا من الزوجة النزول منها، ومن ثم غادروا معه بسيارته، ليكون بذلك ثالث إخوته الذي يتعرض للاعتقال: إذ اختفى أولهم عندما كان ذاهبًا ليشتري الخبز في ربيع عام 2013، أما الثاني فقد سجن مدة شهرين ونصف الشهر قبل أن يعرض النظام على والديه رؤيته على سرير المستشفى. كان مصابًا في رأسه، ولم يصمد إلا بضع ساعات، ولم يبق إلا ثالثهم الذي استخدم الطرائق الممكنة كلها ليجد وفاء ويخرجها، ولا نعرف شيئًا عنه منذ اعتقاله. هل ما زال حيًا؟ هل كان من بين آلاف الجثث التي صورتها الشرطة العسكرية، كما كانت حال صادق؟ كان أحد أصدقاء وفاء قد عثر بالفعل على صورة زوجها في ملف قيصر وأراها إياها: (كان يوم 24 حزيران/ يونيو 2014)، تتذكر اليوم وفاء، كما لو كان ذلك التاريخ سيحل مكان التاريخ الدقيق لوفاة صادق، الذي ربما لن تعرفه أبدًا. مع ذلك، لديها فكرة بسيطة عنه: (عندما رأيت تلك الصورة، فهمت

أنه قد مات بعد اعتقالنا بوقت قصير؛ فقد كنت قد قصصت له شعره ليلة الأمس، ولحظة التقاط الصورة، لم يكن أمام شعره الوقت الطويل لينمو، ولا أمام لحيته أيضًا).

بعدها بسنة، وقبل عشرة أيام من مغادرة سورية إلى تركيا، جهزت وفاء صحون الفستق الحلبي والفواكه المجففة للاحتفال بخطبة شقيقها، اجتمعت العائلات جسديًا في الصالون، ولكن الروح كانت بعيدة.

فتح الخاطب الشاب حاسبه على صفحات الفيس بوك التي عرضت عليها صور المعتقلين الموتى، إذ كانت صور من ملف قيصر قد بدأت بالانتشار على شبكات التواصل الاجتماعي، وشرح شقيق وفاء أن بنك البيانات الجنائزي والسري ذلك سيسمح لمن انقطعت عنهم أخبار أخ ما، أو زوج ما أو بنت ما، بالتأكد من موتهم. تقبضت الوجوه حول الشاشة، كانت صورة ابن الشقيق الثالث موجودة هناك، من بين مئات غيرها.

اليوم، في ملجئها في إسطنبول، تستمر وفاء في استقصاء آلاف الصور التي كشفها قيصر، وتدور في مواقع الإنترنت، (غير قادرة على العودة إلى حياتها السابقة، وخجلة من تعرضها لمعاملة جيدة، وراغبة في عدم نسيان معاناة الآخرين). تلك هي طريقتها في الاستمرار في المشاركة، وهنا تقول الناجية من الموت: (نحن مسؤولون عما يحصل لنا اليوم، إن التزام الصمت وترك المستبدين يعبرون عنّا هو بمنزلة التوقيع لهم على بياض. إن صمتنا بعد مأساة حماه قد قادنا إلى هنا. كم عائلة لا تعرف أين أقاربها الذين اختفوا خلال تلك المجزرة؟)

سابعًا: مع عائلات المختفين

قيصر

(سبق وأن ساعدت أمهات يبحثن عن أولادهن. كان محض طلبهن إلي يعني أنهن قد استنفدن كل الطرق الأخرى، وأن معارفهن لم يفضوا إلى شيء، أو أنهن قد دفعن نقودًا من دون فائدة.

في بلادنا، اعتاد السوريون على دفع المال بغية الحصول على معلومات عن أقاربهم في المعتقلات. بعد الثورة، أخذ الفساد بعدًا آخر، إذ انحلت السلطة في كنف الجيش وأجهزة الاستخبارات، فقلّ احترام الأوامر، وتفككت، إلى حد ما، أعمدة النظام. تحولت تلك المافيا إلى نوع من الأدغال، رأى فيها بعضهم الفرصة لكسب مزيد من المال بطريق بيع المعلومات، حتى لو كانت خاطئة. كان أقل سؤال لعضو في النظام يُشترى ويباع، وأقل جواب أيضًا.

قبل الحرب، كان بإمكانك الشكوى في حال دفعت نقودًا وتعرضت للنصب، أما اليوم، فذلك مستحيل، فعندما يريد والد ما معرفة مكان ابنه المعتقل الذي انقطعت أخباره منذ أشهر، سيحاول رؤية ضابط ما، أو عنصر استخبارات أو محام مقرب من النظام. وإن سحب أولئك منه النقود تحت وعودهم بإطلاق سراحه ولم يحترموا كلمتهم، أو كان وعدهم كذبًا لأن ابنه قد مات مسبقًا، ما الذي سيستطيع الوالد فعله؟ الاعتراض لدى السلطات؟ سيكون جوابها: (أتبحث عن معلومات عن إرهابي؟ أنت أيضًا إرهابي. ربيت ابنك ليصبح إرهابيًا، يجب أن تذهب إلى السجن أيضًا!). ويغطي العناصر على بعضهم.

ولذلك كانت أمهات يحاولن الحصول على معلومات بوساطتي. لكن بما أن رتبتي لم تكن عالية؛ فقد كانت صلاحياتي أقل من غيري، وإن لجأت الأمهات إلي فهذا يعني أنهن فاقدات للأمل. كان اتصالهن بي يمثل خطرًا علي لأن هاتفي الجوال تحت المراقبة؛ لذلك كنت أعاود الاتصال بهن من أحد الهواتف العمومية التي لم

تكن مراقبة. استطعت الحصول على بعض المعلومات بفضل بعض الأصدقاء؛ إذ كان المعتقلون، عند خروجهم من مراكز الاحتجاز، يمرون على الشرطة العسكرية قبل ذهابهم إلى السجن، لكني لم أكن أعرف شيئًا عما كان يجري داخل مراكز الاحتجاز تلك.

كانت مساعدة العائلات تجعلني أشعر بشكل أفضل، كان باستطاعة ضميري أن يرتاح حتى لو كنت أعمل لدى النظام ولبشار الأسد حتى حينها.

عندما يبحث شخص ما عن معلومات متعلقة بقريب معتقل من الاستخبارات العسكرية، على سبيل المثال، عليه أن يذهب، نظريًا، إلى القضاء العسكري. إن كان المعتقل ميتًا، يُطلب إلى الشخص الذهاب إلى مستشفى تشرين حيث يحفظ أرشيف الأطباء الشرعيين للحصول على شهادة وفاة. وإن كان في السجن، يجري إرساله إلى الشرطة العسكرية للحصول على تصريح زيارة، أما إن كان في أحد مراكز اعتقال أجهزة الاستخبارات، فعندها سيجري التستر على القضية بالتأكيد بعدم وجود أي معلومات عن الشخص المعني. وهذا ما يبرز أهمية المعارف والنقود.

خلال السنتين اللتين صورت خلالهما أجساد المعتقلين، أتت عشرات العائلات مباشرة إلى مكان خدمتنا، حيث كان باستطاعتنا العثور على صورة المعتقل في أرشيفنا باستخدام رقم المعتقل ذاته أو رقم التقرير الطبي، الأمر المستحيل فعله من دون أحد الرقمين السابقين؛ لأننا لا نؤرشف الصور تلك باستخدام أسماء القتلى.

في أحد الأيام، جاء رجل باحث عن صورة أخيه، كان يرافقه محقق من الشرطة العسكرية ورئيس دائرتنا، وكان قد حصل على رقم المعتقل الخاص بأخيه. كان أمرًا استثنائيًا أن ياتي شخص هنا مع تلك المعلومات كلها. وجدنا الجثة التي تحمل ذلك الرقم ورآها ذلك الشخص، تعرف إلى شقيقه ووشمه وضرسه الذهبي، كان ربّ أسرة بطفلين. لدرجة صدمته، مد ذلك الشخص يده مع النقود تجاه المحقق لدى مغادرته، رفض الأخير النقود أمامي، ولكني متأكد أنه أخذها في ما بعد.

في مرة أخرى، جاءت سيدتان إلى مكتبنا، وكالعادة كان معهما المحقق ومسؤول المعلوماتية. كانت إحداهما زوجة أخ الأخرى، وكانتا تبحثان عن الأخ/ الزوج،

وكانت أعمارهما تتراوح بين الثلاثين والخامسة وثلاثين سنة، وعندهما ورقة موقعة من الاستخبارات مع رقم الطبيب الشرعي. استطعت، بفضل ذلك الرقم، معرفة تاريخ التقاط صورة ذلك الشخص، كان ذلك أمرًا سهلًا؛ إذ ترتب تلك الصور وفقًا لذلك الرقم والتاريخ؛ لذلك لم يكن من الضروري البحث في الثلاثين أو الأربعين صورة العائدة إلى ملف ذلك اليوم. عندما رأتا تلك الصورة، بدأت السيدات بالصراخ وخدش وجهيهما بالأظافر وشد شعريهما. كان موقفًا صعبًا ولم أكن أستطع قول شيء، أو أن أظهر أني أتفهم ألمهما، حتى أنهما لم تستطيعا شتم النظام الذي قتل زوج إحداهما وشقيق الأخرى؛ إذ كان ذلك كفيلًا باعتقالهما. أغمي على إحداهما، فذهب أحد العناصر لإحضار ماء الكولونيا لإنعاشها. أتذكر تلك الحادثة جيدًا، كانت أولى سنوات الثورة؛ لأنه في تلك المرحلة كان الجنود ما يزالون قادرين على شراء العطر، أما بعد ذلك، فقد أصبح غاليًا جدًا بسبب الحرب.

مرة أخرى أيضًا، اتصل عناصر من النظام بعائلة شاب صغير محتجز، ووعدوهم بإخراجه مقابل مبلغ نصف مليون ليرة سورية (كان ما يعادل 3.300 يورو في وقتها). لكن والد ذلك الشاب كان يعرف شخصًا في الشرطة العسكرية، قال له ذلك العنصر أن ولده قد مات بكل تأكيد وطلب منه عدم دفع النقود، لكن الوالد لم يرد تصديقه وكان مستعدًا للدفع. جاء العنصر لرؤيتي وبحثنا معًا، كنا نعرف التاريخ التقريبي لوفاته، ففتشنا في الصور ووجدناه. عندما شاهدنا جسده، أدركنا أنه قد مات بعد اعتقاله بوقت قصير. صوّر العنصر إحدى الصور الموجودة في ملف ذلك الشاب بوساطة هاتفه الجوال، كانت صورة القسم السفلي من جسده، وهو القابل للتمييز بسبب وجود رسم رقعة شطرنج على لباسه الداخلي. لم أكن أرغب في أن ينسخ الصور الأخرى، وخصوصًا صورة الوجه؛ لخوفي الشديد من أن يقدم الأهل شكوى إلى الأجهزة الأمنية التي حاولت أن تسلبهم النقود في الوقت الذي كان الشاب فيه قد مات مسبقًا، وقد حلف لي العنصر بأنه سيمسح الصورة من جهازه كي لا نتعرض لخطر الاعتقال، هو وأنا.

في سورية، يتعرض الشخص، عندما يعتقل، للتعذيب؛ ولذلك قد يدلي بمعلومات صحيحة أو خاطئة قد تؤدي إلى إرسال عشرة أشخاص آخرين إلى المعتقل، سواء أكان أولئك الأشخاص على علاقة بالقضية أم لا).

النقود مقابل كل معلومة

أحمد

عندما مات خالد، كتب على جبهته رقم واسم: (9077) و(جوية) (بمعنى الاستخبارات الجوية). أعطاه الطبيب الشرعي رقم 3217 لتقريره الطبي. في الصورة، لم تظهر على خالد أي علامة واضحة للتعذيب، كان من الممكن تمييز وجهه، على الرغم من حرق أصاب عينًا ولحية عمرها عشرة أيام تقريبًا. كان هناك علامة واحدة: على إحدى قدميه كانت حمراء اللون. كان خالد ما يزال مرتديًا للقسمين العلوي والسفلي من البيجاما التي كان يرتديها تحت ثيابه عندما ذهب إلى اللحام؛ فقد كان الجو باردًا في صباح ذلك اليوم الموافق لـ 2 كانون الثاني/ يناير 2013 عندما أوقفته دورية للأمن الجوي في الشارع، ليكون ذلك اعتقاله الثاني.

كان عمر رب الأسرة ذاك اثنين وأربعين عامًا، وكان صاحب ورشة في داريا، مدينة متوسطة الحجم في ضواحي دمشق تقع على بعد يقارب الـ10 كيلومترات جنوب غرب مركز العاصمة، وعلى مقربة من مطار المزة العسكري. كانت تلك البلدة، التي يبلغ عدد سكانها 250.000 شخص، في مقدمة الحراك السلمي؛ فقد قام شباب داريا، منذ الأيام الأولى لربيع 2011، بتنظيم التظاهرات الصامتة للمطالبة بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وقد هتف بعضهم (سلمية، سلمية) ومنح بعضهم الآخر الورود والماء لجنود النظام.

اعتقل خالد للمرة الأولى في مكتبه في شهر آذار/ مارس 2012، بعد ذلك بمدّة قصيرة، نشر أحد المحررين من أجهزة الاستخبارات قائمة المعتقلين الذين كانوا معه في الزنزانة نفسها في صفحة فيسبوك مخصصة لداريا بهدف إخطار العائلات

والأصدقاء والأقارب بأسرع وقت. ليس بإمكاننا فهم نزول المعتقلين إلى جحيم ليالي الزنزانات إن لم نخترق الصمت الذي يصيب أمهاتهم أو أشقائهم أو أطفالهم من جراء اختفائهم، قسوة الغياب وعنف عنجهية أجهزة الاستخبارات، لذلك فإن إعطاء أخبار عن المعتقلين محفوف بالخطر ولكنه عالي الأهمية.

في ثمانينيات القرن الماضي، اعتقل آلاف الإسلاميين في سجن تدمر وسط الصحراء من دون علم عائلاتهم، ومات عدد منهم بسبب الجوع أو التعذيب، أو أعدموا من دون محاكمة داخل الزنزانات كما حصل في 27 حزيران/ يونيو 1980، غداة محاولة اغتيال حافظ الأسد، إذ دخل الجيش إلى السجن وقتل آلافًا من محتجزيه.

اليوم أيضًا، من يجتاز عتبة مركز احتجاز يختفي، وأحيانًا يخفي الأقارب نبأ اعتقال ابن أو بنت ما عن أم منهكة أو أب طاعن في السن بهدف حمايتهما، ويخفون خبر موتهم عند التأكد منه أيضًا، موت مخفي وذاكرة ممنوعة.

عندما خرج معتقل مدينة داريا، إذًا، كتب اسم خالد في وسائل التواصل الاجتماعي، وعندها سأله شقيق الأخير أحمد: (هل أنت متأكد أنه هو؟) نعم، كان خالد. ربط صديق آخر بين أحمد وعنصر يعمل لدى النظام، مقابل 400.000 ليرة سورية (حوالى 4.000 يورو آنئذ)، سجل صوت خالد العذب لإسماعه لعائلته، وقال أحمد مؤكدًا: (تعرفت مباشرةً إليه). بعدها بخمسة أشهر، أطلق سراح صاحب الورشة، ليعود إلى الواقع الأليم والعنيف.

شهدت داريا المسالمة، بعدها ببضعة أسابيع، إحدى أسوأ مجازر الحرب، إذ أعدِم ما يقارب الـ700 من سكانها في حملة عسكرية عقابية ضد المدينة في 25 و26 آب/ أغسطس 2012، وقبلها كان إمام المسجد المحلي الذي كان يشجع على اللاعنف قد اعتُقل.

تعرض غياث مطر، الشاب ذو الستة وعشرين عامًا الذي قد أعطى الورود للجنود، للتعذيب حتى الموت، وأعيدت جثته إلى أهله، وقد تسبب موته في إثارة قلق وزارة الخارجية الأميركية، ولكن داريا الثائرة استمرت في طلب الديمقراطية.

جمع الجيش فرقه حول المدينة في 20 آب/ أغسطس، وأغلق مداخلها ومخارجها قبل أن يدك محيطها، وقُطعت الاتصالات عنها. وبعدها تسلل الشبيحة، عناصر ميليشيا النظام، إلى داخلها ومشطوا أحياءها، وارتكبوا المجازر داخل مساجدها وأعدموا من تجرأ على الخروج إلى شوارعها، وقضوا على عائلات بأكملها في مداخل درج الأبنية. في اليوم التالي، انتشرت جثث الضحايا في الشوارع، رجالًا ونساءً وأطفالًا وكبارًا في السن. وعلى قناة الدنيا الحكومية، تحدث المذيع عن مجزرة ارتكبها (إرهابيون)، وأكد تنظيف الجيش للمدينة من (العصابات المسلحة)، ومن ثم عرضت القناة تقرير الصحافية المُرسلة إلى موقع المجزرة. شابكة نظاراتها الشمسية بشعرها، ومرتدية قميصًا أزرق سماويًا مطابق للون سترتها الواقية للرصاص، وأكتافها المكشوفة، ناجت المراسلة الجميلة المشاهدين: (كما تشاهدون مشاهدينا الضحايا في كل مكان. لا أدري إذا كانت ستسعفني الكلمات، هنا امرأة ما تزال على قيد الحياة، سوف نتكلم معها ونسمع). كان ذلك التقرير مثيرًا للسخرية ودنيئًا، كانت الصحافية فيه تعدو فوق الجثث، وتمد مذياعها لامرأة مصابة وممدة في مقبرة كانت قد فقدت زوجها وابنتها وابنيها. ومن ثم قامت المراسلة باستكمال طريقها لتقابل بنتًا صغيرة عمرها ثلاث سنوات، كان جالسة في عربة سيارة بيك آب وغير قادرة على الحراك أمام جثة والدتها، وبمساعدة كبيرة من موسيقى أفلام الحركة (الأكشن) ذات الإيقاعات المتباطئة ومن ثم المتسارعة، لحقت المراسلة الجنود الذين فتحوا النار (في مهمة تطهير فلول الإرهابيين)، كما أكد الشهود المحاطون بالجنود الكلام الرسمي.

خلال الهجمة تعرض عم خالد، إمام المسجد المحترم الذي كان يدعو إلى اللاعنف، أحمد جلال للاعتقال، أما بقية العائلة فقد هربت من المدينة لتستقر على بعد كيلومترات عدّة باتجاه الشمال في حي المزة، في دمشق. كان ستة من إخوته، وزوجاتهم وأطفالهم يسكنون في بيت كبير من سبعة غرف، وفي 2 كانون الثاني/ يناير 2013، عندما لم يعد خالد مع حاجات التسوق، فهم أخوه أحمد ما حصل، إذ أكد بائع السجائر أن مخبرًا قد وشى به إلى الاستخبارات، وجاءت دورية من الاستخبارات الجوية لاعتقاله.

تواصل أحمد من جديد مع شخص وسيط، كان ضابطًا متقاعدًا في تلك المرة، ومرر خلال لقائه في المقهى ظرفًا يحتوي على مبلغ 1.500 دولار، ووعده قائلًا: (أعطني القليل من الوقت وسأرى ما أستطيع فعله). قابله أحمد بعد ذلك بأسبوع، في المكان نفسه، (أخوك بحال جيدة، وقلنا للسجانين ألا يضربوه. طلب رئيس الفرع 1.500 دولار إن أردت إخراجه). جمع أحمد جزءًا جديدًا من مدخراته، وباع سوار زوجته الذهبي. من ثم التقى بذلك الضابط المتقاعد بعدها ببضعة أسابيع، (قمنا بتجهيز تقرير كي لا يحاكم بوصفه إرهابيًا)، ومر بعدها شهر ونصف، كان جواب العسكري القديم بـ: (الصبر)، وفي المرة التي بعدها، أكد له: (هو بخير، لن يؤذيه أحد. سيطلق سراحه بموجب عفو).

في الحقيقة، كان خالد قد مات منذ زمن طويل، بعد أقل من أسبوعين من اعتقاله، وفقًا للصورة التي التقطها قيصر أو أحد زملائه، ولكن العائلة تمسكت بالأمل وقتًا طويلًا، (ماذا كان بإمكاننا أن نفعل أكثر من ذلك؟) يقول أحمد، اللاجئ في تركيا مع عائلته، متأسفًا اليوم.

كانت النقود قد سمحت بالفعل، قبل ذلك بسنة، بتحرير منصور، أصغر أشقائه، المحكوم بالسجن لخمسة عشر عامًا بتهمة الإرهاب، والمعتقل في سجن صيدنايا. رشت الدولارات أحد القضاة الذي أطلق سراحه. واستفاد أحد أعمامه، أيضًا، من ترتيب مماثل، فبعد ثلاثة أشهر من اعتقاله، حُوِّل الرجل المسن إلى سجن عدرا المدني، ومن ثم أطلق سراحه. اليوم، لا يحتفظ العم بكامل قواه العقلية، ويرى بشكل سيء ولا يسمع إلا بأذن واحدة؛ فقد ترك مروره على مستشفى المزة 601، حيث قُيد بالسرير مع كتف مخلوعة وهلوسات، عواقب وخيمة.

يقول أحمد شارحًا: (تكون المسألة أكثر بساطة عندما يكون أقاربنا في السجن، عندها يستطيع المحامي أن يتكفل بإيصال النقود إلى الشخص المعني. أما عندما يكون المحتجزون في مراكز الاعتقال، يكون الأمر أكثر غموضًا وتصادفيّةً، فلا نعرف على الإطلاق أين يذهب وسيطنا، وما هي الوسائل الفاعلة).

قبور جماعية

لم يطلق سراح الشيخ أحمد جلال، العم الإمام الذي اعتقل خلال مجزرة داريا)، ومات بعد مرور خمسة أشهر على اعتقاله. وعثر على صورته بين الصور التي وضعها قيصر على الإنترنت، إذ كان الرجل يحمل الرقم (3026) والتدوين (جوية)، وقام الطبيب الشرعي في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 2012 بأرشفة ملفه برقم 2409. وكحاله، رميت جثة خالد تحت هنغار مستشفى المزة 601، وأرشفت نهاية حياته في التقرير الطبي برقم 3217 في شهر كانون الثاني/ يناير 2013. في ذلك التاريخ، كانت عائلته قد وجدت ملجًا لها في ذلك الحي السكني بعد مجزرة داريا، وأصبحوا يعيشون على بعد أقل من خمسمئة متر من المستشفى.

لقد كان جسد خالد موجودًا هناك، على بعد دقائق سيرًا على الأقدام من البيت - الملجأ، قبل أن يرمى في مقبرة، ولكن كحال آلاف المدنيين الذين اغتيلوا في مراكز الاعتقال، صدر الأمر بـ (دفن) خالد وجرت أرشفته، كما هي حال الشخص المدعو ي. م.، ونورد هنا أمر الدفن[9]:

سري للغاية

الجمهورية العربية السورية

القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة

شعبة الاستخبارات- الفرع 227

الرقم /xxxx/ 5ت

التاريخ xxxx/ 2013

إلى فرع الشرطة العسكرية بدمشق

---

[9] النسخة الأصلية موجودة في الملحق.

خلال التحقيق مع الموقوف لدينا xxxxxxxx مواليد xxxxxxxx ومقيم فيها في حيxxxxx مقابل البلدية ه/xxxxxx/، ساء وضعه الصحي فتم إسعافه إلى مستشفى /601/ العسكري وبتاريخ 2013/6/2 توفي المذكور نتيجة توقف قلبه وتنفسه وأودعت جثته في براد المستشفى المذكور برقم xxxxxx .

يرجى الاطلاع ودفن جثته بمكان معلوم بالتنسيق مع مكتب دفن الموتى وذلك عملًا بقرار مكتب الأمن الوطني، مضمون كتاب الفرع /248/ رقم /xxxx/ تاريخ /xxxxx/ المرسل إليكم في حينه وإشعارنا.

ربطًا: مغلف ممهور بالشمع الأحمر بداخله بطاقة شخصية عائدة إلى المذكور.

نسخة إلى:

- الفرع 291/ب إشارة لكتابكم رقم xxxxxx للاطلاع.
- الفرع 248 إشارة لكتاب الفرع 291/ب أعلاه للإطلاع.
- الفرع 294 إشارة لكتاب الفرع 291/ب أعلاه للإطلاع.

عدد النسخ ( )

النسخة رقم

رئيس شعبة الاستخبارات

بالتفويض

رئيس الفرع 227

أين دُفن خالد؟ في (مقبرة الشهداء) في نجهة؟ في (مقبرة الجنوب) في البحدلية؟ يُشك باحتواء المقبرتين السابقتين، الموجودتين في ضواحي دمشق الجنوبية، على مقابر جماعية.

بالتعاون مع منظمة هيومان رايتس ووتش، نشرت المنظمة السورية لحقوق الإنسان (مركز توثيق الانتهاكات) في تقريرها الصادر في شهر أيلول/ سبتمبر 2013 عن الفرع

215 للاستخبارات العسكرية، شهادات وصور أقمار صناعية اتهامية الطابع: وصول شاحنات مجهزة ببرادات، وأعمال دفن بمساعدة بلدوزرات، إضافة إلى آثار أكوام من الرمل والكلس تسمح بتحلل الجثث.

وفقًا للشهادات التي جمعها مركز توثيق الانتهاكات(10)، دخلت في يوم، بين نهاية أيلول/ سبتمبر وبداية تشرين الأول/ أكتوبر 2012، شاحنتان إلى مقبرة نجهة، إذ دُفنت مئات الجثث، ومنعت حينها قوات الأمن الوصول إلى المكان بإغلاق الشوارع بحواجز، ولكن الشهود كانوا موجودين مسبقًا في مكان قريب.

---

(10) http://www.vdc-sy.info/index.php/en/reports/1380463510#.VZT3ePntmko.

ثامنًا: واجب المغادرة حيًا

قيصر

(كنا نريد إخراج تلك الصور كي تعرف عائلات الأموات بوفاة أقاربهم، كان على الناس أن تعرف ما كان يجري في السجون وفي مراكز الاعتقال؛ عند سقوط بشار الأسد، سيرغب النظام في تدمير الأدلة بكل تأكيد.

لماذا يحتفظ النظام بتلك الصور؟ لطالما طرحت على نفسي السؤال السابق. ما الهدف من وراء وصف الجثث وحفظ صورها؟ أنا رجل بسيط، ولست سياسيًا، سأجيبكم ببساطة. لا تنسق أجهزة الاستخبارات في ما بينها داخل النظام، لا تعلم تلك الأجهزة ما الذي تفعله الأجهزة الأخرى، إذ ينظم كل طرف منها نفسه ويعمل وفقًا لمصالحه، كالقضاء العسكري والأجهزة الأمنية.

تؤرشف الشرطة العسكرية أدلة حوادث الجنود ووفياتهم لتقديمها إلى القضاء العسكري منذ خمسين عامًا، ويوثق النظام كل شيء كي لا ينسى. لذلك، فهو يوثق موتاه. تفيد الصور القضاة والمحققين، وتكمل الملفات، وسيحتاج إليها القضاة يومًا إذا ما وجب إعادة فتحها. بعد بداية الثورة وخلال الحرب، حافظنا على ذلك الروتين، هكذا ببساطة، من دون أن يتخيل النظام أن ذلك الروتين قد يستخدم ضده يومًا ما.

تمتلك الأجهزة الأمنية شعورًا بالحصانة المطلقة، ولا تتخيل أبدًا إمكان محاسبتها يومًا ما على ما اقترفته من آثام، وهي تعرف أن قوى عظمى تدعم النظام، ولم تفكر أبدًا أن تلك الصور ستخرج وستُعرض على العالم الخارجي.

في الحقيقة أتساءل دائمًا إن كان مسؤولو الأجهزة الأمنية أغبى مما نعتقد؛ فلانشغالهم بقمع المتظاهرين وسحق الشعب والقتل، نسوا أن جرائمهم كانت موثقة. انظروا إلى الهجوم الكيماوي على الغوطة؛ لقد كان المسؤولون يعرفون أنه ستتوافر أدلة موثقة، لكنهم مع ذلك استهدفوا المنطقة.

لكن، أساسًا، لماذا تُصوَّر تلك الأجساد المعذبة حتى الموت كلها؟ لا يستطيع إلا النظام الجواب بدقة على ذلك السؤال، وأنا متأكد أنه ما يزال يقوم بذلك على الرغم من الصور التي أخرجتها، ثم إنني متأكد أن أعضاء من النظام ما يزالون يظنون أن المتظاهرين وثوار الجيش السوري الحر هم (إرهابيون) مدفوعون بعوامل خارجية، وأنهم يدمرون البلاد. في بداية الثورة، كان العسكريون معظمهم يظنون ما سبق أيضًا، ولكن كثيرًا منهم أدرك في ما بعد عدم صحة ذلك الظن، ولكن كثيرًا من الماء كان قد أريق مسبقًا. أتذكر عندما حرر النظام جهاديين كانوا قد خاضوا الحرب ضد الأميركيين في العراق، وجرى اعتقالهم لدى عودتهم إلى سورية، كنا جميعنا متفاجئين في قسمنا، لماذا فعل النظام ذلك؟

لم أتحدث إليهم شخصيًا ولكنهم مروا بالمقر الرئيس للشرطة العسكرية. يجري تحويل المساجين الذين سيطلق سراحهم، بفضل عفو على سبيل المثال، إلى عندنا بموجب أمر ترسله الاستخبارات العسكرية ووزارة الداخلية إلى الشرطة العسكرية والشرطة المدنية.

يصل المعتقلون إلى عندنا بشاحنات مجهزة بقضبان، ويجري تجميعهم في الساحة ويبقون في سجن الشرطة العسكرية مدة أربع وعشرين إلى ثماني وأربعين ساعة قبل أن يجري إرسالهم إلى قاض يطلق سراحهم. كان عناصر الشرطة المسؤولون عن مراقبتهم يتحدثون في ما بينهم ويتساءلون كيف بإمكان النظام أن يقدم على إطلاق سراح رجال حاربوا في العراق، لم يفهموا السبب.

خلال العامين الذين نسخت خلالهما تلك المستندات سرًّا، كنت أخاف على عائلتي وعلى نفسي، كنت قد بدأت طريقًا لا أستطيع التراجع عنه. كان علي أن أنهي ما قد بدأت، كنت أعلم أني سأتوقف عن ذلك العمل في أحد الأيام، لكني لم أكن أعلم متى بالضبط، كنت أؤجل تلك اللحظة. كان على الأمور أن تجري بشكل جيد، وكان علي أن أغادر.

في يوم من الأيام، شعرت أني في خطر أكثر من قبل، وقُرّر إخراجي. كان ذلك قاسيًا، كنت قلقًا قبل أن أخرج، لكننا كنا قد خسرنا مسبقًا منزلنا وحاجاتنا، كنا نعيش منذ أشهر في سكن أعاره لنا أحد معارفنا.

لم يخطر في بالي أبدًا أني سأكون مجبرًا على ترك بلادي. كنا نعيش قبل الثورة بشكل متواضع وبسيط، كل يوم بيومه، من دون طموحات ضخمة، لم نزر يومًا المناطق الجميلة في سورية، لم يكن عندنا الوقت ولا المال، ولم أذهب إلى السينما إلا مرتين في حياتي، لم أسافر إلى الخارج ولم يكن بحوزتي جواز سفر؛ لا يُسمح للمجندين خلال مدّة خدمتهم، ولا للجنود وعناصر الاستخبارات بالسفر.

في جيل والدي، عاش الشعب تحت سلطة حافظ الأسد ومن ثم ابنه، لم يكن باستطاعتنا فعل أي شيء من دون تصريح من الأجهزة الأمنية، حتى في كل الأمور التي تلامس الحياة اليومية: كالزواج والطلاق والرحلات، حتى تسمية الأطفال تتطلب إذنًا. اعتاد السوريون على العيش مع ذلك الظلم الذي أصبح كطعامهم اليومي. كنا نعاني، وكلما تراكم الألم يتعلم الإنسان التعايش معه.

في صباح يوم ما، كنت في المكتب، كنت أنام هناك لأن عددنا لم يعد كافيًا؛ ولم يكن لنا الحق في العودة إلى منازلنا. وقتها، كان لدي مهمة خارجية سمحت لي بعبور حواجز دمشق وضواحيها، كان من المخطط أن أغادر في تلك اللحظة، أغادر من دون عودة.

حالما خطوت خارج مبنى الشرطة العسكرية، شعرت بالحزن والفرح: كنت حزينًا لترك أصدقاء عملت معهم وقتًا طويلًا، وحزينًا للذهاب إلى المجهول، ولكن سعيد لترك ذلك الضغط اليومي المتمثل في تصوير الأجساد، وفي المخاطرة في التعرض للاعتقال. لم نكن نعرف على الإطلاق ما الذي كان الغد يخبئه لنا.

عند عبوري حاجز المجمع العسكري، لم أفكر أبدًا بوالدي، لم أفكر إلا في وصولي إلى بر الأمان: كيف أصل إلى الحدود سليمًا معافى؟ كنت خائفًا بشدة، لكنت ما طمأنني كان تلك المهمة الني كان من الواجب إنجازها، التي سمحت لي بالتنقل بشكل حر نسبيًا، وبعبور الحواجز في دمشق وضواحيها. كان عندي موعد مع

عضو في المعارضة في موقف باص، وُصفَ لي وكان هو يعرف كيف سأكون، كما كانت لدينا أرقام هواتفنا تحسبًا، على الرغم من أن هاتفي كان مراقبًا. كان ذلك اللقاء خطرًا؛ فقد كنت خائفًا أن يخونني، وكان هو خائفًا أن أكون جاسوسًا يعمل دائمًا لحساب النظام. لحسن الحظ كنت أعرف مكان اللقاء، بعث ذلك الطمأنينة في أوصالي. تعرفنا إلى بعض، ومن دون أن نقول شيئًا كثيرًا، صعدنا في السيارة وغادرنا.

فاجأني بمعرفته كثيرًا من الناس. عبرنا بعض الحواجز من دون أن يُطلب منا أي أوراق، ومن ثم توجهنا نحو طريق ثانوي، حجري ولا تقصده كثير من السيارات، للخروج من دمشق، وبعد عبورنا ما يقارب خمسين كيلومترًا، تركني بين أيدي شخص آخر، الذي تركني بدوره لشخص غيره لم أكن أعرفه. كنت أغير المهرب كل خمسين كيلو متر تقريبًا، وتلك هي الطريقة الوحيدة للتجول في سورية اليوم؛ إذ يلزم أشخاص يعرفون مناطقهم والطرق والممرات غير المراقبة لتجنب الحواجز. لكن دائمًا ما كانت لحظات تبديل المهربين والسيارات مقلقة، (هل سيخونني هذا الشخص؟ وهذا الآخر؟ هل أنا بين أيد أمينة؟) بإمكاننا الظن أننا في أمان في المناطق الخاضعة لسيطرة الثوار، ولكن مخبري النظام جوالين. استمرت الرحلة أكثر من يوم، عبرنا فيها مناطق مقصوفة.

وصلت إلى الحدود الجنوبية، وبقيت فيها بعض الوقت، استضافني هناك شخص موثوق في منزل عائلته، مع زوجته وأطفاله. كانت عائلته تعرف أني هارب ولكنها لم تكن تعرف ما الذي أنجزته. كانت تلك المنطقة، المعروفة بمساعدتها للهاربين، محاصرة من النظام؛ لذا كان على أن أنتظر اللحظة الملائمة لعبور الحدود بشكل غير قانوني. بدأت أشعر بالملل في المنزل بعد مرور أيام عدّة، خرجت ورأيت منظمات تساعد المدنيين في توزيع الطعام، الطحين والحليب. كانت مساعدات من البلدان العربية والغربية. وفي أحد الأيام، في وقت التوزيع بالضبط، سقطت قذيفة هاون على بعد عشرين مترًا من مكاننا، لم تكن تلك مصادفة، فللجيش مخبرين حتمًا.

رويدًا رويدًا، بدأت العائلة تعدّني فردًا منها، لكني شعرت أني كنت عبئًا، كانت عائلة كبيرة وكان الطعام نادرًا، كانت الجدة تحضر الخبز بنفسها لأن النظام كان قد دمر الفرن، وهناك اكتشفت معنى أن تعيش مع الجوع في منطقة محاصرة. في دمشق،

في مناطق النظام، كان عندنا خبز، وكنا نملك المال لشراء الطعام، ولم نكن ندرك أن جزءًا من الشعب السوري يعاني الجوع. هنا، تقف العائلات في رتل ساعات بغية الحصول على كيس صغير من الطعام، لم أكن أتخيل أبدًا أن أعيش هذا.

كنت أخرج أحيانًا خلال النهار إلى الحدائق المجاورة، كانت ما تزال هناك بساتين، وقطفت منها العنب. يتسم سكان تلك المنطقة بالكرم، لم يكن على الذهاب بعيدًا عنها. في إحدى الأمسيات، عاد رجل العائلة ولم يجدني، غضب عندما رجعت، كان خائفًا أن أكون قد وقعت بين أيد شريرة أو في قبضة مخبرين للنظام أو جماعات مسلحة متشددة.

عبرت الحدود مختبئًا في سيارة، وعندما وصلت إلى البلد المجاور، وجدت عددًا من أفراد أسرتي. كنت سعيدًا لرؤيتهم ولمعرفة أنهم في أمان، ولكن ذلك البلد يكتظ بالجواسيس، لم نكن مرتاحي البال؛ إذ تعرض كثير من الهاربين للقتل هناك. كنا نحرص على عدم الاختلاط بالسوريين الآخرين والموجودين بكثرة لاجئين هناك.

بقينا هناك أشهرًا عدّة ومن ثم لجأنا إلى أوروبا. كنت خائفًا من المستقبل، كنت قلقًا. عند مغادرتنا، كان أطفال سامي سعداء لركوب الطائرة، وعندما هبطت وفتح الباب على الممر تدافعوا بفرح، لا يعرف الأطفال ما الذي ينتظرهم).

إخراج قيصر الإسعافي

سامي، أبو خالد

لا يستطيع قيصر أن يروي كيف جرت حمايته. كان ثوار من الجيش السوري الحر يراقبونه بحذر منذ بداية صيف عام 2013. من دون أن يعرف، كان المقاتلون يتبعون عن بعد أقل تحركاته منذ أشهر، وكان قائدهم أبو خالد. كان أبو خالد رجلًا قصيرًا وضعيف البنية، وقليل الكلام، وينحدر من القلمون، مثل أبو الليث ذلك المعتقل الذي نجا من الفرع 227 للاستخبارات العسكرية.

(خسر) أبو خالد ومجموعته مرتين مخبرين كشفهم النظام قبل أن يستطيعوا إخراج أدلة الجرائم التي جمعوها في مشفَيي المزة وتشرين العسكريين. مضى على اندلاع الثورة ودخول البلاد في الحرب عامان، وأصبحت خريطة سورية شبيهة بجلد نمر: بقعًا يتحكم بها النظام وأخرى تسيطر عليها المعارضة التي تحاول تأسيس إدارة جديدة فيها، كما حصل في الشمال قرب الحدود التركية. كانت بعض خطوط التماس تركد لتتحرك أخرى، وغدا من المستحيل الآن التنقل من مدينة إلى أخرى بسلوك الطريق المعتادة، فليس علينا معرفة مواقع حواجز الطرف الخصم فحسب، وإنما أيضًا الطرقات والأزقة التي تسمح بتجنبها، هذا عدا عن اللفات التي كنا يجب أن نقوم بها وكانت تكلفنا ساعات عدة. أو أيامًا عدة.

دخل مجاهدو داعش، أو تنظيم الدولة الإسلامية، اللعبة في سورية في ربيع عام 2013، وبدؤوا بقرض أراضي ثوار الجيش السوري الحر في شمال شرق البلاد تدريجًا، وكانوا أكثر اهتمامًا بهزيمة المعارضة من النظام، كما كان النظام حريصًا على ضرب المعارضة العسكرية للجيش السوري الحر التي بإمكانها أن تشكل بديلًا سياسيًا معتدلًا لسلطة بشار الأسد، أكثر مما توفره داعش. كان داعش والنظام (حلفاء موضوعيين) ضد بديل ديمقراطي.

أصبح من المستعجل إخراج قيصر، الرجل العالق بين نارين، الذي يعيش على أعصابه والمعذّب من إحساسه بالمشاركة، على االرغم منه، في جرائم النظام. كان يريد التوقف أكثر من مرة، وجرى إقناعه بالاستمرار أكثر من مرة. كان الشخص الوحيد القادر على جمع تلك الأدلة من داخل النظام. كان صديقه سامي على تواصل مع ناشط للمعارضة المعتدلة والسلمية يقوم باستلام الصور المسروقة وإرسالها بالبريد الإلكتروني المشفر إلى الخارج. جرى جمع آلاف الصور وتحويلها بتلك الطريقة، لكن هل كان من الواجب المتابعة، وتعريض قيصر لخطر كشف أمره في الوقت الذي يشكل فيه الشاهد الأساس لآلة موت بشار الأسد؟

لا تظهر حساسية الملف بالضرورة في ظل يوميات الحرب واستمرار العملية، ولكن لإدراكها، علينا أن نأخذ الوقت الكافي لرؤية تلك الصور عن قرب، ولتقليبها ببطء، لمعرفة أن تلك الابتسامات على الوجوه الصبيانية وقفازات الجراحين في الأيدي تعود

إلى جنود النظام، إلى سوريين يتصورون متربعين وفرحين أمام جثث سوريين آخرين. وستظهر حساسيته أيضًا في حال التوقف، بذعر وألم، عند صورة جار أو قريب.

عرف سامي ذلك الألم، وخبر فاعليته، فقد قرر أن يرسل إلى أبي خالد الصورة التي عثر عليها على القرص الصلب لأحد أصدقائه الأطباء الذي كان قد سجنه النظام. في سورية الحرب، تتعرض الكوادر الطبية جميعها للمطاردة؛ لأنهم يهتمون بالجرحى سواء أكانوا أولئك من المتظاهرين السلميين أم الثوار المسلحين أم من سكان الأحياء الخاضعة للمعارضة، أم حتى من ميليشيات النظام وتعدّهم السلطة بمنزلة (إرهابيين). يمتلك اتحاد المنظمات الطبية الإغاثية السورية (UOSSM) قائمة بتسعة وعشرين طبيبًا قتلوا منذ شهر أيار/ مايو 2011.

لم تعد المستشفيات العامة آمنة، منذ الأشهر الأولى للثورة؛ فقد كان يقع فيها الناشطون من دون أسباب، وكان متظاهرون بإصابات طفيفة يتركون فيها للموت. لعلاج المدنيين، شرع الجراحون بإجراء عمليات جراحية في الخفاء، داخل مطابخ أو أقبية أو غرف صغيرة لا تتوافر فيها شروط الرعاية الصحية، وتفتقد إلى كل شيء كالمواد المخدرة والمطهرات والضمادات والمباضع والمشارط.

وكحال الناشطين أو الثوار المسلحين، كان المعالجون في المستشفيات يستخدمون أسماء مستعارة ليتجنبوا اقتفاء أثرهم وليحموا عائلاتهم، أما في المناطق الخاضعة لسيطرة الثوار فقد كانت عرضة للاستهداف المتعمد بقذائف وصواريخ النظام. أن تكون طبيبًا أو ممرضًا أو مساعد معالج هو اليوم بخطورة حملك لكلاشينكوف على خط الجبهة. لذلك كان سامي يعرف تمامًا ما كان يفعله عندما أرسل، بطريق البريد، صورة جثة الطبيب إلى أبي خالد. كان ذلك الرجل قد جرى توقيفه على حاجز للجيش الموالي بينما كان في طريقه لرؤية أحد قادة الجيش السوري الحر. وصلت صورة جثته المعذبة حتى الموت، بوجه متورم وجسد ممزق، بالطريق الرسمي إلى أرشيف الشرطة العسكرية، ومن ثم نقلها قيصر إلى القرص الصلب الخاص بسامي، وأخيرًا إلى كمبيوتر أبي خالد، وهنا كانت الصدمة.

في صباح اليوم التالي، سلك سامي طريق مزرعة عائلة أبي خالد الواقعة في مرتفعات القلمون، والمعزولة في الجبل المطل على أكثر من تلة، ما يشكل دفاعًا طبيعيًا ضد المهاجمين. هناك، تحدث الرجلان مطولًا، (حتّم علينا مساعدة قيصر على الهرب، كان يجب أن يخرج حيًا من البلاد وأن تصل تلك الصور إلى العالم)، يروي اليوم أبو خالد. نظم أبو خالد عملية خروج ذلك البطل المجهول، عبر قيصر الحدود مختبئًا في سيارة، وكانت عشرات آلاف المستندات قد خزنت على قرصين صلبين: أحدهما يحتوي على نسخ منخفضة الدقة للصور التي أُرسِلت بالبريد الإلكتروني إلى الخارج، وثانيهما يحتوي على الصور الأصلية عالية الدقة وما زال في سورية.

عبر أيو خالد جبال الحدود اللبنانية سرًا بغرض إخراجه، قبل أن يسلمه إلى سامي في بيروت. اقترب وقت الإعلان وسيتلوه وقت العدل.

نقل الملف

حسان شلبي

بعد أسابيع عدّة على خروجهم إلى بلد مجاور لسورية، عاش قيصر وسامي وعائلته لاجئين داخل شقة مستعارة. دخل حسان شلبي المعارض طويل الأمد لبشار الأسد إلى الغرفة الصغيرة سيئة الإضاءة والباردة كالثلج في بداية ذلك الشتاء -كانت المدفأة الكهربائية تعمل ببطء- وقام بضم قيصر بين ذراعيه مدّة طويلة وسط الضوء الخافت. بالنسبة إلى ذلك السوري، الأمين العام للتيار الوطني السوري والناشط من أجل الإسقاط السلمي للنظام السوري، كان إنجاز ذلك الهارب غير متوقع. أسس التيار الوطني السوري، ذو الاتجاه الإسلامي المعتدل، عام 2011 من جامعيين ورجال عِلم، وهو يشجع على قيم الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة المصبوغة بمبادئ إسلامية.

لم نسمع في أفواه القادة الغربيين والرأي العام، في شتاء عام 2013، إلا مفردات (الجهاديين) و(الإرهابيين) و(الدولة الإسلامية). وفي شمال سورية، في المناطق المسماة (محررة)، خُطف عشرات الصحافيين الأجانب من ذباحي الدولة الإسلامية.

يقول حسان شلبي شارحًا: (كان العالم يخلط بين الثوار الحقيقيين والجهاديين، نسينا إرهاب الدولة، وهو أصل كل ما حدث، وما زال مستمرًا). في ذلك اليوم، كان يمتلك تحت عينيه، مع صور قيصر، ما يوضح بأمثلة ذلك الإرهاب، ووفقًا لما يراه فإن تلك الأدلة تتحدث عن نفسها، وستؤدي إلى نقل الحرب من الصعيد العسكري -حيث لم يستطع أي معسكر التفوق على الآخر- باتجاه الصعيد القضائي، والمحاكم الدولية.

علم حسان شلبي بالملف بوساطة صديق سامي الذي يعرفه منذ سنوات. منذ طفولته، لم يكن ذلك الباحث في العلوم الإسلامية، ذو الاثنين والأربعين عامًا والحاصل على شهادة في الإدارة، يحتمل رؤية عائلة تجهل مكان وجود أحد ذويها المعتقلين لدى النظام، فقد خبرت عائلته تلك المصيبة: ففي أحد أيام الجمعة من عام 1980، كان الأطفال السبعة يتشاجرون في السيارة العائلية، كان أكبرهم سنًا يبلغ ثماني سنوات وأصغرهم شهرين. كانوا قادمين من مدينة التل، حيث كانوا يسكنون على بعد يقارب عشرة كيلو مترات عن دمشق، وذاهبين لزيارة خالهم في برزة، غرب العاصمة. توقفت سيارة الهوندا الزرقاء أسفل المبنى، وبدأ الصغار يتدافعون للنزول من السيارة، كانت الأم تحمل الطفل الرضيع وتضمه إلى صدرها، أما الأب الذي رفع يديه عن مقود السيارة فقد بقي منتظرًا أمام العربة. اقترب منه رجلان يرتديان لباسًا مدنيًا (بنطالًا رماديًا غامق اللون وسترة بنية) وخاطبا أبا حسان: (السلام عيلكم، ممكن أن نطلب منك شيئًا يا أخي؟) اقترب منهما الرجل وبحركة خاطفة وضعا قبعة على رأسه وضرباه بعصىً ورمياه في سيارة جيب كانت متوقفة على بعد في الشارع نفسه، وأقلعت لتوها. (أبو حسان راح) صرخت الأم باكية، (راح) هو التعبير الذي عكف السوريون على استخدامه خلال الثمانينيات حيث اختفى كثيرون منهم في غياهب فروع الاستخبارات. في الطريق، تسمر المارة، ولم يجرة أحد على الاقتراب لطمأنتهم. صاحت الأم: (حسان، انده على خالك) وكان الخال صارمًا: (لا تتكلموا

بما حدث لأي كان. لا يجب أن يعرف أحد باعتقاله). ومن ثم دفع بالجميع إلى داخل منزله، مع أنه كان ضابطًا في الجيش. إن كان الضابط في الجيش يأمر بكتم الأفواه، فمن كان سيساعدهم؟

ترجت العائلة، خلال تلك الأسابيع العسيرة، الخال بأن يحصل على معلومات، وأكد لهم الأخير بأنه قد حاول من دون أن ينجح. كان حسان الصغير، الذي استمع إلى المناقشات بسنواته السبع، خائفًا؛ فإن كان خاله الضابط يخشى من الاستخبارات، فلا بد من أن يكون والده بالفعل مفقودًا.

مضت أربعة وثلاثين عامًا، لتتكرر القصة مع العسكري الذي أصبح جدًا، إذ اعتقل ابنه وعذب حتى الموت لمعاقبة العائلة على نشاط حسان الذي كان قد هرب من البلاد ودافع عن ملف قيصر. ذهبت زوجته لتطالب بجثته بهدف دفنها، فكان الجواب قاطعًا: (لقد دفناه بأنفسنا). لم تحصل، إذًا، على الجثة، وإنما على تصريح توقعه لتشهد بأن زوجها قد مات نتيجة لـ (سكتة قلبية) خلال جلسة استجواب. سينفع ذلك التصريح لاستخراج شهادة وفاة تستطيع من خلالها الزوجة حل أمور الميراث، هذا كل ما في الأمر، فلا مكان لوداع أخير ولا لقبر يُزار.

لم يقل حسان الصغير وداعًا لأبيه في الشارع في تلك الجمعة من شهر كانون الأول/ ديسمبر 1980، ورافقه، بعد دموعه الطفولية، فراغ كبير اقترن منذ ذلك الوقت بغضب صامت أمام رضوخ والدته، ليوظفه في خدمة عائلات المختفين. ويقول حسان شلبي اليوم متذكرًا: (لم أكن أفهم، كان والدي أستاذًا معروفًا في العلوم الإسلامية، ورجلًا متدينًا ومؤمنًا يساعد الآخرين كثيرًا. لم يكن يحب الإخوان المسلمين لأنه لم يكن يريد تسييس الإسلام، ولكنه كان مثلهم معارضًا للنظام).

أرسل أبو حسان إلى سجن تدمر، كحال آلاف معتقلي الرأي، وخلال الأشهر الثلاثة التي مضت حتى إطلاق سراحه لم تكن العائلة تعرف أي شيء عنه. غداة عودته، أرسل الوالد العائلة بأكملها إلى المملكة العربية السعودية، (لقد فهم أنه قد أطلق سراحه بهدف مراقبته بشكل أفضل، وخصوصًا لدى إعادة التواصل مع أصدقائه المعارضين. خرج والدي من البلاد سرًا والتحق بنا في السعودية، حيث كبرت، ولم

تطأ قدمي أرض سورية إلا عندما بلغت الرابعة والعشرين من عمري). استقر حسان، لدى زواجه بسورية أصلها من مدينة التل مثله، في دمشق، وكان يشغله هاجس مساعدة أسر المساجين على معرفة أين يحتجز أقاربهم وكيف، مد يد العون لهم وحاول عدم تركهم في الجهل كما حصل معه عندما كان عمره سبع سنوات، حيث أهمل مع عائلته وغدا غير مرئي أمام حائط السلطات الصامت

في نهاية التسعينيات من القرن الماضي، التقى حسان بعماد الدين الرشيد، أحد مدرسي زوجته التي كانت تتابع دراستها. كان يدرس العلوم الإسلامية في كلية الشريعة في دمشق، وأصبح نائب عميدها، كان لدى الرجلين تقدير متبادل تجاه بعضهما. بشكل مشابه لحسان، كبر عماد داخل عائلة مشبعة بمفهومات العدالة الاجتماعية والقيم الإسلامية، وكحسان أيضًا، أدّت مراهقته دورًا كبيرًا في تشكيله. كان والده، الموظف في وزارة التربية، يدخن ويتحدث في السياسة مع أطفاله السبعة، بنات كن أم ذكورًا، لكن كان على تلك الأحاديث ألا تخرج من المنزل كي لا تثير شكوك النظام وتحاكي خطر الاعتقال. صنعت تلك الأحاديث حول الطاولة نظرة عماد ونشاطه المستقبلي.

عندما سحق الجيش مدينة حماه في شباط/ فبراير 1982، كان عماد في المرحلة الثانوية، وبعد ثمانية وثلاثين يومًا على المجزرة، قرر ذلك الطالب الثانوي الذهاب، من دون إخبار أي أحد، إلى تلك المدينة التي منعت السلطات الوصول إليها (من دون ذكر أي سبب)، أكد لأهله أنه ذاهب عند صديق، وإلى اليوم ما يزال والده يجهل تلك الخطوة. اشترى عماد بطاقة للذهاب إلى حلب، وكان على الباص أن يمر بحماه. عندما عبر الباص المدينة الشهيدة، كانت النظرات تحدق بالدمار، وقام الرجل الجالس بالقرب من عماد بتغطية وجهه بالكوفية الملفوفة حول الرأس وبكى، عنه يقول اليوم عماد: (جهش بالبكاء، خلال ساعة، لم يتوقف، لم يجرؤ أحد في داخل الباص على الكلام. كنا نتشارك ألمنا عبر الدموع). بشخصية كارزمية وبنعومة مطمئنة، ينتمي عماد إلى أولئك الذين لا يخجلون من بكائهم.

بعد لقائهما، مشى حسان وعماد جنبًا إلى جنب خلال سنوات من الدكتاتورية والقمع، ومع بعضهما شرعا في إنشاء التيار الوطني السوري. بوحي ديني، يعدّ التيار

الوطني السوري مظلة لجماعات مختلفة باتجاهات شديدة التنوع، إسلامية وعلمانية. وخلافًا للإخوان المسلمين، الذين ينظرون إليهم بوصفهم منافسين، فإن قادة التيار الوطني يعرفون بشكل جيد جدًا وقائع البلاد، وما يزال عدد من أعضائه يعيشون في سورية، أما أولئك الذين خرجوا إلى المنافي، فقد وصلوا إليها مؤخرًا، كحسان وعماد.

مع بعضهما، حمل حسان وعماد ملف قيصر إلى المجتمع الدولي، واتحدا حتى في حياتهما الخاصة، عندما اقترن ابن أحدهما ببنت الآخر. قبل المنفى، بدأ الناشطان الاثنان بعمل ميداني يهدف لمساعدة عائلات المساجين. فعندما كان حسان يعلم باختفاء أناس من حيه، كان يسأل معارفه سرًا، أو جيرانه الموثوقين: (هل تعرف شخصًا باستطاعته أن يعطينا معلومات عن فلان؟ أو شخصًا آخر باستطاعته استخراج معلومات عن مركز الاعتقال ذاك؟)

كان عملًا سريًا دقيقًا لتجهيز قائمة بـ (المختفين)، ورهانًا خطرًا أيضًا كي لا تقع على الشخص (الخاطئ). كان لا بد من سلوك حذر ودقيق دائمًا. قبل رؤية أحد عناصر النظام، عليك تشفير أفكارك، وطبيعة صلاتك بالسلطة، ووفقًا لتحليل حسان الشلبي: (في وقت حافظ، الأب، كان لموظفي الاستخبارات وطاقمها معظمهم دوافع أيديولوجية للوجود هناك. مع الابن، بشار، كان كثير منهم يريد كسب معيشته، إن رشوة الأخيرين كانت أكثر سهولة بغية الحصول على معلومات. لكن عليك ألا تنخدع، فمحاولة رشوة مؤيد للنظام قد ترسلك إلى السجن لتلتحق بمن تحاول إطلاق سراحه).

استطاع حسان، في أكثر من مناسبة، وبمساعدة الأغنياء السوريين في الخارج، تحرير محتجزين باستخدام النقود.

جعل العالم يعرف

(عماد، يجب أن تأتي، لا أستطيع التكلم عن ذلك بوساطة الهاتف). في خريف ذلك العام 2013، وأمام مجموع الصور، التي سميت بـ (ملف قيصر)، أدرك حسان

قوتها وأهميتها. حتى ذلك الوقت، لم تكن قد وصلته إلا بعض النسخ، وسيتخذ تجميعها كلها بالآلاف صدى مختلفًا. بعد (ليلة سوداء)، قرر حسان أن يعرض الملف بأكمله على عماد الدين الرشيد، صديق مشواره.

التزم ناشطا التيار الوطني السوري منذ أشهر بالمعارضة السلمية للنظام، وشاركا، من بين كثير من النشط، في تأسيس التيار الوطني السوري، أولى التمثيلات السياسية للقوى المعارضة لنظام بشار الأسد، في شهر أيلول/ سبتمبر 2011.

التحق عماد الدين الرشيد بحسان في ذلك البلد الحدودي لسورية، وكان يعلم بوجود صور للمساجين الموتى في مراكز الاحتجاز، وحكى له أحد أصدقائه، رجل أعمال، كيف حصل على دليل اعتقال شقيقه وقتله وابن عمه مقابل مبلغ 600.000 ليرة سورية (4.000 يورو)، إذ استطاع التعرف إلى الجثتين العائدتين إلى الشخصين السابقين مع أرقامهما عندما أراه أحد الضباط الصور في مكاتب الشرطة العسكرية. نبه رجل الأعمال عماد وطالبه أن تعمل المعارضة على تلك المسألة، ولكن الناشط السياسي لم يدرك أبعاد الأشياء في تلك المرحلة، ولكنه أدرك عندما وجد نفسه أمام مجموع تلك الصور، وشعر عماد، كحسان، بالانهيار. (لقد كنت قد رأيت من قبل معتقلين يموتون في أثناء اعتقالي وتعذيبي في الثمانينات، ولكن لم أر أبدًا شيئًا كهذا، هذه عمليات قتل منظمة ومنهجية). لم يستطع عماد النوم خلال أسبوع بعدها؛ إذ كانت ظلال الجثث تمر أمام عينيه في الليل، ولم يستطع شيءٌ منحه الراحة إلا بقاء الضوء مشتعلًا.

هذا الملف قنبلة، هل يجب إعطاؤه لمنظمة حقوق إنسان؟ أو تسليمه للأمم المتحدة؟ هل باستطاعة التيار الوطني السوري تحمل عبء حمله أمام المجتمع الدولي؟ يقول حسان شلبي شارحًا: (لقد نظرنا إلى هذا الملف بوصفه وديعة، كان ملف الدم السوري، لم يكن حصريًا بنا. لقد شعرنا بوجودنا أمام مسؤوليتين: كان على العائلات أن تعرف أولًا إن كان أقاربهم في تلك الصور، ومن ثم ميتون. وبعدها، كان من الواجب حصول تلك العائلات على العدل). قرر عماد وحسان الإبقاء على الملف بين أيدي التيار الوطني السوري، وكان ذلك موطن قوتهم وضعفهم؛ إذ لامهم معارضون، في ما بعد، على رغبتهم في الاستفادة من الملف لوضع حركتهم في

المقدمة سياسيًا، ولكن الرجلين اللذين يعملان سرًا منذ سنوات يعرفان جيدًا أن بعض جماعات المعارضة تُستخدم بوصفها أدوات، بينما تسلل عناصر للنظام في بعضها الآخر؛ ولذلك كانا يخشيان الإيقاع بهما. حتى ضمن التيار الوطني السوري، عمل عماد وحسان وسامي سرًا بعض الوقت.

كان أول ما يجب فعله هو تصنيف آلاف الصور والمستندات وفرزها، واستخراج رؤية جماعية لتحديد ما الذي سيجري عرضه على العلن وعلى القادة الغربيين وعلى القضاء. يحتوي ملف قيصر المهرّب على ثلاث فئات يوجد فيها ما يقارب الـ53.000 صورة. تحتوي الفئة الأولى على صور المحتجزين الموتى في مراكز اعتقال أجهزة الاستخبارات أو في السجون، ويحمل فيها المساجين أرقامًا ثلاثة، يرمز أحدها إلى فرع الاستخبارات الموقوفين فيه.

وتركز الفئة الثانية على صور جنود النظام القتلى بعيارات نارية خلال العمليات القتالية، وتحمل جثث العساكر أسماءهم الثنائية، التي غالبًا ما يضاف إليها ذكر (شهيد).

أما الفئة الثالثة، والأخيرة، ففيها صور مدنيين، أحيانًا لعائلات بأكملها، رجالًا ونساء وأطفالًا وأجدادًا، ممدين على الأرض في الأوقات معظمها في بيوتهم أو في المشرحة. سواء أقتلوا بعيار ناري أم بانفجار رمانة أم سيارة، تحمل أجسادهم رقمًا واحدًا وأحيانًا اسمًا.

خلال العامين بين 2011 و2013، نسخ قيصر عمله كله في أثناء خدمته، كل يوم بيومه بحسب مكان خدمته. كان يتبع الأوامر، ففي صباح يذهب المصورون إلى مستشفى المزة لالتقاط صور المعتقلين، وفي اليوم التالي، قد يرسلون إلى أحد الأحياء لتصنيف أجساد العائلات، وبعده قد يغادرون لتسجيل جثث العساكر القتلى خلال مواجهة ما أو ببساطة بسبب حادث سيارة.

من أين تأتي الجثث؟

عمران، زكريا

قرر المجلس الوطني السوري أن ينشر، في البداية وقبل كل شيء، صور المعتقلين. وقدر، بشكل خاطئ بالمناسبة، في وسائل الإعلام ولدى القادة الغربيين، عدد الصور الإجمالي بـ55.000 صورة معتقل قتيل، ولكنّ عشرات آلاف الصور تلك تتضمن ثلاث فئات: فئة المعتقلين وفئة جنود النظام وفئة المدنيين القتلى من خارج السجون، ولذلك ستعيد وسائل الإعلام والمحامين تحديد أن رقم الـ55.000 صورة تعود إلى 11.000 معتقل.

لتحليل الصور، قام عماد وحسان بتنحية الـ24.500 صورة العائدة إلى 1.036 جثة جندي، والـ4.025 صورة للضحايا المدنيين خارج السجون؛ وذلك بهدف التركيز على صور المعتقلين. في شقة في إسطنبول، ليست بعيدة من مطار أتاتورك، توجد فيها مكاتب التيار الوطني، غرق سامي كل ليلة في المستندات، فقد جافاه النوم منذ وقت طويل. صورة بعد أخرى، حدد أرقام الجثث، أحيانًا تكون الصورة ضبابية، أو بالكاد تكون أرقام الجثث مقروءة، ليتحول مهندس البناء القديم إلى مؤرشف قانوني. أحصي 26.948 صورة لـ6.627 معتقلًا سجنوا في أربعة وعشرين مركز اعتقال في دمشق[11]، صور كل منهم أربع مرات من المصورين العسكريين. المساجين معظمهم كانوا من فرعي الاستخبارات العسكرية 215 و227، وفي ما يلي نورد توزيعهم:

- 3.452 كانوا معتقلين في الفرع 215 التابع للاستخبارات العسكرية، ما يعادل نسبة 52.09 في المئة من الكل.
- 1.998 في الفرع 227 التابع للاستخبارات الجوية، أي 30.15 في المئة.
- 350 في فرع الاستخبارات الجوية، أي 5.28 في المئة.
- 278 في الفرع 216 للاستخبارات العسكرية، أي 4.19 في المئة.

[11] قائمة المراكز الأربعة والعشرين موجودة في الملحق.

- 112 في الفرع 235 للاستخبارات العسكرية، أي 1.69 في المئة.
- 99 في الفرع 251 لأمن الدولة، أي 1.49 في المئة.
- 54 في الفرع 248 للاستخبارات العسكرية، أي 0.81 في المئة.
- 49 في الفرع 220 للاستخبارات العسكرية، أي 0.74 في المئة.
- 45 في الشرطة العسكرية، أي 0.68 في المئة.
- 116 قادمين من فرع غير معرّف، أي 1.75 في المئة.
- 74 قادمين من فروع مختلفة، أي 1.12 في المئة.

في سورية، في مناخ من الحرب والخوف، نسخت الصور ومن ثم خُزِّنت بسرعة على قرص صلب، لكن هنا في هدوء المكتب، وجبت إعادة تسمية الصور مع رقم المعتقل ومن ثم ترتيبها وفقًا للفرع ولتاريخ الوفاة. كانت الفكرة امتلاك سهولة الوصول، بكبسة واحدة، إلى أي صورة كانت، حتى لو لم نكن نعرف هوية أي من أولئك الضحايا. سيلتحق عمران، أخصائي المعلوماتية الشاب، سرًّا أيضًا بسامي لتنفيذ تلك المهمة. غادر عمران البلاد لكونه مطلوبًا من النظام، فكان واحدًا من بين آلاف الناشطين الذين هجروا مهنتهم وبيتهم وعائلتهم في أغلب الأحيان، ليبدؤوا حياة جديدة في الخارج. حياة تتسم بالسرية لأولئك، الكثيرين، ممن يتابعون نشاطهم النضالي، ولذلك فهم يحتفظون بأسمائهم الحركية عندما يعرفون بأنفسهم بهدف حماية من تركوا وراءهم في البلاد من الاستخبارات.

مر عمران بمصر قبل أن يصل إلى تركيا، وكلفه عماد الدين الرشيد، الذي يعرفه، بمهمة إعادة تنظيم الملف. لم يكن لدى عمران سكن، وكان ينام في مكاتب التيار الوطني السوري، فما زال بسنينه الستة والعشرين طفلًا، ولم يكتشف الرعب إلا أمام الوجوه التي خلد فريق قيصر ذكراها، ويروي عمران بخصوص ذلك: (كوني كنت مجبرًا على رؤيتها، في ذلك الوقت، أصبحت مكتئبًا، وبدأت أكره الناس كلهم. كما لو أني فقدت أحاسيسي، وكما لو أن ملاك الموت[12] كان سيأتي ليأخذ روحي).

---

[12] خادم الله عند المسلمين.

مع النسيان علاجًا وحيدًا، فقد عمران بعضًا من ذكرياته، غرف المنزل الذي كبر فيه وأصدقاء مدرسته، إضافة إلى تفاصيل بعض الحوادث الدراماتيكية، كالذي حصل في ذلك الصباح في سورية، عندما اجتمعت العائلة في أحد مساجد المعضمية لوداع أحد أبناء العم الذي قتل على حاجز تابع لميليشيات النظام. انفجرت سيارة أمام دار العبادة، وتحت صدمة ما حدث، أمام شظايا الشبابيك الطائرة نهض عمران كالتائه وركض تجاه سيارته ليذهب إلى المستشفى، لكن تذكر بعدها أنه ترك عائلته وراءه في الجامع، فعاد ليجد المبنى محطمًا وقطع الأجساد متناثرة بين الحطام. جرى الاعتناء بوالديه وبأبناء عمه المصابين، لكن الصدمة النفسية بقيت حتى الآن؛ فقد ذهبت العائلة في صبيحة ذلك اليوم لدفن شخص واحد، وفي المساء، زاد ذلك الرقم ليبلغ سبعة وثلاثين. يقر الشاب الصغير بأن: (اليوم، تخذلني ذاكرتي، حاولت جاهدًا أن أركز، أن أتعلم). كيف يمكن أن تخرج سليمًا من عرضٍ فيه 27.000 صورة خالية من الإنسانية؟

التحق بهم قريبًا مؤرشف آخر، اسمه المستعار زكريا، وصل طبيب الأطفال الأسبق هذا من لبنان، البلد الذي هرب إليه، ودعاه عماد الدين الرشيد، الذي يعرف إمكاناته، قائلًا: (أنت طبيب، ما الذي تستطيع استخراجه من هذه الصور؟ هل بإمكانك، على سبيل المثال، إعداد قائمة بالإصابات التي يحملها هؤلاء الأشخاص؟) قبل زكريا إعداد جدول ببرنامج (إيكسل)، وخلال أسابيع تالية، ترك ملاحظات بخط يده على ورقة جانبية أمام الصور المعروضة في شاشة كمبيوتره. في البدء، كان الطبيب يعمل بشرائح زمنية مدتها عشر دقائق فقط، كان بعدها الغضب يغمره ويجبره على النهوض والمشي؛ كي لا يتحول ذلك الغضب إلى كراهية. يقول لنا اليوم محللًا: (تشبه تلك الصور مستودعًا لمقاتلي الدولة الإسلامية). ويفكر ببناته الثلاث الصغيرات اللواتي التحقن به في تركيا مع والدتهن، ما الذي سيرويه لهن؟ (الأمر الآن كما لو لم يكن لديهن تاريخ. لن نعود قريبًا إلى سورية، أين هي المدرسة التي كان بإمكاني أن أسير إليها قائلًا لهن: (هذا هو المكان الذي درست فيه)؟ لقد عشت في مدينة فيها خليط اجتماعي، أين هي اليوم؟ أصدقائي العلويين، أستاذ مدرستي المسيحي. أين هم؟ لم يعد الموزاييك السوري موجودًا).

(لقد غادرت سورية في ليلة مظلمة، من دون أن أذهب لأودع أمي وأقبلها). فقد قال له أحد الناشطين عبر الهاتف عند وصوله إلى المستشفى المناوب فيه: (عليك مغادرة البلاد، الآن). ذهب زكريا إلى بيت صديقه، واستعار هاتفه الجوال وأخطر زوجته التي جلبت له جواز سفره في اليوم التالي، وكسر بطاقة هاتفه وسحب بطارية جهازه. بعدها قام ناشط آخر بالتحقق من عدم ورود اسمه على المراكز الحدودية، وغادر إلى لبنان. (جاء بعد ثلاثة أيام عناصر من الاستخبارات ليبحثوا عنه في المستشفى، تأخروا كثيرًا).

أمام شاشة حاسبه في تركيا، يتجنب الرجل التفكير، ويحاول ألا يتوقف طويلًا أمام الصور، لكن بعضها تجبره على القيام بذلك، حيث تحدق نظرات الرجل في الصورة فيه كما لو أنه كان حيًا، ذلك الذي يصرخ ألمًا بفم مفتوح عندما يأخذه الموت. شعر زكريا أنه قريب منهم وبكى. هنالك أيضًا من يبتسم لحظة موته، وبشكل مدهش، يهدئ من روع المؤرشف.

في أحد الأيام، كان لا بد لطبيب الأطفال أن يقع على على الصورة التي أثارت به كثيرًا من الشكوك، التي تعود إلى مدرس عضو في مجموعة الناشطين التي كان، هو، جزء منها، وكان صديقًا مشتركًا مع عماد، ويؤكد زكريا أنه (كان شخصًا نقيًا، رفض كل المناصب في لجان التنسيق أو حتى في الائتلاف الوطني السوري. كان مهددًا وكان عليه أن يترك سورية، ولكنه فضل البقاء فيها). في كل ليلة، عندما كان الناشطون يتحدثون عن الحرية أو ينظمون تظاهرات في غرف ضيقة، كان الأستاذ يضع حاسبه على بطنه الممتلئ كطاولة صغيرة وكان يقول بضحك: (هذا هو مكتبي). انتهى به المطاف في المعتقل مدّة طويلة، وكان زكريا وعائلة الأستاذ يأملون في إطلاق سراحه مقابل مئات آلاف من الليرات السورية، لكن التفاوضات مع عناصر من النظام طالت، كثيرًا. حالما بدأ العمل في ملف قيصر، فكر زكريا به واكتشف صورته بعد أقل من أسبوع. لقد كان متأكدًا بنسبة 99 في المئة أن تلك الجثة تعود إلى صديقه. بعد ذلك بينما كان يعمل مع عماد، عرض عليه الصورة مع غيرها من الصور من دون أن يقول شيئًا، ومن طريقة نظر عماد إليها، فهم أنه لم يخطئ؛ إذ مات صديقهم تحت التعذيب داخل الفرع 215 للاستخبارات العسكرية.

أرقام وأسئلة

مع عماد، حدد زكريا 24 معيارًا لوصف الـ27.000 صورة للمعتقلين الموتى[13]:

- قاصرون، صغار عمرهم أقل من 18 عام
- بالغون
- أشخاص تزيد أعمارهم على 50 عامًا
- هزال
- إصابات جلدية (بسبب نقص النظافة والخدمات الطبية، أو بسبب القمل والبق والبراغيث التي تتكاثر في الزنزانات)
- تعذيب خفيف
- استخدام مواد كيماوية
- عيون مستأصلة
- جروح
- وشوم (بعضهم لديهم صليب، وغيرهم خارطة فلسطين، بينما كان لدى آخرين، شيعة أو علويين، سيف علي مرسومًا على الجلد، حتى أن أحدهم رسم وجه بشار الأسد على نصفه العلوي)
- خنق
- صدمات كهربائية
- تعذيب شديد (جروح عميقة)
- آثار ضربات السوط
- إصابات ظاهرة وخطرة
- وجود دم طازج (كان واضحًا أن بعض المعتقلين قد مات لتوه، حتى أن بعضهم قد قضى في المستشفى أو على الأرض في داخل الكراج الذي تجمّع فيه الجثث)
- بطن مفتوح

---

[13] المستند موجود في الملحق.

- تدخل طبي على الجسد
- طرف مكسور
- جبيرة
- ثقب في الجسد
- تشهّد (رفع السبابة لنطق الشهادة)
- عملية طبية
- إعاقة

هنالك صورة واحدة من بين الـ27.000 الأخرى لم يجر تصنيفها في ذلك الجدول؛ يقود ذلك من دون شك إلى إبداء الحشمة تجاه الامرأة الوحيدة في هذا الملف. كان عمر رحاب علاوي أربعًا وعشرين سنة، وكانت طالبة في السنة الثالثة للهندسة المدنية في جامعة دمشق. اعتقلت في شهر كانون الثاني/ يناير 2013 في إثر مشاركتها في تظاهرات، ماتت بعدها بوقت قصير، وجرى التعرف إليها بثيابها السوداء من بين الجثث الأخرى المصورة.

يشرح زكريا: (يدل المعتقلون الخمس والسبعون الذين قضوا مادين إصبعهم كعلامة لولائهم للإسلام على أنهم قد رؤوا الموت قادمًا إليهم، فنطقوا شهادة إيمانهم لأنهم كانوا يعرفون بأنهم سيموتون. كيف عرفوا؟ من دون شك أن العناصر الذين كانوا يستجوبونهم قد أفهموهم أنها كانت النهاية. تعود الثقوب على الجلد إلى طلقات نارية أو بشكل أندر إلى مثقب. ويتابع طبيب الأطفال: هنا، لم نكن قد سمعنا على الإطلاق بطريقة التعذيب بالمثقب، كانت تلك الممارسة موجودة في السجون العراقية في سنوات الألفية الجديدة، هل أتى رجال ميليشا عراقيون إلى سورية لينصحوا النظام أو ليشاركوا في القمع؟)

في النهاية، رأى المؤرشفان عدد جثث الضحايا يرتفع ليصل إلى 6.786، ولم يعدوا إلا أولئك الذين تمكنوا من تمييزهم بوضوح. أحيانًا، في بعض الصور، لم نكن نرى إلا النصف العلوي من الجسم، هل كانت تلك صورة لشخص قد جرى عده، أم لغيره؟ فضلوا، في تلك الحالة، عدم إضافته إلى قائمتهم.

في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2015، حددت منظمة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش)، التي حصلت على مجمل الصور العدد الكلي للصور بـ53.275 صورة منها 28.707 صورة لأشخاص ماتوا في الأسر، ونشرت تلك المنظمة تقريرًا من 86 صفحة: (لو تكلم الموتى. الوفيات الجماعية والتعذيب في المعتقلات السورية[14]).

توضح جداول الإيكسل التي أعدها زكريا، من بين ما توضحه، معاناة 2.939 ضحية من الجوع، و 2.769 من التعذيب، كما كان لـ1.510 منها جروحًا على الجلد، بينما تعرض وجه أو جسد 37 معتقلًا للتشويه بمواد كيماوية من بين الأخيرين، كان 12 ضحية معتقلين في الفرع 215 للاستخبارات العسكرية، وماتوا في شهر شباط/ فبراير 2013 وكانوا يحملون الأرقام المتتالية: 3831، 3832، 3833، 3834، 3835 (تظهر أسلاك كهربائية على جذع صاحب هذا الرقم)، 3836، 3837، 3838 (وضعت جثة هذا الشخص على ستار مستشفى مصنوع من النايلون أزرق اللون، ونلاحظ بجانبه سيقان أحد عناصر النظام الذي يرتدي أحذية صفراء اللون)، 3839 (ذاب جسد هذا الشخص)، 3840، 3841 و3842.

وكان هنالك صور لـ455 معتقلًا قُلعت أعينهم، ومن بينهم 189 كانوا في الفرع 215 وحده. ويُظهر الجدول حصول حالات عدة من قلع الأعين عام 2012 وبداية 2013، ومن ثم تقفز الأرقام بجنون لنجد حالات لعشرة وعشرين وثلاثين معتقلًا أرقامهم متعاقبة، فعلى سبيل المثال، تظهر الصور الملتقطة في 1 حزيران/ يونيو 2013 في مستشفى المزة 40 جسدًا من دون أعين، وفي 7 تموز/ يوليو 2013 كان العدد 57، لماذا؟ كيف؟ يبدو أن أغلب العيون قد استخرجت بأداة حادة، بينما أكل بعضها الآخر الحيوانات التي كانت تطوف في المستشفى مكان ترك الجثث مهملة أيامًا عدّة. يقول زكريا محللًا: (عندما نراقب تعاقب أرقام المعتقلين مقلوعي الأعين، لا نستطيع منع أنفسنا من التفكير في أن أعضاء من النظام قد قرروا في أحد الأيام بتر أعضاء هؤلاء الأشخاص الواحد بعد الآخر).

---

[14] https://www.hrw.org/report/2015/12/16/if-dead-couldspeak/mass-deaths-and-torture-syrias-detention-facilities.

الجدول غير كامل، ينقصه صور وأرقام، حتى أنه في بعض الأحيان تحمل جثتان رقم المعتقل نفسه، وبخصوص ذلك الأمر يشرح زكريا: (حاول النظام جاهدًا أن يلتزم بالروتين، لكنه لم يتحل دائمًا بالمهنية، ومن الممكن أن يخطئ عناصره؛ إذ لا يتقن كثير منهم استخدام الحاسوب، بينما يملأ الطبيب الشرعي دفاتره باليد. إضافة إلى نسخ قيصر تلك الصور في حالة من التوتر؛ ما يكون قد قاده إلى نسيان بعض الملفات المخزنة في كمبيوتر مكتب الشرطة العسكرية).

هنالك شيء أكيد: يظهر هذا الملف متواليات أرقام مهمة جدًا؛ فبعيدًا من التعذيب واكتظاظ الزنزانات والجوع القاتل، إن فك رموز تلك الأرقام يعني فهم آلة الموت السورية، نظامها وآلية عملها. وللتذكير، يحمل كل جسد مصور ثلاثة أرقام: اثنان -مسجلان على الجلد أو على قطعة شريط لاصق أبيض اللون- عائدان إلى رقم المعتقل ورقم الفرع القادم منه، بينما يضيف الطبيب الشرعي الرقم الثالث على ورقة أو على قطعة كرتون بيضاء تُوضع فوق الجثة لحظة التقاط الصورة.

الأرقام التي يعطيها الطبيب الشرعي واضحة، تتعاقب لأنه يرقم، في دفتره، الجثث الواحدة تلو الأخرى، من 1 إلى 5.000، ومن ثم ينتقل إلى السلسلة الثانية رقم 1/ب، رقم 2/ب، رقم 3/ب.. حتى يصل إلى 5000/ب، ومن ثم سلسلة ثالثة 1/ث، 2/ث، 3/ث... لماذا لا تحتوي السلسلة الثالثة على ثالث أحرف الأبجدية العربية، أي ت، وإنما على رابع الحروف، ث؟ لا نعرف. ولماذا تحتوي السلسلة على 5.000 رقم؟ بسبب الروتين بكل تأكيد.

كان الرقم الخاص بالمعتقل أكثر الأرقام تعقيدًا على الفهم، هل كان العناصر يعطون هذا الرقم عند موت السجين وإخراجه من الزنزانة؟ كان النظام يرقم الجثث وفقًا لتراتبية وفاتها، بصرف النظر عن سبب الوفاة، سواء أكان الجوع أم المرض أم الاختناق أم التعذيب. أو أن الرقم يتوافق ورقم ملف الشخص الموقوف لحظة دخوله المعتقل؟ قد يعيد الجنود -أو في أغلب الأوقات المعتقلين المكلفين بفعل ذلك- استخدام رقم ذلك الملف لإعادة نسخه على الجسد. وتقودنا تلك الفرضية إلى فرضية أخرى: وهي الإعدام الجماعي للمعتقلين ذوي الأرقام المتعاقبة. ووفقًا لتحليل زكريا: (بإمكاننا أن نتخيل أنه قرار من مدير معتقل ما، إذ يكون قد قال في أحد الأيام:

(أعطوني قائمة المساجين، واقتلوا أولئك بين هذين الرقمين). بالتأكيد سيكون هذا الأمر أكثر رعبًا، لكن لا نعرف حتى الآن، ولن نستطيع أن نعرف أو أن نحصل على أدلة). ومن ثم أضاف: (نظام العمل في المعتقلات مفصول عن بعضه، فكل عنصر أو ضابط ينفذ عمله من دون أن يعرف ما الذي يحصل في المكتب المجاور. كان على قيصر الذهاب إلى المستشفى لتصوير الأجساد ومن ثم العودة لأرشفة الملفات في مكتبه، هذا كل شيء. لم يذهب أبدًا إلى معتقل، ولم يدخل على الإطلاق إلى المستشفى. ومن الممكن أن يمتلك رئيس مركز اعتقال سلطة حقيقية أو معلومات أقل من أحد تابعيه، إن كان للأخير صلة بعائلة الأسد، ومن الممكن لشخص مرؤوس قريب من الرئيس ألا ينفذ أمرًا صادرًا عن قائده).

حمزة الخطيب، ثلاثة عشر عامًا، هنا.

في إسطنبول، في مكتب التيار الوطني السوري، يتحول زكريا الطبيب إلى معلم، ويروي زكريا المعارض حربه، خالطًا دقة مسار الحوادث بالذكريات، وحاملًا قلمًا في يده كان يرسم به الأجساد على لوح أبيض اللون، ويخط دوائر تمثل زنزانات، يسجل أرقامًا ويشير إلى نقط استجواب كثيرة ومن ثم يلتقي بأسفه: مغادرة بلده ومنزله، والثورة. (إن النشاط داخل سورية ليس كالنشاط من خارجها)، نشاطًا لم يعتقد أنه قادر على خوضه، ولم يتخيل أبدًا إمضاء ليال في أرشفة صور جثث. عندما انطلقت الثورة في تونس ومصر، لم يكن زكريا يرى أن الشروط قد اجتمعت لتندلع في بلده، ولكنه كان يعرف أنه إما أن تقوم ثورة في ذلك الوقت أو لن تقوم أبدًا. (كانت كموجة قادمة لتحملك، كنا نشعر بالسعادة عند الذهاب للتظاهر، عند الهتاف. لا أعرف من أين أتتنا تلك الشجاعة، تعلمنا نزع أحذيتنا الجلدية وارتداء أحذية رياضة أو خفافات لسهولة الركض في التجمعات).

بتاريخ 29 نيسان/ أبريل 2011، بعد شهر من بدء الثورة، هل ركض حمزة الخطيب ليتجنب الاعتقال؟ بعمر ثلاثة عشرة عامًا، أضحى الصبي، ذا الصحة الجيدة والمبتسم على صورته الشخصية أيقونة للثورة السورية بدرجة مماثلة لمحمد بوعزيزي

الذي حرق نفسه في تونس ليطلق الربيع العربي، أو خالد سعيد الذي عُذب حتى الموت في مدينة الإسكندرية في مصر. في صباح ذلك اليوم، ترك حمزة قريته الصغيرة مع عائلته وأصدقائه بغرض الذهاب إلى درعا للتظاهر، في المدينة الجنوبية التي تصدرت مشهد الثورة السلمية، عمّد الناشطون الإلكترونيون تلك الجمعة باسم (يوم كسر الحصار عن درعا)، وبالفعل كانت المدينة الكبيرة محاصرة من الجيش. لكن حمزة لم يصل إلى حدود المدينة؛ إذ اعتقله جنود على حاجز يبعد ما يقارب عشرة كيلومترات عنها. أعيدت جثته إلى أهله بعدها بشهر وعليها آثار عيارات نارية على الأذرع، وقطع عضوه التناسلي وتورم وجهه، وازرق جسده بسبب الأورام الدموية فيه. نشرت عائلته مباشرة بعدها مقطع فيديو لجسده الأبتر على الإنترنت؛ ليُنده باسمه في التجمعات ولتُرفع صور ذلك التلميذ المدرسي. أعطى النظام روايته على محطة تلفزيون الدولة: حمزة الخطيب كان شابًا صغيرًا وقع تحت تأثير دعوات للجهاد، ومات خلال هجمة شارك فيها ضد مساكن الضباط في قرية صيدا بهدف اغتصاب نسائهم، حتى أن تقريرًا طبيًا نشر في الأول من حزيران/ يونيو قد أشار إلى (خلو الجثة من وجود أي علامات تعذيب أو كدمات أو أعمال عنف). ووفقًا للطبيب الشرعي، المذكور في التقرير السابق، فإن العلامات المرئية على الجثة تعود إلى تفسخها بسبب عدم قدرة السلطات على التعرف بسرعة إلى صاحبها الشاب، وأكدت وكالة الأنباء الرسمية سانا أن: (التقرير قد أغلق الباب أمام الكذب والادعاء، وأظهر الحقيقة).

بعدها بثلاث سنوات، أحضر تهريب صور قيصر الدليل على تعذيب الفتى المراهق من جهاز الاستخبارات، إذ كانت صورة جثته من بين مئات صور المدنيين الذين قتلوا وصنفوا (إرهابيين) من النظام. كانت جثة حمزة الخطيب تحمل الرقم 23.

وأظهرت صورة أخرى حثة ثامر الشرعي، المراهق ذو الخمسة عشر عامًا الذي اعتقل في درعا في يوم اعتقال حمزة نفسه، فمزق جسده بأحد عشر عيارًا نارًا وبجرح كبير في فكّه، وأعيدت جثته إلى أهله بعد اعتقاله بشهرين. كانت صورة ثامر تحمل الرقم 12.

تؤكد لنا صور أطفال درعا أنه يجري التقاط صور مدنيين في المعتقلات خارج دمشق، ومن ثم يجري تجميعها وأرشفتها في كنف الشرطة العسكرية بوساطة فريق

قيصر. هنالك صور تشبه صور حمزة الخطيب وثامر الشرعي -كان الشابان معروفين وجرى التعرف إليهما مباشرة بفضل صورهما المؤرشفة- ولكن الصور الأخرى؟ إلى من تعود؟ كصورة تلك العائلة التي أبيدت عام 2012، ومددت جثثها على البلاط الأبيض المرقع بالأسود داخل أحد المنازل، وكان أفرادها جميعهم يحملون الرقم نفسه مرتين: مرة على شريط لاصق أبيض وضع على الجلد، ومرة على كرت خشبي تُرك على الجسد. يبدو أن مراهقَين، في تلك الصورة، قد أصيبا بطلقة في الرأس، ويحملان رقمي 4 و29. وتوجد فيها امرأة كشطت مؤخرة رأسها وعلّق الرقم 18 على ثوبها، ومددت بجوار امرأة أخرى تمد عليها ذراعها وتحمل الرقم 19. وكان هناك أيضًا رجل مسن ممدد بشكل مستقيم شبه وقور، كان عاريًا وما زال يحمل أداة الحماية ضد السلس، علق على جذعه شريط لاصق يحمل الرقم 9، وعلى ساقه قطعة خشب مختومة بالرقم ذاته.

(كيف أصبح هؤلاء أرقامًا من دون أسماء؟ يجب أن تجد تلك الضحايا هوياتها، لعائلاتهم الحق في معرفة ما حصل). يشعر زكريا بالمرارة في نهاية ذلك العام 2014، أي بعد عام ونصف على خروج قيصر؛ فهو لا يستوعب ما الذي يفعله العالم؟ ما الذي يفعله السياسيون والمجتمع الدولي؟ (كنا نظن أن عملنا سيحرك الرأي العام، عرضت الصور أمام الاتحاد الأوروبي، وأمام الكونغرس الأميركي في واشنطن، وأمام مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة. لكن السياسيين يريدون قلب الصفحة والتفاوض مع بشار الأسد، كيف وصلنا إلى هنا؟).

تاسعًا: دبلوماسية الخطى الصغيرة، غير فاعلة

خلال أشهر، قام عماد الدين الرشيد (سياسي) المجموعة، وحسان الشلبي (المسؤول التنفيذي) -كما كان يحب أن يقدم نفسه قبل أن يتراجع عن القضية في نهاية عام 2014 لأسباب شخصية- بحمل الملف إلى الأوساط الدبلوماسية والقضائية. في نهاية عام 2013، بينما كان سامي وعمران يؤرشفان الصور في إسطنبول، كان عماد وحسان يكشفان في دائرة ضيقة طبيعة الصور، ويسبران ردات فعل الخبراء خلال لقاءات غير رسمية، ويتواصلان مع خبراء قانون دوليين. اقتنع الوزير القطري بسرعة بضرورة دعم التيار الوطني السوري ماديًا، وحال رؤيته الصور العشرين التي فردت على مكتبه، أدار خالد العطية نظره وحذر قائلًا: (يجب محاكمة هؤلاء المجرمين. إن لم نفعل شيئًا، سيحاكمنا التاريخ).

بعدها ببضعة أسابيع، في باريس، أدت ردة الفعل المضطربة للوران فابيوس، ولوزراء الخارجية العشرة لدول المجموعة الرئيسة لأصدقاء سورية، على الفيديو الذي كشف عن الملف إلى إقناع عماد الدين الرشيد بأن الأدلة على إرهاب الدولة السورية قد أضحت موجودة الآن؛ ولذلك غادر عماد الدين الرشيد وهو مفعم بالثقة إلى سويسرا، حيث كان من المقرر أن تستفتح التفاوضات بين جزء من المعارضة والنظام في مونترو في 22 كانون الثاني/ يناير وأن تستكمل في جنيف. كان مقتنعًا أن جنيف 2 سيكون منبرًا جيدًا.

لدعم الأثر الذي كان من الواجب أن تخلفه تلك الصور، كشف المعارض عن وجودها حصريًا ليومية الغارديان البريطانية ولقناة الأخبار الأميركية CNN. نشرت وسيلتا الإعلام السابقتين على موقعهما على الإنترنت بعض الصور والتقرير الكامل لمكتب كارترروك وشركائه، الذي يؤكد أن (الفريق قد وجد أن الشاهد [قيصر] كان ذا صدقية وكانت معلوماته حقيقية. وعلى الرغم من معارضته للنظام الحالي، فقد تحدث عن تجربته بصدق، ولم يبالغ أبدًا خلال شهادته، إذ لم يدع حضور

الإعدامات [المعتقلين]. تظهر استنتاجات التحري أن شهادته موثوقة ومن الممكن أن تستخدم في أي إجراء قضائي).

أشارت محطة CNN إلى (التعذيب المنهجي لنظام الأسد)، والتقت، من بين غيره، بديسموند دا سيلفا، مدير فريق الخبراء. اعترف مدعي المحكمة الخاصة لسيراليون بأن فريقه قد بدأ العمل (ببعض الشك)، ولكن صور أجساد المعتقلين الموتى من الجوع التي رأوها (تذكر بصور الناجين من معسكرات الموت النازي بعد الحرب العالمية الثانية [...]. من الممكن أن تدعم هذه الأدلة قضية جرائم ضد الإنسانية من دون أدنى شك [...]. بالتأكيد ليس من صلاحياتنا اتخاذ قرار، كل ما يمكننا فعله يتلخص في تقويم الأدلة وفي قول إن كان بإمكان محكمة ما قبولها بوصفها مستندات صادقة).

على طاولة تفاوضات السلام في مؤتمر جنيف 2 في 22 كانون الثاني/ يناير، رفع أحمد الجربا، رئيس الائتلاف الوطني السوري إحدى الصور على مرأى من ممثلي النظام. كان في الصورة كثير من الأجساد المعراة والهزيلة والممددة بجانب بعضها، ويبدو أنها قد ماتت من الجوع. طلب أحمد الجربا استقالة بشار الأسد وتفكيك الأجهزة الأمنية المسؤولة عن القمع. في الجانب المقابل، كان من السهل على دمشق أن تدين اليد المنحازة لقطر وراء ذلك التقرير، بينما أكدت موسكو -الداعم غير المشروط للنظام السوري- ضرورة التحقق من تلك الادعاءات. تمتنع روسيا منذ بداية الثورة والحرب عن إبداء أدنى نقد للنظام الذي يعدّ حليفها منذ عقود، وزبونها السابع في شراء الأسلحة، الذي يمنحها نقطة انفتاح على البحر المتوسط بفضل القاعدة البحرية في طرطوس، حيث تستطيع تحريك سفنها وتجهيزها.

بعد مرور عام، في كانون الثاني/ يناير 2015، وفي لقاء له مع المجلة الأميركية Foreign Affairs، أكد الرئيس السوري انتقاداته بخصوص ذلك التقرير، وفي أحد الأسئلة ذكره الصحافي باتهامات تخص (القصف العشوائي لأهداف مدنية، والأدلة التي قدمتها صور المنشق ذي الاسم الحركي قيصر [...]، التي تظهر عمليات تعذيب مرعبة وانتهاكات في السجون السورية). فكان جواب الرئيس السوري: (من

التقط الصور؟ من الموجود في الصورة؟ لا أحد يعرف. ليس هناك أي تحقق من هذه الأدلة. ومن ثم فإنها جميعها ادعاءات بلا أدلة).

- أصر الصحافي: (لكن صور قيصر جرت دراستها من محققين أوروبيين مستقلين).
- (لا لا. لقد كان ممولًا من قطر. ويقولون إنها من مصدر لم يجرِ الإعلان عن هويته. لا شيء واضح ومثبت إذًا. ليس من الواضح صور من هي. هناك صور لرأس مقطوع فقط، على سبيل المثال، مع بعض الندوب، من قال إن ذلك من فعل الحكومة وليس من فعل الثوار. من قال إن هؤلاء الضحايا سوريون وليسوا من جنسية أخرى، فقد نشرت صور في بداية الأزمة كانت قد التقطت في العراق واليمن.).

خيبة الأمل

يتذكر عماد الدين الرشيد مرحلة جنيف 2 ويقول (كان لدينا كثير من الأمل، كنا نعرف أن تلك الصور لن تؤدي إلى سقوط بشار الأسد؛ لأن النزاع قد أصبح معقدًا جدًا مع دعم روسيا وإيران للنظام. لكننا ظننا أن تلك الأدلة القاطعة ستساعدنا، بأنها ستهز الضمائر وتؤثر في التفاوضات).

في فرنسا، نشرت جريدة اللوموند التي تغطي المحادثات مقالة أولى عن (انشقاق قيصر، مصور البربرية السورية)، وانتشرت قصة ملف قيصر في وسائل الإعلام الغربية. في باريس، أدت الصور إلى ارتياح في أوساط بعض المثقفين والباحثين العاملين على الشأن السوري، إذ قالت بسمة قضماني، مديرة مركز دراسات مبادرة الإصلاح العربي: (أخيرًا! هنالك ما سيكشف أبعاد الرعب). كانت السيدة الفرنسية السورية الناطقة باسم المجلس الوطني السوري، وعندما رأت أن المجلس تنقصه الصدقية، غادرته بعد ثمانية أشهر لتستأنف أبحاثها وتكرس نفسها للجهد الإنساني لدعم الشعب السوري، وتابعت القول (شعرنا بالارتياح لوجود من سيفضح علنًا تلك الفظاعات التي لا يراها أحد. لدينا كثير من الأصدقاء الذين ماتوا في السجن. كنا نعرف أنها

أماكن موت، ولكن إلى لتلك الدرجة! لقد تفاجأنا بتلك الأرقام، بذلك التوثيق وتلك الصور المنهجية. ذلك الاهتمام بتسجيل كل شيء. لا يمكننا وصف الرعب عند تجاوزه حدًا معينًا، نحن بحاجة إلى وقائع وصور تتحدث؛ فلا أحد قادر على وصف بربرية كتلك باستخدام الكلمات).

لكن التفاوضات بين المعارضة والنظام قد أفضت إلى الفشل، ورفضت دمشق أي حديث عن الانتقال السياسي، عارضة نفسها حصنًا ضد إرهاب الدولة الإسلامية. في الأسابيع التي تلت، اختفى قيصر من وسائل الإعلام وانضم إلى مخابئ الواقعية السياسية. كثير من صور الموتى السوريين من الجهات كلها على القنوات الإخبارية، وها هي همجية الجهاديين تغطي على معاناة الناس المدنيين اليومية في ظل قمع النظام، أما الرأي العام فقد أصابه السأم واقتنع أن النزاع قد أضحى (غير مفهوم)، ولم يهتم كثير من الدبلوماسيين بالملف بشكل حقيقي.

بعد خمسة أشهر على رفض توجيه ضربة إلى النظام السوري المسؤول عن الهجوم الكيماوي على الغوطة، في ضواحي دمشق، بقيت واشنطن ثابتة على خطها السياسي: الأولوية ليست لإسقاط بشار الأسد. احتفظ الأميركيون في رأسهم بالتجربة العراقية لعام 2003، إذ أدت إطاحتهم النظام السياسي إلى فوضى سهلت انبثاق الدولة الإسلامية؛ ولذلك ما يهم فعله اليوم هو احتواء التقدم الواضح للجهاديين في العراق وفي سورية، حتى ولو عنى ذلك ترك بشار الأسد وأعضاء نظامه في السلطة، وانغرست تلك الفكرة في العقول: إنّ طرد بشار الأسد من السلطة سيفتح الباب أمام الأسوأ.

كانت أميركا خصوصًا ترغب في الانسحاب من الشرق الأوسط، وسحبت قواتها من العراق، وتريد الآن حل نزاعها مع إيران. أمام تلك العطالة السياسية، اجتمعت حفنة من المثقفين في باريس في نهاية شتاء عام 2014 في محاولة لإعادة إحياء ملف قيصر، وكان من بينهم بسمة قضماني وزياد ماجد وياسين الحاج صالح.

خبر زياد ماجد[15]، الأخصائي في العلوم السياسية وفي التحول الديمقراطي في العالم العربي، الحرب الأهلية اللبنانية، وشارك السكان ألمهم عبر عمله مع الصليب الأحمر، ويدرّس اليوم في الجامعة الأميركية في باريس. أما ياسين الحاج صالح[16]، الطبيب والكاتب السوري، فقد أمضى أكثر من ستة عشر عامًا في سجون النظام بين عامي 1980 و1997. بعد بداية الثورة، عاش سنتين ونصف السنة في الخفاء قبل أن يُجبر على الهرب من البلاد في نهاية عام 2013 ليلجأ إلى تركيا. تعرض شقيقه فراس إلى الخطف من ميليشيات الدولة الإسلامية في مدينته الأم الرقة في صيف عام 2013، وتعرضت زوجته سميرة الخليل، الناشطة والمعتقلة السياسية السابقة، إلى الخطف في إحدى ضواحي دمشق في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2013، ويرجح أن تكون جماعة إسلامية (جيش الإسلام) قد خطفتها عندما كانت مع ثلاثة ناشطين آخرين (لم يُعثر عليهم حتى صيف عام 2015، وقت كتابة هذا الكتاب) من بينهم المحامية رزان زيتونة المعروفة منذ سنوات بنشاطها في الدفاع عن حقوق الإنسان. أسست رزان زيتونة مركز توثيق الانتهاكات في نيسان/ أبريل 2011، ولجان التنسيق المحلية في حزيران/ يونيو 2011. بدأ المركز بتجهيز قائمة بضحايا قمع التظاهرات، ومن ثم قام بالتركيز على المدنيين القتلى من جراء عمليات القصف، والمختفين أو المعتقلين من النظام، والأشخاص المخطوفين أو الذين اغتالتهم الدولة الإسلامية. شكل ذلك مهمة رئيسة للبدء يومًا ما بكتابة ذاكرة ما حدث.

في ذلك المساء في باريس، كان الجميع يخشى الصمت المحيط بملف قيصر، ووفقًا لتحليل بسمة قصماني: «إن عدم نقل الملف إلى المستوى القضائي سيكون بمنزلة إخراج السوريين من النظام الدولي، ووضعهم خارج القانون بالقول لهم: (ليس لديكم أي حقوق؛ فقد سلبها منكم الأسد، لن يسمح لكم بالوصول إلى العدل

---

[15] زياد ماجد، Syrie. La Révolution orpheline, Actes Sud, 2014.

[16] ياسين الحاج صالح، Récits d'une Syrie oubliée. Sortir la mémoire des prisons, Les Prairies ordinaires, 2015.

لإعادة تأسيس حقوقكم). سيكون ذلك كارثيًا؛ لأنه من الممكن أن يتحول الضحايا إلى وحوش إن لم تجرِ إعادة تأسيس معايير الخير والشر.»

وشرح زياد ماجد: «لم نفهم كيف مر ملف كهذا بشكل غير ملحوظ إلى هذه الدرجة. تظهر الأرقام على الجثث مدى اتساع ظاهرة قمع النظام المنهجي. لكن كان من اللازم توافر إرادة سياسية للدفع بهذا الملف إلى الواجهة، وقد قررنا فعل شيء ما في فرنسا.» نشر ياسين الحاج صالح من على منبر موقع lexpress.fr (صناعة القتل في سورية[17]): (ماذا عن المدن السورية الأخرى: حلب وحمص واللاذقية ودير الزور وغيرها؟ لا نعلم شيئًا، ولكن لا نملك أي سبب وجيه لافتراض أن القتل محصور في دمشق وحدها. يشير عدد ضحايا التعذيب والصور التي بحوزتنا إلى وجود صناعة موت).

ملف قيصر في باريس

في إثر ذلك الاجتماع، اقترح المثقفون المجتمعون ثلاثة لقاءات، نظمتها شبكة النساء السوريات والجمعية السورية للمفقودين ومعتقلي الرأي، في البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ وفي معهد العالم العربي في باريس وفي منظمة العفو الدولية. بالنسبة إلى منظمة العفو، أكد ملف قيصر تقاريرها المختلفة، كالتقرير الذي نشر قبله بسنتين (أريد أن أموت). في صباح يوم 13 آذار/ مارس 2014، استقبلت منظمة حقوق الإنسان المجموعة التي قامت هربت قيصر، إضافة إلى ديفيد كرين، أحد خبراء التقرير القانونيين، في باريس. روى عماد الدين الرشيد وحسان شلبي تفاصيل العملية، بينما تحدث ديفيد كرين عن صحة الصور، وتحدث الطبيب السوري المقيم في بوردو، شادي جنيب، باسم الجمعية السورية للمفقودين ومعتقلي الرأي. تجهز هذه الجميعية نفسها لمساعدة العائلات في إيجاد أقاربهم المفقودين بين ربيع عام 2011 وصيف عام 2013، وهي المرحلة التي جرى التقاط الصور المهربة فيها، إذ يتحقق أعضاء

[17] http://www.lexpress.fr/actualite/l-industrie-du-meurtre-en-syrie_1499834.html

من الجمعية، استنادًا إلى صورة أو معلومات أعطتها العائلة، إن كانت تلك الصورة تتطابق وإحدى صور ملف قيصر.

أخبرنا شادي جنيب، اللاجئ في فرنسا مع عائلته منذ صغره، في ما بعد: (لطالما عرفت أن النظام كان من دون رحمة وكان يعذب المساجين. كان أهلنا يحدثوننا عن ذلك منذ كنا صغارًا، وعندما كنا نعود إلى سورية، كنا دائمًا نخاف أن يجري توقيفنا في مطار دمشق وأن نختفي. قرأنا القوقعة[18] لمصطفى خليفة، ولأكن صريحًا، ظننّا أن الكتاب فيه بعض المبالغة الأدبية، ولكني فهمت عندما رأيت الصور).

حضر كاتب القوقعة اللقاء أيضًا، وأصبحت روايته، التي يتحدث فيها عن السنوات الثلاث عشرة التي أمضاها في سجن تدمر بين عامي 1981 و1994، مرجعًا. أكد مصطفى خليفة أن مؤسسة القمع في النظام لا تعود إلى بداية الثورة فحسب، بل إنها ركن من أركان النظام، (ولكن علينا أن نعترف بفارق وحيد متعلق بدرجة القمع. ففي حقبة الأب، مات كثير من المعتقلين تحت التعذيب، لكن لم يكن الموت هدفًا. لم يكن الأمر خطرًا إن مات معتقل تحت التعذيب الذي كان يهدف إلى الحصول على أكبر قدر من المعلومات وإذلال المساجين. اختلف الأمر اليوم، ففي حالات عدة في سجون الابن، بشار الأسد، يكون الهدف هو القتل حصرًا).

ويتساءل معتقل الرأي الأسبق حول (انعدام حركة) بعض الدوائر الدبلوماسية التي تسوّغ ذلك بخوفها من انهيار الدولة السورية وما قد ينتج منه من فوضى. (لكن هل هناك فعلًا دولة في سورية، بالمعنى العصري للكلمة؟ كبناء قانوني وسياسي، وعقد اجتماعي في كنف المجتمع لتنظيم الحياة والمصالح وحماية المواطنين؟ لا؛ فالأسد يدير البلاد كما لو كان يدير مزرعة، أو ملكًا خاصًا، إذ يملك القائد الإقطاعي الأرض والناس معًا، لذلك لا وجود فعلي في سورية لدولة علينا أن نخشى انهيارها).

انتهى المؤتمر وتفرق الصحافيون ليصل بعدها رجل يعرف سورية جيدًا، هذا الطبيب السابق الذي أصبح دبلوماسيًا معروف بكلامه الصريح وحماسه للعمل، عيّن

(18) La Coquille. Actes Sud, 2007.

سفيرًا لفرنسا في دمشق في ربيع عام 2009، وكان إريك شوفالييه في منصبه عند اندلاع الثورة. ذهب مع نظيره الأميركي في 7 و8 تموز/ يوليو 2011 إلى مدينة حماه حيث تظاهر آلاف السوريين. في تلك المرحلة، أخبر ذلك الدبلوماسي وزارة خارجيته أن نظام بشار لن يسقط بسهولة، ولكننا في باريس كنا نريد تصديق قصة سقوطه السريع. أمام قمع الدولة؛ قرر نيكولا ساركوزي، رئيس الجمهورية، إغلاق سفارة فرنسا في دمشق؛ ليترك إذًا إريك شوفالييه سورية في 6 آذار/ مارس 2012، ويكمل من بعدها عمله من العاصمة الفرنسية، ويضاعف صلاته مع معارضة الخارج، ومع المنظمات غير الحكومية الإنسانية، وليصل إلى حد حمل حقائب النقود إلى الحدود التركية - السورية لمساعدة المجالس المحلية للمدن المحررة التي كانت تحل محل مؤسسات النظام.

سمع إريك شوفالييه للمرة الأولى بملف قيصر، كباقي أعضاء وزارة الخارجية، في شهر كانون الثاني/ يناير 2014 خلال لقاء أصدقاء الشعب السوري في باريس في مقر وزارة الشؤون الخارجية. وفي شهر آذار/ مارس، استغل فرصة مرور مجموعة قيصر في فرنسا ليبدأ مناقشة معها، قال شارحًا: (كنا نعرف في الوزارة أن فريقًا دوليًا من القضائيين وخبراء الطب الشرعي قد عملوا على الملف الذي يتسم بالجدية). لذا، رافق السفير الفرنسي إلى سورية كلًا من عماد الدين الرشيد وحسان شلبي وديفيد كرين في اجتماع عمل حضره عشرات الأشخاص، من بينهم ممثل قصر الإليزيه وممثل عن مركز الأزمة، إضافة إلى أعضاء من إدارة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية ومنظمات حقوق الإنسان، وغيرهم من إدارة شمال أفريقيا والشرق الأوسط، ومساعدة لوزيرة حقوق الإنسان المسؤولة عن البُعد الدولي للهولوكوست ولأعمال السلب وواجب الذاكرة. دار الحديث عن الملف وعن الإرهاب والنشاط الدبلوماسي. بعد سبعة أشهر من تراجع الأميركان عن تهديدهم بتوجيه ضربات جوية بعد الهجوم الكيماوي على ضاحية دمشق، واستحالة ذهاب باريس في ذلك الاتجاه لوحدها من دون واشنطن، كان ملف قيصر الفرصة لاستعادة اليد العليا، ووفقًا لإريك شوفالييه: (لإعادة تأكيد موقف فرنسا القائل بأن للنظام مسؤولية بالغة في هذا الصراع. ولهذا الملف أهمية تاريخية كي لا تُخفى تلك الجرائم).

جرى اللقاءان الآخران لمجموعة قيصر، اللذان نظمهما المثقفون، أما حضور ملم بالموضوع، فقبل لقائهم في منظمة العفو الدولية بيوم، أي في 12 آذار/ مارس، كان اللقاء في البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ بدعوة من النواب الخضر الأوروبيين إيزابيل ديورانت ودانييل كون بينديت، تحدث خلال ذلك اللقاء كل من الشادة شلبي والرشيد وخليفة عن (التعذيب الجماعي) أمام ما يقارب الثلاثين شخصًا. وفي مساء 13 آذار/ مارس، توجهت المجموعة إلى معهد العالم العربي، إذ افتتح رئيس المعهد، جاك لانغ، المؤتمر بنفسه.

إسطنبول، ربيع 2014

قرر إريك شوفالييه، بموافقة وزارة الخارجية الفرنسية، الذهاب بعيدًا ولقاء قيصر شخصيًا. ذهب إلى إسطنبول حيث وجد المصور الأسبق ملجًا له لبعض الوقت، ونظمت مأدبة عشاء في منزل عماد الدين الرشيد، وكان حسان الشلبي حاضرًا برفقة قنصل فرنسا ومترجم. كان الوزير يأمل في حضور قيصر، ولكن الساعة دارت ولم يحضر الأخير. شرح عماد الدين الرشيد لضيفه أنه كان خائفًا ولم يكن يرغب في رؤية أحد، وبالمناسبة، كان قيصر قد رفض لقاء ستيفين راب، السفير الأميركي لشؤون العدالة الدولية. لذلك أرسل عماد من يُحضر سامي، أكثرهم قربًا إلى قيصر وكان يقطن الحي ذاته. بكلامه القليل وتحفظه ذي الطابع الدفاعي، أكد سامي، مهندس البناء الأسبق، أن قيصر لا يرغب في الظهور علنًا. تجاوزت الساعة منتصف الليل، كان إريك شوفالييه، كالآخرين، يشرب كؤوس الشاي الواحد تلو الآخر، صبورًا ولكن بحرج، وشاهدًا من دون قصد على التوترات التي تعصف بالمجموعة. وكيف كان بإمكانه أن يشعر بطريقة مختلفة؟

ترك قيصر سورية منذ عشرة أشهر تقريبًا، وجرى التحقق من صحة الصور، ولم يحدث أي شيء، لا على الصعيد السياسي ولا القضائي. سافر المصور الهارب من بلد إلى آخر، وغدا هشًا من الناحية النفسية، حذرًا وربما شكاكًا بشكل متزايد. أين ستستقر حقائبه بشكل نهائي؟ أين سيطمئن على أمنه؟

يعكس ملف قيصر صورة النزاع السوري: ناشطون داخل البلاد، ومناضلون سياسيون في خارجها بعضهم منفي منذ سنوات طويلة، وشبه مقطوع عن الواقع السوري الراهن. بينما اضطر بعضهم الآخر، المتجذرون في البلاد، كعماد الدين الرشيد، إلى الهرب في بداية الثورة. شيوعيون واشتراكيون وإسلاميون ومدافعون عن حقوق الإنسان، يحاولون جميعهم الاستمرار في حمل لواء (القضية السورية) من تركيا والأردن وأوروبا.

في سورية، يخاطر الناشطون بحياتهم للاستمرار في نقل المعلومات، وجمع أدلة الجرائم محاولين الهرب في الوقت نفسه من قمع النظام وهمجية الدولة الإسلامية. أما في الخارج، ينشط السياسيون في الدوائر الدبلوماسية، عاقدين الاجتماعات واللقاءات الهادفة لاتخاذ القرارات الكفيلة بإيقاف النزاع، ولكن أي قرارات؟ يبعد ناشطو الداخل مسافات شاسعة عن خبايا السياسة الدولية الصامتة وأسرارها، ويشعرون بالخذلان من العالم، أما أولئك في الخارج فيحاولون إيجاد مكان لهم في هذا العالم متناسين، في بعض الأحيان، خطر ذلك المكان.

في صالون عماد، في ذلك المساء من ربيع 2014، انتهي المصاف بسامي بالنهوض والذهاب إلى شرفة البيت لإجراء اتصال هاتفي قصير، وحوالى الساعة الواحدة صباحًا، قُرع الباب. دخل قيصر، ويتذكر إريك شوفالييه: (لقد كان قلقًا جدًا، كان ذلك طبيعيًا؛ فليس بإمكاننا قضاء تلك السنين كلها في ظل نظام كهذا من دون أن نعرف ما الذي يستطيع فعله). كان اللقاء قصيرًا ولكنه أكد للسفير الأهمية القصوى لذلك الملف. كان السفير حذرًا وحريصًا، وكان بالمناسبة أول دبلوماسيًا يلتقي بالمصور المنشق، وعاود الرجلان اللقاء في مناسبات عدة.

في وزارة الخارجية، بدأت أربع أو خمس دوائر تهتم بالموضوع، كدائرة الأمم المتحدة أو دائرة شمال أفريقيا والشرق الأوسط. ما هو الأثر القضائي و/أو السياسي الذي سيُعطى لهذا الملف؟ لغاية اللحظة، جرى اتخاذ قرارات قليلة، في ما عدا عرض الملف على مجلس الأمن.

لا إحالة على المحكمة الجنائية الدولية

نيويورك، نيسان/ أبريل 2014، اقترح جيرارد أرو، سفير فرنسا إلى الأمم المتحدة، عقد اجتماع لأعضاء مجلس الأمن على أساس (صيغة آريا) التي تسمح بعقد اجتماع غير رسمي لأعضاء المجلس الخمسة عشر. كانت فرنسا تسعى لتجنب الفيتو الروسي عند عقد اجتماع رسمي في صالة استشارات المجلس الضخمة، إذ عارضت حليفة دمشق، العضو الدائم في مجلس الأمن، قرارات تدين القمع في سورية وتطالب برحيل بشار الأسد ثلاث مرات مسبقة منذ بداية الأزمة.

كان ممثلو الدول الخمسة عشر في مجلس الأمن كلهم حاضرين في ذلك اليوم الموافق لـ15 نيسان/ أبريل، بمن فيهم ممثل روسيا. بعرضه للصور، كان جيرارد أرو يحضر الأرضية اللازمة للتصويت على قرار الإحالة على المحكمة الجنائية الدولية. أسست تلك المحكمة عام 2002 بهدف التحري عن الجرائم الجماعية (كجرائم الإبادة الجماعية (الجينوسيد) والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب) في أي بلد ترفض سلطاته التحري بنفسها، ويجب أن يكون البلد المعني موقعًا على اتفاق روما الذي أسس للمحكمة. وقع مئة واثنان وعشرون بلدًا على الاتفاق، لا توجد سورية بينها. بالنسبة إلى البلدان غير الموقعة، وحده مجلس الأمن يستطيع الإحالة على نائب المحكمة ليقوم الأخير بالتحري، ويصدر مذكرات اعتقال ويحاكم المسؤولين عن الجرائم في سورية. لعرض القضية أمام المحكمة الجنائية الدولية، على المجلس التصويت على قرار تحت الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

لمحاولة استمالة روسيا، ذكرت فرنسا في مشروع قرارها الجرائم المرتكبة من كل أطراف النزاع: النظام ومقاتلي المعارضة والجهاديين. وذلك على الرغم من معرفة فرنسا بانقسام مجلس الأمن وشكها بعدم التصويت على القرار. صرح جيرارد أرو خلال جلسة 15 نيسان/ أبريل: «استنادًا إلى القرار الذي ستتخذونه، عليكم النظر في المرآة والقول لأنفسكم: (ما الذي فعلته في تلك المناسبة؟)»

تلى عرض ثلاثين صورة من ملف قيصر دقائق طويلة من الصمت، ويؤكد الجميع في وزارة الخارجية الفرنسية أنه (اعترف من كان حاضرًا في تلك الجلسة بأن مجلس

الأمن لم يشهد اجتماعًا مؤثرًا كهذا من قبل، حتى أن المندوب الروسي قد بدا عليه التأثر).

عقد جيرارد أرو مؤتمرًا صحافيًا بعد ظهر ذلك اليوم، وتحدث عن التصويت المرتقب بخصوص الإحالة على المحكمة الجنائية الدولية، وقال بالتحديد: (نأمل في ألا يسيطر حديث السياسة، وإنما الضمير الإنساني. هنالك أوقات تفرض أن تكون الأخلاق، ببساطة، هي من يتكلم. لحظات نناشد فيها الضمير الإنساني. [...] تمثل هذه اللحظة فرصة راهنة لم يتوافر كثير مثلها في تاريخ الإنسانية من ناحية معرفة ما سنفعله لمواجهة تلك الفظاعة التي ارتكبها النظام. عيلنا تمكين المحكمة الجنائية الدولية من إجراء تحقيق).

أعطى من بعدها الدبلوماسي الكلام إلى خبيرين من خبراء التقرير يعملان في مكتب روك وشركائه اللندني: النائب العام الأسبق ديفيد كرين والخبير الطبي الشرعي المرتبط بوزارة الداخلية البريطانية الدكتور ستوارت هاميلتون. شرح الأخير، بتأثر واضح وبتحفظ شديد، اثنتان وعشرين صورة عُرضت على شاشة تلفاز كبيرة.

كانت الصورة رقم 2 تظهر ثلاثة أجساد ممددة على أرض رملية، كما يُلاحظ فيها أقدام شخصين واقفين. وشرح عنها الخبير قائلًا: (لدينا هنا أدلة واضحة على المجاعة. باستطاعتنا رؤية لون العظام [تحت الجلد]، وضمور حجم البطن ونتوء عظام الحوض، حتى أنه بإمكانكم ملاحظة جزء من وتر العضلة في الساق. يظهر ما سبق كله أن الجسم قد عانى الجوع مدة طويلة من الزمن).

وتظهر الصورة رقم 6 كاحلي رجل عليها آثار أثلام طويلة، وأشار ستوارت هاميلتون: (نلاحظ وجود مثل هذه العلامات الجلدية على كثير من الأجساد. مصدرها ليس واضحًا بنسبة مئة في المئة، فقد تكون ناجمة عن ضغط الحديد على جلد فقد مقاومته بسبب سوء التغذية. نعرف أن أمراضًا كالأسقربوط قد تصيب أشخاصًا يعانون سوء التغذية. إن هذه العلامات شائعة بكثرة في الصور التي تفحصناها).

وأمام الصورة التي تبرز شخصًا قُلعت عينه، اعترف الدكتور: (لم أر أبدًا شيئًا كهذا طوال حياتي المهنية، ولا أعرف أي مرض أو سيرورة طبيعية قد تؤدي إلى

ذلك). وعلى الصورة رقم 11، (يد من الواضح أنها تعرضت للحرق بمادة كيماوية [...] سببت جروحًا مهمة ومؤلمة، ولكنها ليست من نوع الجروح التي قد تسبب الموت). أما الصورة 14 فهي تظهر، أخيرًا، الهنغار الذي يجري فيه صف الجثث قبل وضعها في أكياس بلاستيكية).بالنسبة إلى العامل الذي ينقل الأجساد من مكان إلى آخر كل يوم، أعرف أن تلك الأكياس عملية لسهولة حملها [...]. تظهر الطريقة التي جرى بها تجميع الجثث أن تلك العملية تشبه خط إنتاج). ويبدو أن معتقلًا، في صورة أخرى، قد تعرض للخنق بواسطة سير توقيت محرك سيارة ما يزال موجودًا حول عنقه.

بعدها بشهر، في 22 أيار/ مايو، وبدفع من فرنسا، كان على مجلس الأمن التصويت على قرار الإحالة على المحكمة الجنائية الدولية، وقبل التصويت، حذر جيرارد أرو: (إن أعمال القتل والتعذيب والاغتصاب لا تحدث في سورية اليوم كونها محض نتائج فظيعة للحرب الأهلية، بل إنها جزء من سياسة متعمدة هدفها الإرهاب والعقاب. [على المجلس] القول إنه عام 2014، لم يعد بوسع الناس أن يفعلوا ما فعلوه عام 1942 أو 1994، وأنه لن يسمح بعودة الدولة الهمجية. ربما نستطيع أن نوقف جلادًا على وشك أن يرتكب جريمة).

وفي اليوم نفسه، نشر الوزير الفرنسي لوران فابيوس مقالة على منبر اللوموند، تحدث فيها عن الأسلحة الكيماوية والبراميل المتفجرة، والهجمات على المدنيين واستخدام العنف الجنسي سلاح حرب، وعن سجناء النظام: «يعذّب عشرات آلاف المعتقلين. تشكل تلك الفظاعات بحسب القانون الدولي (جرائم حرب)، و(جرائم ضد الإنسانية). لو كان هناك مقياسًا للفظاعة، لكانت تلك الجرائم هي الأشد خطرًا. مع ذلك، لا يتعرض المسؤولون عنها إلى أي ملاحقة في يومنا هذا، ولا تجري محاكمتهم، ويستمرون بحصانة تامة. إن عدّ المسؤولين عن الجرائم ضد الإنسانية مطلوبين يعدّ بمنزلة إحقاق العدل للضحايا، وهو أيضًا وسيلة ردع لمن يستمر بارتكابها، فعاجلًا أم آجلًا ستجري محاكمتهم.»

لم تكن فرنسا وحيدة في طلبها تدخل المحكمة الجنائية الدولية، ففي آذار/ مارس 2013، وخلال جلسة حوارية بين مجلس حقوق الإنسان ولجنة التحقيق الدولية

المستقلة بشأن سورية التابعة للأمم المتحدة، أيدت أربع وستون دولة عضو في الأمم المتحدة بيانًا يدعو إلى إحالة النزاع السوري على المحكمة الجنائية الدولية. وفي 15 أيار/ مايو 2014، طالبت أكثر من مئة منظمة مجتمع مدني أعضاء مجلس الأمن الخمس عشر بتلك الإحالة لمحاكمة الجرائم المرتكبة من الأطراف المتحاربة في النزاع كلها. ولكن في 22 أيار/ مايو، لم يلتزم مجلس الأمن بطلب القرار الذي قدمته فرنسا، إذ صوت ثلاثة عشر عضوًا بالإيجاب برفع الأيدي، بينما عارضت روسيا والصين بفيتو مزدوج، ووصف ممثل روسيا النص الفرنسي بأنه (خبطة إعلامية)، بينما لم ترد الصين، كحالها منذ بداية الأزمة، التخلي عن مبدأ عدم التدخل في شؤون دولة ذات سيادة.

مأزق الأمم المتحدة

بقي المأزق الدبلوماسي على حاله في دوائر الأمم المتحدة الأخرى في جنيف. تنشر لجنة التحقيق المستقلة بشأن سورية، التي أسستها المفوضية العليا لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة عام 2011، تقريرًا كل ستة أشهر يتحدث بالتفصيل عن الفظاعات المرتكبة. يقوم محققو فريق البرازيلي باولو بينهييرو، الممنوعون من دخول سورية، بلقاء الشهود في الدول المجاورة، وجهزوا مسبقًا خمس قوائم بالمسؤولين المشتبه بتورطهم في ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، تحتوي على أسماء قادة جماعات مسلحة معارضة، وقادة عسكريين من النظام، إضافة إلى رؤساء فروع استخبارات. لكن بقيت تلك القوائم سرية واحتفظ بها، منذ أشهر، في أماكن سرية، ولطالما رفضت اللجنة الإفصاح عن إدراج بشار الأسد وأقاربه في تلك القوائم من عدمه.

أشارت اللجنة في تقريرها الثامن، الصادر في 13 آب/ أغسطس 2014، إلى ملف قيصر من دون ذكره علانية، إذ ورد في المقطع 26 من الفصل المعنون (الانتهاكات المرتكبة في معاملة المدنيين والمقاتلين العاجزين عن القتال): (وأُجري استعراض أولي وتحليل طبي شرعي لما مجموعه 948 26 صورة يُدعى التقاطها في المرحلة الممتدة

بين عامي 2011 و2013 في مرافق الاحتجاز الحكومية. وتضم هذه الصور صورًا خاصة بملفات قضايا ومحتجزين متوفين تظهر عليهم علامات التعذيب وسوء التغذية الحاد. وتدعم بعض العناصر -مثل الموقع المحدد في بعض الصور بوصفه المستشفى العسكري رقم 601 في دمشق، وأساليب التعذيب وأوضاع الاحتجاز- ما خلصت إليه اللجنة منذ مدّة طويلة من استنتاجات بشأن التعذيب المنهجي ووفاة المحتجزين. وما تزال التحقيقات جارية، وتعتمد النتائج إلى حد بعيد على تحديد مزيد من البيانات الوصفية).

تسعة أسطر فقط من أصل تسع وأربعين صفحة لإجمالي التقرير. التقى أعضاء من اللجنة بقيصر مرات عدّة في مختلف البلدان التي لجأ إليها، ولكن ترفض اللجنة تأكيد ذلك، فبحسب شرحها اليوم: (لن نعلن على الإطلاق عن مصادرنا، فهذا جزء من منهج عملنا). في تقريرها اللاحق الذي نشر في 5 شباط/ فبراير 2015، أدانت اللجنة، مستحضرة روايات عدة جرى جمعها، (سياسة الدولة المطبقة في المحافظات المختلفة)، و(نظام التعذيب المعمم والمنهجي والقتل غير القانوني).

إدانات من دون أن يتلوها أي أثر؛ والسبب هو عدم الإحالة على المحكمة الجنائية الدولية، ولا وجود لأي طرف يدفع بضغط دبلوماسي. تروي التقارير ويشهد الشهود، لكن لا شيء؟

قال عماد الدين الرشيد مقرًا: (كنت أعلم أن هذا الملف سيستغرق وقتًا، لكني لم أعد متفائلًا. عندي أمل بأن يقود في نهاية المطاف إلى إجراءات قضائية، ولكن المشكلة الرئيسة تكمن في الموقف الأميركي في النزاع السوري). في صيف عام 2014، أقنع عماد قيصر بالسفر إلى واشنطن لمحاولة إقناع إدارة باراك أوباما. أدلى قيصر بشهادته أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس، التي يسيطر عليها الجمهوريون المعارضون لسياسة عدم التدخل للرئيس أوباما، ولذلك كان مجلس النواب جاهزًا لاستقباله، ولكن الأمور كانت أكثر تعقيدًا مع البيت الأبيض.

عاشرًا: الذهاب إلى الشهادة في واشنطن

قيصر

(تساءلت في البداية عن جدوى الذهاب إلى هناك. هل يحتاج العالم والولايات المتحدة إلى تلك الصور لمعرفة ما يجري في سورية؟ لقد حدثت الهجمات الكيماوية في سورية ضد السكان، العالم على دراية بما يحصل إن أراد التدخل في سورية. كنت مترددًا لأنه لو أرادت الإدراة الأميركية مساعدة الشعب السوري بحق، لكانت قد قامت بذلك بعد الهجوم الكيماوي الكبير على الغوطة قرب دمشق. وكنت خائفًا جدًا من الذهاب إلى هناك لأسباب أمنية، ولكني قبلت. كان من اللازم أن أتحدث إلى أعضاء الكونغرس، وإلى الشعب الأميركي.

استقبلني، عند وصولي إلى الفندق، إيفان ماكمولين من لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس، واهتم بأمني، كان شخصًا جيدًا، وشعرت بأنه يريد دعم الشعب السوري. اشترى لي طاقية ونظارات بعدسات سوداء ضخمة، وسترة بغطاء للرأس زرقاء اللون ارتديتها عند المقابلات كي لا يجري التعرف إلي.

في اليوم التالي لوصولنا، بدأنا بالذهاب إلى متحف الهولوكوست، شعرت بالخوف الشديد، وكنت أرتدي الملابس التي أعطاني إياها إيفان. المتحف ليس مبنى حكوميًا تقدّم الحماية الأمنية له كالكونغرس أو وزارة الخارجية، عندما وصلت إليه كان ما يزال هناك مجموعة من السياح، كنت شديد القلق درجة أني لم أتمكن من زيارة صالات المعرض بعد اللقاء المرتّب مع ما يقارب خمسين شخصًا. لم أكن أعرف من هم، كانت صالة فيها منبر، عرضنا عليهم الصور بمساعدة جهاز إسقاط، ومن ثم تحدثت بضع دقائق فقط وغادرتهم. قابلنا سامنثا باور، السفيرة الأميركية السابقة للأمم المتحدة، وجون ماكين السيناتور الجمهوري. شاهدت سامنثا باور الفيلم الذي أخرجه التيار الوطني السوري، وبكت عندما رأت الصور، أحب موسيقى ذلك الفيلم،

هادئة ودرامية. أكدت سامنثا باور أسفها من أن يرى العالم انتهاكات كتلك بحق الشعب من دون القدرة على فعل أي شيء.

أما جون ماكين فقد وجه النقد إلى باراك أوباما، شارحًا أن الرئيس لم يرغب في لقائي. شعرنا على الفور أن ذلك الرجل يدعم الشعب السوري، كان على مكتبه كثير من الملفات مع صور عن الهجمات الكيماوية في الغوطة وصور أخرى لمعتقلين موتى. عندما دخلت، استقبلني بحفاوة، ومن ثم رمى بإحدى ملفاته على الطاولة، كان غاضبًا ضد الرئيس الأميركي: (سيفعل بشار الأسد أسوأ مما فعل إن لم يضع باراك أوباما حدًا لسياسته في الإبادة!) تحدثت عن النظام خلال ربع ساعة، وعن الجيش السوري الحر وداعش، فوجئت من مدى معرفته بالوضع في سورية، كما لو أنه يعيش فيها. بعدها، حضّرنا الجلسة في الكونغرس، التي كانت مهمة جدًا في نظري. طرحنا على أنفسنا السؤال حول كيفية إجراء المداخلة، في جلسة مغلقة أو مفتوحة؟ شرح لي إيفان الفرق، خلال الجلسات المغلقة، يطرح أعضاء الكونغرس أسئلة ونجيب عنها، من دون أن يتسرب أي شيء للصحافة. كنت خائفًا ولكني قدمت لأقول للعالم، ولأروي، انتهاكات النظام، ولذلك وجب علي الحديث في جلسة مفتوحة. تعهد بفعل كل شيء لضمان أمني، الأمر الذي طمأنني. دخلنا إلى الكونغرس عبر نفق، كان أحد الأنفاق الطويلة التي تشبه ممرات الفنادق التي تربط بين أكثر من مبنى، ولا علاقة له بالأنفاق التي يحفرها الجيش السوري الحر! وصلنا إلى مكتب رئيس الكونغرس حيث بقينا مدّة قصيرة، حوالى الخمس عشرة دقيقة، وشربنا هناك عصير الفواكه لإزالة التوتر النفسي.

شرحوا لي كيف ستجري الجلسة: سأجلس في صالة، في الرتل الأول، بمواجهة المنصة التي يجلس عليها أعضاء الكونغرس، سيدخل الصحافيون والمصورون من الباب الخلفي لالتقاط الصور التي ستثبت أني قد جئت لأدلي بشهادتي في الكونغرس، من دون أن يجري السماح لأي وسيلة إعلامية بتصويري أو تصوير الصالة من الأمام. كنت أخشى كثيرًا ألا يهتم الصحافيون بأمني وبما حُضّر في الصالة، لم يكن أمامهم إلا عشر دقائق لالتقاط الصور من خلف الصالة.

جلس مقابلي أعضاء من الكونغرس ومن منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان، وأُكِّد لي بأن الاتصالات كلها ستقطع، إضافة إلى الهواتف والكاميرات التي تقوم عادة بالتسجيل المباشر للمناقشات. جرى كل شيء وفق ما كان مخططاً. خلال الجلسة، كنت محميًا بقبعتي، وبنظاراتي السوداء كبيرة الحجم وبسترتي الزرقاء الحاوية على غطاء للرأس. في بداية الجلسة، حملتني أصوات فلاش الكاميرات والضغط على أزرار التقاط الصور من الصحافيين إلى الوراء، إلى العمل الذي كنت أقوم به في صفوف النظام، إلى داخل مشرحة مستشفى تشرين حيث كان يجب استخدام ضوء الفلاش أحيانًا عندما لم يكن هناك ضوء كاف.

من ثم أخرجت الشرطة الصحافيين، واستطعت بعدها أن ألتفت وأنظر إلى اليمين واليسار لأول مرة ورأيت شيئًا من الصالة. عرضت صور المعتقلين الموتى بالتكبير في قاعة الكونغرس، وعندها أدركت قيمتها وأهمية العمل الذي قمت به؛ شعرت بالفخر، وتذكرت عندما التقطت تلك الصور، وتعرفت إليها. بالتأكيد لم أتذكر الأشخاص بالتفصيل، ولكن ملامح وجوههم ما تزال في ذاكرتي، إذ لم أقم بشيء آخر غير ذلك خلال عامين، أي التقاط الصور وأرشفتها.

أعطى رئيس لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس [إد رويس] الذي كان يدير الجلسة الكلام لكل شخص، وكان خلال مقدمته قد رحب بي بتقدير قيمة ما قمت به، وكنت خلال الجلسة، لخوفي من أن يجري التعرف إلى صوتي؛ أتحدث بصوت هادئ إلى مترجم يقوم هو بالتعبير بصوت مرتفع أمام أعضاء الكونغرس. قرأت نصًا كنت قد حضرته وشرحت من خلاله عملي وكيف غادرت سورية، كان النص رسالة إلى العالم، تحدثت مدة عشر دقائق تقريبًا، وبعدها أجبت عن الأسئلة، وعلقت على الصور على الرغم من أنها تتحدث عن نفسها، ولم يكن هناك حاجة حقيقية إلى أي شروحات. حاول أحدهم أن يخبرني بأن المعارضة هي من التقطت تلك الصور، فأخبرته قصتي، وكيف التقطتها بنفسي، وكيف كانت الأرقام على الأجساد تتعاقب.

عندما انتهت الجلسة، أخرجوا شخصًا من الباب الأمامي يرتدي نسخة طبق الأصل عن ملابسي: القبعة والنظارات والسترة مع غطاء الرأس. كان ذلك لخداع الصحافيين الذين كانوا ينتظرون في الخارج منذ ساعتين. ذهبنا خلال ذلك الوقت إلى

مكتب رئيس لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرسن الذي قام، كجون ماكين، بالسخرية اللطيفة من قبعتي، إذ قال لي: (من المؤسف ألا ترتدي قبعة فريق آخر، كان من الممكن أن نتفق بشكل أفضل. عليك تغييرها). أما جون ماكين، فقال لي مبتسمًا: (لماذا اخترت هذا الفريق؟ لا أحبه. للأسف، كان من الممكن أن نشجع الفريق نفسه). أنا، لم أكن أعرف تلك الفرق، وبعدها طلبت ارتداء قبعة تخلو من أي كتابة عليها.

قبل أن أغادر الكونغرس، تناولنا طعام الغداء، همبرغر بالتأكيد، ومن ثم خرجنا من النفق ذاته.

لقد كنت سعيدًا بإسماع صوت سورية، لأنه لا يمكن لأي شخص القيام بذلك، بقينا قرابة أسبوع في واشنطن، إنها مدينة جميلة جدًا، على الرغم من دهشتي من رؤية فقراء ينامون تحت جسر في خيم قرب البيت الأبيض. لم أتخيل أبدًا وجود فقراء في بلد كالولايات المتحدة. كنا نحلم في سورية بزيارة بلدان أوروبية والولايات المتحدة، كنا نظن أنها الجنة على الأرض، لكن في النهاية، هي أيضًا فيها فقر وفيها طبقات اجتماعية مختلفة.

ذهبنا إلى البيت الأبيض للقاء باراك أوباما، ولكنه لم يستقبلنا، قيل لنا أنه كان في اتصال مع بوتين، ولذلك تركنا له رسالة. قابلنا أحد مستشاريه، وأروني المكتب البيضاوي، كان جميلًا، لم أكن أحلم على الإطلاق برؤية مكان كهذا، ولكن ليس المهم من يعمل فيه وإنما طريقة سلوكه في العالم. كنت لأقدر باراك أوباما بشكل أكبر لو تحمل مسؤولياته في مواجهة بشار الأسد.

عندما أنهينا زيارتنا، جلسنا في قاعة اجتماع أعيد فيها طرح الأسئلة التي طرحت علي في الكونغرس، لسوء الحظ لم نتمكن من لقاء باراك أوباما، ولكن الأمر المهم كان نقل الرسالة إلى الكونغرس، وإيصال كلام الشعب السوري، ووضع العالم أمام مسؤولياته الإنسانية والأخلاقية في مواجهة ما يحدث في المعتقلات والسجون في سورية. عندما يمتلك رؤساء القوى العظمى إرادة سياسية حقيقة، سيضعون حدًا

لجرائم بشار الأسد، وسيغيرون مصير عشرات آلاف المعتقلين الذين ما زالوا في السجون.

هل أنا بطل؟ هل أنا شخص خاص كي أذهب إلى المكتب البيضاوي الخاص برئيس الولايات المتحدة وأقابل ماكين؟ أنا كأي شخص سوري، ما يهم هو القضية التي أدافع عنها، لقد تركت سورية بهدف دفع القضية السورية إلى الأمام، لم نحصد حتى الآن ثمار ما زرعنا، لا أعلم حتى الآن، بعد كل الأخطار التي اتخذناها، إن كان موسم الحصاد سيأتي. سيكون الحصاد عندما يمثل النظام والمسؤولون الآخرون جميعهم أمام القضاء).

واشنطن، قاعة الكابيتول

في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين من صباح يوم الخميس 31 تموز/ يوليو 2014، افتتح إد رويس، رئيس لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الذي يغلب عليه الجمهوريين، الجلسة المعنونة: (تعرية آلة موت الأسد: النتائج على السياسة الأميركية). (اليوم، سنتفحص أدلة على الفظاعات التي ارتكبها نظام بشار الأسد ضد الشعب السوري. دخلت الأزمة السورية الآن عامها الرابع، وهي أزمة اختلقها وحافظ عليها بشار الأسد الذي أجاب على مطالب السوريين السلمية لنيل حقوقهم الكونية بعنف غير مسبوق مورس حتى ضد الأطفال.[...] نتشرف اليوم [بأن نستضيف] (قيصر)، منشق عن الجيش السوري خاطر بحياته ليجمع ويُخرج سرًا من سورية أكثر من 50.000 صورة لمعارض سياسي معذب ومقتول من النظام بعد بداية التظاهرات. أود أن أشكركم لقبولكم التحدث إلى اللجنة اليوم).

في القاعة، كان قيصر في الرتل الأول وجهًا لوجه مع إد رويس، كان وجهه شبه مغطى كليًا بوساطة قبعته وغطاء رأس سترته الزرقاء، ولم يظهر إلا أنفه. جلس بجانب معاذ مصطفى، العضو الأسبق في طاقم عمل مجلس الشيوخ والمدير التنفيذي للمنظمة السورية للطوارئ (Syrian Emergency Task Force) التي تدعم جماعات المعارضة، وتدفع منذ شهر الأميركان باتجاه تسليح الثوار. في شهر أيار/ مايو 2013،

رافق معاذ مصطفى جون ماكين، الذي دخل سرًا إلى شمال سورية، للقاء اللواء سليم إدريس الذي كان قائدًا للجيش السوري الحر في وقتها.

كان معاذ مصطفى هو من نظم مجيء قيصر. في الكونغرس، تأكد من ترجمة حديثه، إذ كان المصور الأسبق يميل تجاهه ويتمتم بالنص الذي كتبه بقلم حبر أزرق على صفحتين بيضاوتين بخطه الرفيع: «يشرفني أن أكون حاضرًا في هذا الصرح الديمقراطي، وأشكركم لإعطائي الفرصة في التحدث إليكم بشكل ودي وشفاف وصريح. أنا مواطن سوري من ريف سورية المهمش من بشار الأسد ومن والده قبله، أتيت لأحدثكم ببساطة. لست رجل سياسة ولا أحب السياسة، ولست محاميًا. وعلى الرغم من احترامي للقانون، لكني لا أعرف نصوصه. أنا عسكري، كنت أعمل في الشرطة العسكرية التابعة لوزارة الدفاع، كان عملي قبل الثورة هو تصوير الموتى في المستشفيات العسكرية جميعهم. تضاعف عملنا بعد الثورة، فقد كانت ترسل أجساد المعتقلين الموتى إلى المستشفيات العسكرية إذ كان يجري إرسالنا وفق الأوامر والحاجات. كنت على اطلاع ليس على الجثث التي كنت أصورها بنفسي فحسب، وإنما أيضًا على الصور الأخرى جميعها [...] في الدائرة المسؤولة عن نقلها إلى الكمبيوتر. [...] رأيت صورًا مرعبة لأجساد تحمل آثار التعذيب القاسي والشديد كالحروق والجروح وحالات خنق، وجثث انتُزعت أعينها، وأخرى تضررت من الضربات التي سببت كسورًا في الوجه وفي أماكن أخرى، أجسادًا هزيلة وضعيفة للغاية، أجساد معتقلين شبيهة بالهياكل العظمية... أظن أن معظمهم مات من الجوع.

لم أر في حياتي جرائم كتلك، في ما عدا جرائم ضحايا التعذيب النازي التي تذكرنا هذه الصور بها. أحيانًا كنت أشاهد جثث أشخاص من قريتي أو جيران أعرفهم، كنت أحزن لعدم قدرتي على إخبار أهلهم وأقاربهم.

لو عرف النظام أني كنت أخرج معلومات سرية، لكان مصيري الموت. لم يستطع ضميري المهني والإنساني والديني قبول هذه الفظاعات، وإلا لشعرت بأني قد أصبحت شريكًا للنظام في جرائمه المقززة. لذلك، قررت الانشقاق. [...] بعد مناقشات مع شخص كنت أثق به، وكان جزءًا من الثورة، قبلت ألا أنشق مباشرة بهدف إخراج أكبر عدد ممكن من صور الضحايا المعتقلين. كنت أسلمهم الصور

التي كانت في حاسوب الدائرة أو في الأرشيف الشهري. عندما بدأت أخشى على حياتي وشعرت بأن الوضع أصبح خطيًا، قال لي قريب بأنه من الضروري أن أنشق، وساعدني في ذلك، إذ جهز الشروط الملائمة لإخراجي من سورية بأمان. لقد جئت لأشهد أمام مجلسكم المحترم لأحمل إليكم رسائل الشعب السوري، وهذه بعض منها:

1. ما يحصل في سورية هو مجزرة رهيبة يقودها إرهابي كبير اسمه بشار الأسد، دمر البلاد وقتل الشعب من دون رحمة. أطلق سراح إرهابيين من السجن ليجلبوا الفوضى إلى سورية وخارجها.
2. نعرف في سورية أنه لن يكون بمقدوركم إعادة الحياة ولا الروح إلى عشرات آلاف الضحايا، ولكننا نقول لكم إنه ما يزال هناك أكثر من 150.000 معتقل في السجون السورية، معرضين لتلقي المصير ذاته لأولئك الذين في الصور.

يثق الشعب السوري في مشاعركم وأحاسيسكم النبيلة التي عرفها عن طريق مواقفكم الشجاعة في إيقاف القتل في يوغوسلافيا وغيرها. أختم بكلام الله القدير على كل شيء: (من قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا). شكرًا لكم والسلام عليكم ورحمة الله.»

عم الصمت في صفوف قاعة الكابيتول، وبدأت صور مكبرة لمعتقلين تعرض على جانبيها. لم يكن ديفيد كرين، المدعي العام الأسبق الذي حرر التقرير الأول عن القضية في كانون الثاني/ يناير 2014، بعيدًا من قيصر، وكان عماد الدين الرشيد يراقب ردات فعل الأشخاص الثلاثين الحاضرين. لم يشك أحدًا في صدقية الصور، وظن المعارض السياسي السوري أنه قد كسب الدعم في إقرار جرائم النظام.

جان كارسكي، عام 1943...

قبل واحد وستين عامًا، وتقريبًا في اليوم نفسه من العام، جاء رجل إلى واشنطن ليشهد، هو أيضًا، على جرائم ضد الإنسانية، التي وصفت في ما بعد بالإبادة

الجماعية. ولكنه استطاع اللقاء برئيس الولايات المتحدة. وذكر جان كارسكي في كتابه: (بدى لي البيت الأبيض كبيت كبير ريفي، جديد ومبني بشكل جيد [...]. فكرت بما يمكن أن يكونه بناء شبيه في بلدي [...]. كان قلبي سريع الخفقان [...]، فقد كنت في قلب قلعة القوة وسألتقي بالشخص الأقوى في العالم[19]). كان جان كارسكي البولوني يريد إخطار الحلفاء بخصوص إبادة النازيين لليهود. كان مقاومًا كاثوليكيًا، اعتقله السوفيات وأعيد إلى الألمان في تبادل أسرى. هرب من قطار ليعاد اعتقاله من الغيستابو (البوليس السري النازي) ويجري تعذيبه، ومن ثم هرب مرة أخرى. في شهر آب/ أغسطس 1942، دخل خلسة إلى غيتو فارسوفي في بولونيا، حيث معسكر الاعتقال النازي ازبيكا لوبيلسكا الذي لا يبعد كثيرًا من معسكر بلزك. كلفه قادة يهود بأن يشهد أمام العالم على الإبادة الجماعية الحاصلة، وكتب تقريره الشهير المعروف بـ (تقرير كارسكي) عن (الحل الأخير) والوضع في بولونيا تحت الاحتلال النازي.

بعد مروره بلندن حيث استقبله أعضاء من مجلس الوزراء البريطاني، وصل كارسكي، البولوني، إلى واشنطن في 28 تموز/ يوليو 1943 في وقت كانت فيه الحرب مشتعلة في أوروبا. دام لقاؤه مع فرانكلين د. روزفلت ساعة وخمس عشرة دقيقة.

في 28 تموز/ يوليو 2014، كان قيصر السوري في متحف الهولوكوست في واشنطن، ليشكل ذلك أول ظهور علني له قبل شهادته أمام الكونغرس الأميركي بأربعة أيام. قال كاميرون هودسون، مدير مركز الوقاية من الإبادة الجماعية في متحف الهولوكوست: (عندما التقيناه، فكرنا كثيرًا بكارسكي). التقى كارسكي بروزفلت ولم يحصل على أي شيء لوضع حد لـ (الحل الأخير). لكن هنالك اختلاف كبير بين الرجلين؛ فكارسكي كان مقاومًا، أما قيصر فلم يدّع البتة أنه ناشط حقوق إنسان، ولكنه أصبح كذلك، لم يكن يبحث عن أن يكون بطلًا ولكنه بطل اليوم.

---

(19) Jan Karski, Mon témoignage devant le monde, Robert Laffont, 2010.

قال كاميرون هدسون: (نظرنا إليه عندما كان أمامنا، وتساءلنا عما كنا قد فعلناه لو كنا مكانه). تذكر العبارة المنقوشة على مدخل المبنى (أبدًا مرة أخرى) بالمهمة الواجبة. يحتوي متحف الهولوكوست، الذي يمثل مكانًا تذكاريًا وتحذيريًا في الوقت نفسه، على معارض عن الإبادة الجماعية للتوتسي وفي دارفور، وعن مجازر الخمير بين عامي 1975 و1979، ومجازر البوسنة بين 1992 و1995. مع وصول صور قيصر، يرى مدير المتحف نفسه غارقًا في حوادث مأساة تمثل كل ما يحارب: (تذكرنا صور الجثث، وطريقة قتل هؤلاء الأشخاص وتوثيقها ونظام أرشفتها، والأرقام عليها بالهولوكوست بوضوح. لا أريد عقد المقارنات، حتى لو أظهر ما يحدث الآن مستوى من التنظيم لم نراه من قبل في حالات الإبادة الجماعية وفي سياسة متعمدة تهدف إلى القضاء على جزء من السكان). ومن ثم أضاف الرجل متأثرًا: (يتمثل الأمر المفاجئ في كون هذه الصور قد التقطت مؤخرًا، ولا تعود إلى سبعين سنة أو أربعين سنة ولا حتى عشرين. إن هذه الحوادث مستمرة في الحدوث بينما نشاهد ونعير انتباهنا إلى هذه الصور، وهذا يغير من طبيعة المناقشة التي لم تعد ذات بعد تاريخي وإنما معاصر. يطرح ذلك السؤال حول مسؤوليتنا. لست مسؤولًا عما حدث خلال الهولوكوست، ولكني أتحمل المسؤولية عما يحدث في العالم الذي أعيشه اليوم. ما هو دوري كفرد في ما يحدث اليوم؟ كان ذلك السؤال وراء قرارنا باختيار الصور وبعرضها في متحفنا). تعرض عشرات الصور بشكل دائم في إحدى صالات المتحف منذ تشرين الأول/ أكتوبر.

كانت الفكرة من وراء المتحف، بالتأكيد، إيصال أصوات المواطنين ككارسكي وقيصر، ولكن قيصر لم يُسمع من الرئيس الأميركي. في البيت الأبيض، كان اللقاء بين السوريين ومستشارَي الأمن القومي لنائب الرئيس جو بايدن مصحوبًا بالتوتر، أصبح فيه عماد الدين الرشيد المعروف بهدوئه شرسًا ولامهم على اقتصار وعودهم على المساعدات الإنسانية: (تقصفنا طائرات بشار الاسد وتقتلنا، نفضل العيش ببطون خاوية على الموت ببطون ممتلئة. عوضًا عن منح الغذاء، اذهبوا واشتروا ما يمنع تلك الطائرات من قتل السوريين). وقبل أن يضيفوا مزيدًا بدأ السوريون يعون حقيقة ألا قيمة لحياتهم بالنسبة إلى الولايات المتحدة. ترك قيصر رسالة مكتوبة بخط اليد

للرئيس أوباما: (لقد خاطرت بحياتي وعرضت أهلي لخطر شديد بهدف إيقاف التعذيب الممنهج الذي يمارسه النظام ضد المساجين. [...] ما الذي باستطاعتكم فعله لإيقاف عمليات القتل تلك، وخصوصًا عندما نعرف بأن هنالك ما يزيد على 150.000 سجين ينتظرون مصيرهم المميت؟)

أي عدل؟

أحرج ملف قيصر الإدارة الأميركية التي بدا أنها لم تكن ترغب في طي صفحة (بشار الأسد) في ذلك الوقت، كانت أولويتها تتمثل في الغارات الجوية على جهاديي الدولة الإسلامية التي كانت تقضم أراض عراقية وسورية، وتهدد البلدان الأوروبية خصوصًا بتحفيز إرهابييها على تنفيذ هجمات فيها. أدى الاجتماع مع مكتب التحقيق الفدرالي (إف. بي. آي) إلى إقناع عماد الدين الرشيد أن ملف قيصر يشكل إزعاجًا، فقد كشف لهم ذلك السوري 27.000 صورة لمعتقلين. وبفضل برنامج للتعرف إلى الوجوه يستخدم بنوك بيانات ضخمة تمتلكها سلطات البلاد (صور جرى التزود بها عند تقديم طلبات التأشيرات أو عند أرشفة جوازات السفر لدى وزارة الخارجية، أو الصور في قواعد البيانات الخاصة بالإرهاب)، وعد الـ(إف. بي. آي) بمحاولة العثور على أميركيين أو سوريين-أميركيين بين المعتقلين الموتى، الأمر الأساس لفتح إجراءات قضائية في أميركا. ذكر الرشيد، المعارض السياسي: (لقد خاب أملنا بشدة من سلوك الـ(إف. بي. آي)، كنا نظن فعلًا أنهم سيساعدوننا ولكن في الحقيقة شعرنا [أنهم كانوا محرجين، لم يجيبوا على سؤالنا حول وجود ضحايا أميركيين، وتحججوا بأن بعض الصور كانت ذات جودة منخفضة تقنيًا، ولم يستطيعوا تحليلها).

حدد ستيفين راب، السفير المتجول الأميركي الأسبق لشؤون العدالة الدولية الذي كان حاضرًا في الاجتماع، عدد الصور الممكن استخدامها بـ5.500 فقط من أصل 27.000، (عندما أطلقنا مشروع التعرف إلى الوجه، ظننت أننا سنجد مئات التطابقات؛ فلدينا ملايين الصور في قواعد بياناتنا، ولكن لم نحصل على أكثر من عشرة). لدى مروره بلندن في آذار/ مارس 2015، فتح حاسبه على صورتين لرجلين

يشبهان بعضهما كثيرًا: كان أحدهما قد مات في معتقل للنظام السوري، بينما ما يزال الآخر، الموجود على صورة هوية، حيًا. وقال شاكًا: (لسنا متأكدين مئة في المئة أنهما الشخص نفسه، تلزمنا تحاليل إضافية).

يعترف المدعي العام الأسبق في المحكمة الجنائية الخاصة برواندا ومن بعدها المحكمة الخاصة بسيراليون، بغضبه من التقدم القضائي والسياسي، (كم من مرة، عندما عملت في رواندا وسيراليون، استمعت إلى شهادات فظيعة لم نمتلك عليها أي أدلة؟ ولكن صور قيصر لم أر في حياتي أدلة على ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية أكثر وضوحًا منها).

بعد مرور أكثر من عام على زيارة مكاتبهم، أعلن الـ(إف. بي. آي) أخيرًا صحة صور ملف قيصر. في تقرير من خمس صفحات سُلّم إلى وزارة الخارجية في شهر حزيران/ يونيو 2015، وحصل موقع ياهو الإخباري على نسخة منه، صرح الـ(إف. بي. آي) أنه (لم يجرِ التلاعب بتلك الصور، وأنها تظهر أشخاصًا وحوادث حقيقية). شكل ذلك التقرير إحراجًا للإدارة الأميركية التي كانت مركزة على اتفاقها النووي مع إيران، الحليف الرئيس، مع روسيا، لبشار الاسد. ولكن الواقع السياسي يمنع حتى الآن أي إحالة على المحكمة الجنائية الدولية.

يتطلب تأسيس محاكم خاصة، كتلك الخاصة بيوغوسلافيا السابقة ورواندا، موافقة مجلس الأمن أيضًا، ومن ثم موافقة الروس والصينيين. حتى أن الصلاحيات القانونية التي يجتمع بموجبها القضاة الدوليون والمحليون توضع بعد اتفاق مع الأمم المتحدة، كان ذلك الحال في سيراليون للحكم على مرتكبي جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية خلال النزاع المسلح، وفي كمبوديا لمحاكمة جرائم الخمير الحمر، كما في لبنان لملاحقة مرتكبي الاعتداء الذي أودى في 14 شباط/ فبراير 2005 بحياة رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري.

اليوم، قد يكون بإمكان ملف قيصر أن يشهد على فصل جديد من العدالة الدولية تقوم فيه محاكم وطنية بدراسة جرائم خطرة بشكل خاص وتؤثر في المجتمع الدولي بأكمله، كجرائم التعذيب وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية والإبادة الجماعية.

هكذا حاكمت فرنسا في شهر آذار/ مارس 2014، وأدانت شخصًا رونديًا لمشاركته في جرائم الإبادة الجماعية بفضل آلية اسمها (الولاية القضائية العالمية) تسمح بفتح تحقيق على أرضها ضد أشخاص أجانب.

أدلة صارمة

في مدينة أوروبية كبيرة، يجب أن يبقى اسمها سريًا لدواع أمنية، راهن شخص ما على إمكان أن تطبق محاكم وطنية (محلية) القانون الدولي. ويليام وايلي، مدع عام دولي سابق كندي الجنسية، عمل على ملفات يوغوسلافيا السابقة والعراق ورواندا، ويدير لجنة العدالة والمساءلة الدولية المسجلة في لاهاي (هولندا) عام 2012، الممولة من الاتحاد الأوروبي والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، وتهدف إلى جمع أدلة جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية ارتكبت في سورية، وتجهيز ملفات مفتاحية تستخدم حالما تجرؤ أي سلطة قضائية على اتخاذ إجراءات ضد مرتكبي تلك الجرائم. يشرح ويليام وايلي: (إن السلطات القضائية المحلية غير مجهزة لتقود تحقيقات كتلك، حين لا لا تملك الكفاية من المال والوقت، ولا تستطيع، بشكل خاص، المخاطرة بالطريقة التي نستطيعها نحن). في سورية، في الوقت الذي تستمر فيه الحرب بالدوران، يحاول ما يقارب خمسين مدنيًا الحصول على مستندات النظام كلها التي يستطيعون إيجادها، فحالما تسقط منطقة أو مدينة أو حي أو مبنى حكومي تحت سيطرة الجيش السوري الحر، يصطاد أولئك الأشخاص أي مستند مكتوب أو ورقة صغيرة تائهة ليرسلوها إلى مقر لجنة العدالة والمساءلة الدولية. في جو المكاتب المريح والهادئ، بعيدًا من صخب القنابل، نُسخ ما يقارب الـ500.000 صفحة، قام خبراء عسكريون وسياسيون بتحليل جزء كبير منها وفك شيفرة طريقة عمل النظام السوري وسلسلة قيادته، وحددت أسماء مسؤولين في حزب البعث وعسكريين ذوي رتب عالية ومسؤولين في أجهزة الاستخبارات.

يمتاز عمل لجنة العدالة والمساءلة الدولية بالمنهجية وطول الأمد والصرامة، إذ أنهيت أربعة ملفات تحتوي على أسماء 24 متهمًا: ثلاثة منها ضد أعضاء مهمين في

النظام، والرابع ضد أعضاء من جماعات المعارضة المسلحة، وبالتوازي مع ذلك ما زال حصاد نتائج العمل مستمرًا؛ ففي ربيع عام 2015 قبلت لجنة العدالة والمساءلة الدولية إجراء مبادلة بيانات مع المحامين العاملين على ملف قيصر، ليتعاون ويليام وايلي مع خبير القانون الدولي توبي كادمان. يعمل السيد كادمان في المكتب اللندني (9 Bedford Row International) الذي استلم مهمة مكتب (كارتر روك وشركائه) الذي أعدّ التقرير بتكليف من قطر. شرح لنا أحد أعضاء لجنة العدالة والمساءلة الدولية، تحفظ على ذكر اسمه، ما يأتي: (لدينا أوامر اعتقال صدرت بحق مئات الأشخاص بالاسم. هؤلاء الأشخاص هم ناشطون مستهدفون من النظام لتنظيمهم تظاهرات أو تواصلهم مع وسائل الإعلام الأجنبية أو نشرهم فيديوهات على الإنترنت). أسماء كثيرة سيكون بإمكان اللجنة أن تقاطعها مع الـ27.000 صورة لمعتقلين قتلى حصلت عليها من ملف قيصر، سيمثل ذلك أدلة قطعية على آلة الموت.

مواجهة الخوف للإدلاء بالشهادة

كحال ويليام وايلي، يسابق توبي كادمان عقارب الساعة للحصول على المستندات التي تثبت سياسة النظام المنهجية في التعذيب والاغتيالات، إذ وضع فريقه يده على كثير من المستندات من بينها أمر من النظام يذكر (مشكلة المعتقلات [...] الواجب حلها فورًا). صدر ذلك الأمر في اللحظة التي وجب فبها على مراقبين من الأمم المتحدة الذهاب إلى سورية بهدف تقويم الوضع على الأرض، كان عليهم زيارة السجون ومراكز الاعتقال. عند مقاطعة هذه المعلومات بغيرها، يفضل توبي كادمان المحافظة على سريتها، نستنتج بصورة شبه مؤكدة أن ذلك التزامن بين الأمر والزيارة يدلان على (قرار النظام بتنفيذ إعدامات واسعة لجزء من المعتقلين بهدف إفراغ المعتقلات وجعلها أكثر لياقة في تلك المرحلة).

بالنسبة إلى توبي كادمان، يجب تأمين الأدلة وتسجيل الشهادات، إذ يريد مكتبه، من لندن، البدء بإجراءات في البلدان التي تمتلك تشريعات ذات صلاحية كونية، إذ تقبل بلدان كإسبانيا وألمانيا والبرتغال وبلجيكا والمملكة المتحدة والنرويج وهولندا

وجنوب أفريقيا هذا النتوع من الإجراءات بقيود متفاوتة. في بداية صيف عام 2015، أكد مكتب (9 Bedford Row International) فتحه تحقيقات في كل من إسبانيا والمملكة المتحدة، وعن هذا يقول توبي كادمان: (كلما فتحنا قضايا أكثر، زاد الضغط على المجتمع الدولي. سيسمح هذا، أيضًا وبشكل خاص، عدم انتظار سنوات قبل تسجيل الشهادات، ولذلك نبحث عن عائلات ضحايا تظهر صورهم في ملف قيصر ويقبلون بتقديم شكوى).

يمثل ذلك تحديًا اليوم، فما زال الخوف متجذرًا في الأنفس، وما زال القمع فاعلًا لدرجة لا يجرؤ معها اللاجئون السوريون في الخارج بالمثول أمام القضاء في حال ما زال أفراد من أسرهم يعيشون في سورية في مناطق سيطرة النظام، حتى أن قيصر بنفسه، الذي يخاف من أن يجري التعرف إليه، قد رفض تقديم شهادته في بريطانيا وإسبانيا.

في إسطنبول، قبلت عائلة خالد، مدير الورشة في داريا الذي جرى توقيفه ومن ثم عُثر على جثته مرقمة بين صور قيصر، التقدم بشكوى، حيث تشعر بأمان بعيدًا من سورية، وقد بقي القضاء خيارهم الوحيد بعد الرشى التي دفِعت لوسطاء كانوا يكذبون بالقول إن خالد ما زال حيًا في إحدى زنزانات الاستخبارات الجوية، لتساهم العائلة في ذلك بمحاكمة المجرمين. يقول أحمد، شقيق خالد الأكبر، مطلقًا ابتسامة خجولة: (ما الذي باستطاعتنا فعله غير ذلك؟ سنفعل كل ما نستطيع في مستوانا. ليس أمامنا خيار آخر. إن عدم إدلاءنا بالشهادة يعني موتنا مرة ثانية. إن الثورات قبر الشعوب).

في فرنسا، تهتم وزارة الخارجية بدورها، كما فعل الـ(إف. بي. آي) من قبلها، بإيجاد فرنسيين أو فرنسيين - سوريين بين صور الموتى. في صيف 2015، استلمت الدائرة القانونية لوزارة الشؤون الخارجية قسمًا من نسخ الصور، وأكدت لنا وزارة الخارجية: (إن تعرفنا إلى فرنسي، سيكون بإمكاننا الإحالة على مدعي الجمهورية لإطلاق إجراء قضائي. لم نستطع إحالة الملف إلى المحكمة الجنائية الدولية عبر مجلس الأمن؛ لذلك سنبحث عن الاحتمالات الأخرى لرفع قضية ضد بشار الأسد).

لا يظن سامي وقيصر حدوث ذلك. اضطر الاثنان إلى مغادرة بلدهما منذ سنتين، حاملين إلى العالم الحر وإلى قضائه قرصًا صلبًا مليئًا بصور الجثث العجفاء والمعذبة والحاملة لأرقام نقشت على جلدها. سنتان، وما تزال آلة الموت السورية تستكمل روتينها القاتل، وما تزال الإجابات شحيحة جدًا. لم يستطع أحد شرح تعاقب الأرقام على أجساد المعتقلين الموتى وإيضاحها بصورة رسمية حتى الآن، وفي ما إذا كانت تلك الأرقام هي نفسها التي تعطى للمعتقل لحظة دخوله السجن، أم أنها تُمنح عند خروجه، ميتًا، من الزنزانة؟

يقول سامي بغضب ومرارة: (ما تزال تنقصنا كثير من المعلومات عن الطريقة التفصيلية التي يُعمل بها لأن السوريين يخافون الكلام. الحرب مستمرة منذ أربع سنوات، ويتحدث الدبلوماسيون عن مصالحات وانتقال، هل يعني ذلك أن أعضاء أجهزة الاستخبارات سيبقون؟ بعد ما جرى كله؟ وهل يعني ذلك أن قيصر وأنا سنبقى مطلوبين من النظام؟).

على بعد آلاف الكيلومترات من تلك المدينة الواقعة في شمال أوروبا، حيث وجد الرجلان ملجًا لهما، تتفحص عائلات سورية، في كل يوم ويوم، صور الجثث على أمل إيجاد علامة في الوجه أو نظرة تسمح لهم بالتعرف إلى أحد ذويها. بحث سقيم على الإنترنت في أعماق المعاناة. لا يريد قيصر رؤية صور الموتى المرقمة، لقد عاش معها مدّة طويلة، التقطها وأرشفها ونسخها، ومن ثم عرضها على العالم. اليوم، لا يرغب في الحديث عنها، ويريد أن ينسى.

الملحقات

الملحق 1

ملف من قسم التصوير الجنائي، فرع الشرطة العسكرية نسخه قيصر

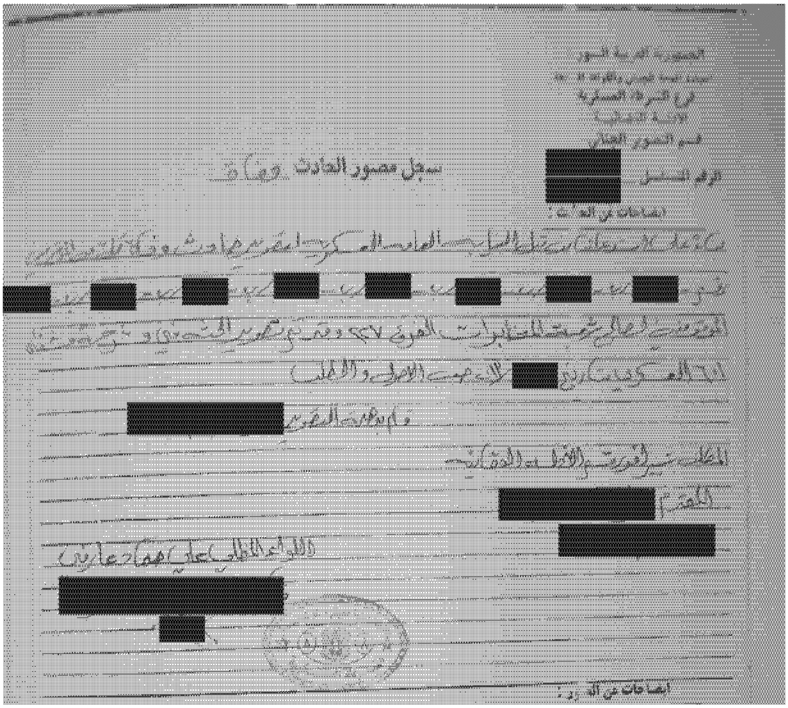

سجل مصور الحادث

[redacted]

الملحق 2

أمر اعتقال صادر عن الفرقة الخامسة.

حصلت لجنة العدالة والمساءلة الدولية على هذا المستند.

الفرقة الخامسة – مكتب الأمن　　　　برقية فورية

الرقم: // ميلا //

التاريخ: [redacted]

إلى قائد اللواء : / ١٢- ١٥ - ١١٢ - ١٣٢ - الفوج ١٧٥ /

قائد الكتيبة : / ٥٦- ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ١٢٧ /

استناداً للكتاب رقم [redacted] تاريخ [redacted] الصادر عن شعبة المخابرات – الفرع ٢٦٥ والمصدق من قبل قائد المجموعة الأمنية بدرعا ومشاهدة قائد الفيلق الأول ..

يطلب إليكم : إدراج الأسماء التالية ضمن لوائح المطلوبين وفي حال مشاهدتهم توقيفهم فوراً وسوقهم إلى الجهات الأمنية المختصة وهم :

١- [redacted]
٢- [redacted]
٣- [redacted]
٤- [redacted]
٥- [redacted]
٦- [redacted]

[redacted]
قائد الفرقة الخامسة
[redacted]

– ملاحظة :

– تحفظ هذه النسخة لدى قائد اللواء ((الفوج)) – الكتيبة ويمنع توزيعها أو تعميمها .

– يعمم أسماء المطلوبين من قبل قائد اللواء (الفوج – الكتيبة) وذلك بصياغة مستخرج (لائحة بالمطلوبين) إلى قطعاته (ووحداته) المرؤوسة ويمنع تداولها إلا من قبل الضباط أصحاب العلاقة **حصراً** على نقاط التفتيش..

الملحق 3

أمر دفن لمعتقل مات نتيجة (توقف قلبه وتنفسه) خلال التحقيق معه. نسخ قيصر هذا المستند بوساطة هاتفه الجوال.

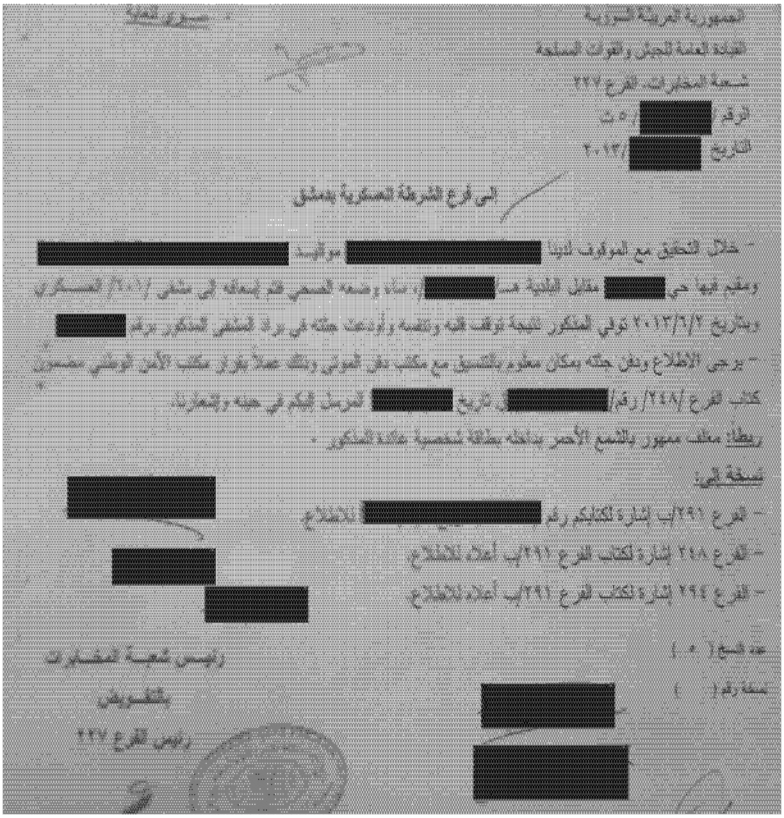

الجمهورية العربية السورية — سري للغاية

القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة

شعبة المخابرات. الفرع ٢٢٧

الرقم [redacted] / ٥ ث

التاريخ [redacted] /٢٠١٣

إلى فرع الشرطة العسكرية بدمشق

- خلال التحقيق مع الموقوف لدينا [redacted] مواليد [redacted]
ومقيم فيها حي [redacted] مقابل البلدية مس[redacted] ساء وضعه الصحي فتم إسعافه إلى مشفى /٦٠١/ العسكري
وبتاريخ ٢٠١٣/٦/٢ توفي المذكور نتيجة توقف قلبه وتنفسه وأودعت جثته في براد المشفى المذكور برقم [redacted]

- يرجى الاطلاع ودفن جثته بمكان معلوم بالتنسيق مع مكتب دفن الموتى وذلك عملاً بقرار مكتب الأمن الوطني بمضمون كتاب الفرع /٢٤٨/ رقم/[redacted] تاريخ [redacted] المرسل إليكم في حينه وإشعارنا.

ربطاً: مغلف ممهور بالشمع الأحمر بداخله بطاقة شخصية عائدة للمذكور.

نسخة إلى:

[redacted]

- الفرع ٢٩١/ب إشارة لكتابكم رقم [redacted] للاطلاع.
- الفرع ٢٤٨ إشارة لكتاب الفرع ٢٩١/ب أعلاه للاطلاع. [redacted]
- الفرع ٢٩٤ إشارة لكتاب الفرع ٢٩١/ب أعلاه للاطلاع. [redacted]

عدد النسخ (٥)

نسخة رقم ( )

[redacted]

رئيس شعبة المخابرات

بالتفويض

رئيس الفرع ٢٢٧

[redacted]

الملحق 4

رسم للطبقة من الفرع 215 الذي كان أحمد الرز معتقلًا فيه.

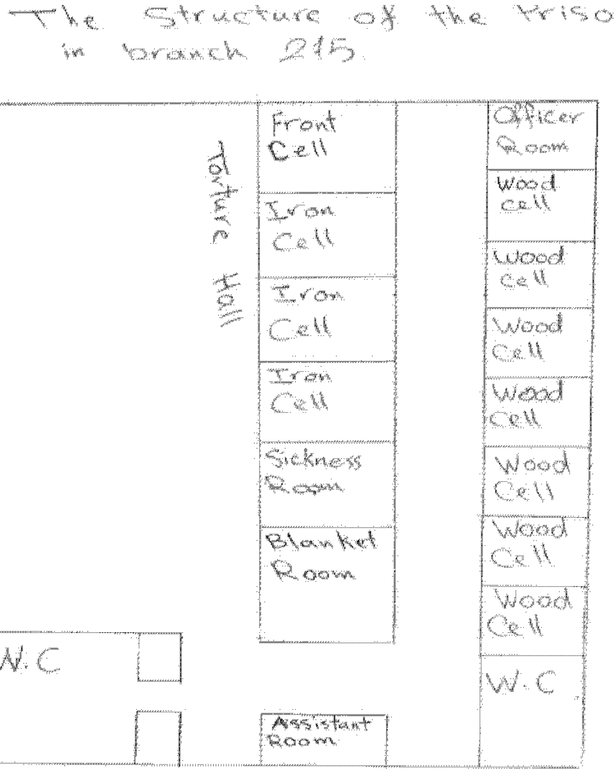

الملحق 5

فروع الاستخبارات وألوية الجيش: الأماكن التي أتى منها المعتقلون القتلى الذين تظهر صورهم في ملف قيصر. أنجز هذا الملف مجموعة قيصر.

1. الفرع 215 للاستخبارات العسكرية (المداهمات)
2. الفرع 248 للاستخبارات العسكرية (التحقيق)
3. الفرع 227 للاستخبارات العسكرية (المنطقة)
4. الفرع 235 للاستخبارات العسكرية (فلسطين)
5. الفرع 220 للاستخبارات العسكرية (منطقة سعسع)
6. الفرع 216 للاستخبارات العسكرية
7. الفرع 291 للاستخبارات الجوية (التحقيق)
8. الفرع 293 للاستخبارات العسكرية
9. الفرع 261 للاستخبارات العسكرية (فرع حمص)
10. الفرع 295 لأمن الدولة
11. الفرع 251 لأمن الدولة
12. دائرة الاستخبارات العامة (أمن الدولة)
13. الاستخبارات الجوية (فرع المعلومات)
14. الاستخبارات الجوية
15. الحرس الجمهوري
16. الفرقة الأولى مدرعة
17. الفرقة الرابعة مدرعة
18. الفرقة التاسعة مدرعة
19. حرس الحدود
20. الفرقة الأولى مدرعة، الفوج 141
21. الفوج 274
22. إدارة المدفعية والصواريخ للفوج 157
23. فرع الشرطة العسكرية
24. الدفاع الوطني، الشبيحة (ميليشيات حكومية)

الملحق 6

جدول إيكسل جهزته مجموعة قيصر، ويحتوي على بيانات المعتقلين المصورين

No	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	
Branch	215	227	216	235	248	220	251	MP	SAF	Others	Anonymous reference	Grand Total
Young	3170	1849	271	91	43	44	100	41	318	65	101	6087
Minor	72	33	2	0	2	0	1	0	2	0	2	114
Elderly	280	167	20	36	9	6	9	4	32	4	8	585
Total victims	3532	2049	299	127	54	50	110	45	352	69	111	6786
slimness	1961	557	212	63	24	24	16	22	44	4	9	2936
Skin Injury	702	456	210	46	25	22	10	17	12	1	9	1510
Light Torture	1182	984	33	53	21	18	65	17	256	47	67	2738
Chemical Materials	5	6	0	0	0	0	14	0	1	6	5	37
Gouge out Eyes	389	380	54	12	6	4	0	3	4	1	2	455
Lesions	158	359	17	9	5	5	13	1	9	2	9	585
Tattoo	181	151	34	4	2	6	4	0	30	0	9	361
Choke	30	32	15	0	0	0	0	1	0	0	0	78
Electrocution	0	2	6	0	0	0	0	0	0	0	0	8
Severe Torture	8	16	0	0	1	2	1	0	8	1	0	31
Trace of Whips	1	1	1	0	0	0	0	0	0	0	0	3
Conclusive Wounds	6	4	2	0	0	3	1	0	14	15	20	65
New Blood Trace	67	23	4	2	0	0	1	0	20	18	25	160
Herniated Intestine	0	1	0	0	0	1	0	0	3	1	0	6
Medical Procedure	24	16	5	5	0	2	16	1	20	7	6	102
Break	5	1	0	0	0	0	0	0	2	1	7	16
Splint	0	1	2	0	0	0	0	0	2	0	0	5
Holes in Flesh	4	4	0	1	0	1	2	1	7	0	2	22
Tashahhud	26	27	8	1	6	3	3	1	16	1	1	93
Surgery	1	4	2	0	0	0	0	0	5	0	4	16
Physical Disability	2	0	1	0	0	0	0	0	0	0	0	3
Grand Total	532	819	386	196	64	85	145	64	427	105	175	238

شكر

أود، في البداية وقبل كل شيء، أن أشكر قيصر قبوله أن يروي قصته بشكل مطول، لم يكن هناك غنى عن ثقة سامي، فتح عماد الدين الرشيد وحسان شلبي ملفاتهم أمامي. وشارك الناجون من المعتقلات، الشهود في هذا الكتاب، ذكرياتهم المصحوبة غالبًا بالألم. لن أنسى شيئًا من تلك اللحظات.

لم يكن لهذا البحث أن ينطلق من دون مساعدة نعيم قصير ودعمه الأساسي، كما لم يكن له أن يتم من دون سوسن بن شيخ وترجمتها للقاءات عدّة، ونصائحها وبحثها عن المعلومات. وقام فرانسوا برغات بالمساعدة في لحظة مفتاحية خلال البحث.

لقد قامت إيلينا ديليا، من مركز Primo-Levi في باريس، التي تقدم الرعاية لضحايا التعذيب والعنف السياسي، بالاستماع إلى شكوكي ومرافقة خطواتي. وأعاد زياد ماجد قراءة النص بإتقان ليجنبني ارتكاب الأخطاء.

وأود شكر باتريك أنجيفان لحضوره الخفي والأساسي خلال تلك الأشهر الطويلة، ولون وليلي لصبرهما وابتسامتيهما.

قامت فاليري بارلان وعائشة أرناؤوط بتتبع مراحل هذا البحث بكل لطف.

أشكر فرانسوا آزوفي ومانويل كاركاسون من دار نشر Stock لقبولهم نشر هذا العمل. كان لصبر كابوسين روات وصرامته خلال الأسابيع الأخيرة قيمة عالية مطمئنة.

وأود توجيه تحية خاصة لكل من منحني هدية الإيمان بهذا العمل حتى النهاية.

في النهاية أود أن أشيد بفلاديمير غلاسمان، مراقب الأزمة السورية الذي لم يكل، الذي توفي في 21 آب/ أغسطس 2015، إذ سمحت لي نظرته الثاقبة بفهم تضاريس أماكن التعذيب والمستشفيات التي التقطت فيها الصور.